سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل الثاني

وقائع
أيام المذبحة

obeikan.com

obeikan.com

١ - البداية

عندما أيقنت أننى داخل المذبحة ولا فكاك منها تذكرت دعوة وليام ولاس التى أبدعها الفنان ميل جيبسون فى فيلم «القلب الشجاع » عندما أدرك أن الموت قدره لا محالة وأن موته ليس نهاية بل بداية الطريق فقال: « اللهم امنحنى القوة لأموت ببسالة » .. كنت أقاتل مثل شاعر محارب سلاحه القلم والأمل إلا أن ما يجرى جعل أسلحة أخرى تنضم إلى منظومة الشاعر المحارب أهمها الرغبة فى كشف الحقيقة التى لا يعلم أجزاء من تفاصيلها إلا منهم داخل المذبحة سواء قاتلين أو مقتولين .

بدأت أولى خطواتى للعيش داخل المذبحة بتوفير الإمكانيات الملائمة للعيش فى هذا المبنى المهجور وهذا المكتب الموحش الذى سوف يصبح مقرا للعمل والإقامة فى نفس الوقت وهو ما يعنى حتمية إيجاد أى نوع من الألفة بينى وبين المكان بكل سكانه من قوارض وحشرات ومخاوف وقلق وهواجس يؤججها آلاف الصور والخيالات التى رسخت فى ذاكرتى منذ كان الشاب العراقى الطيب يقص على مسامعى ما يدور بالعراق فى أول يوم مضى من مهمتى العصيبة .. يغلف كل ذلك رائحة بقايا الطيور العفنة التى تملأ أرض المكتب يزيد من أثرها المقرف الرياح التى تستقر فى هذا القفر فى نهارات صيف يوليو التى تلامس درجة الحرارة فيها سقف الـ٥٠ درجة لتزيد جحيم المكان جحيما يستعصى على الاحتمال يجعل نفسى تنزع إلى استنشاق عبق يوم واحد فى قاهرة المعز.

تمتد حدود المكان إلى مسافات مديدة لترسم فى مخيلتى شتى الرؤى .. فليس لدى فى هذا المكان الموحش سوى استحضار آلاف الصور والخيالات المنقوشة فى مخيلتى عن بيتى الهادىء وأسرتى الرائعة التى غادرتها منذ يومين فقط أشعر بهما عامين .. صور لأحضان مفتوحة تنتظر عودتى منتصراً .. صور لأصدقاء يتابعون أخبار الموت المجانى ينتظرون خبرا يؤكد أو ينفى مقتلى وأنا أردد عليهم قول جابرييل جارسيا ماركيز « نحن لا نموت عندما نريد .. بل نموت عندما نستطيع » .. صور لمشهد موت مفاجىء قد أكون بطله .. صور لعتمة أشد حضورا من الضوء فى كل مكان من المدينة المنكوبة .. صور لعويل أمهات ترتجف بشهوة البقاء بعد أن فقدت عزيزا تثير فى نفسى الضيق والتبرم .

قررت أن أنهى ذلك الشريط من الصور التى تولد المخاوف ورفعت بصرى إلى

السماء مستنجدا من تلك الوحشة .. تذكرت قول الشاعر الفلسطيني الأشهر محمود درويش « حاصر حصارك بالجنون وبالجنون وبالجنون .. ذهب الذين تحبهم ذهبوا .. إما أن تكون أو لا تكون » .. وقررت أن أكون داخل المذبحة بكل تفاصيلها مهما كلفني ذلك من ألم ومشاق وأن أصنع نجاحا من تلك الكارثة التي وجدت نفسي في أتونها - مطالبًا ليس فقط بالحياة داخلها وإنما تحقيق انتصار- أعود به من مهمتي التي أعتبرها مثل أي صحفي حقيقي مهمة مقدسة .. والحقيقة أنني لم أجد مشقة كبيرة ولا غرابة في ذلك فمن يعرفني جيدا يعلم أنني اعتدت على ذلك النمط من الحياة الشاقة بالغة القسوة مما جعل عندي الرخاء والقحط سيان بعد أن عقدت صداقات حميمة مع كل صور وأنماط العيش فالناس هم الناس في كل أصقاع الأرض وآمالهم وآلامهم وطموحاتهم تكاد تكون واحدة ..

قليل من الظروف القاسية بلا أي مقومات للحياة وسط أشد المخاطر ربما يزيد الأمر سوءا إلا أنه في النهاية ليس مستحيلا أن تعقد صداقة مع نمط الحياة الجديد بكل تفاصيله .. فقط هي الإرادة والأمل كفيلان بتحويل هذا القفر المليء بالفواجع إلى مكان يعج بالحياة .. يحتضن الأمل .. فالحياة ممكنة في أي ظروف .. باقية ..لا يحدها قيد .. ولا يغلبها فناء.. أما أنت أيتها الغربة الكئيبة فسوف أقهرك بالصبر والصمود والأمل حتى تزدهر الحياة وسط مذبحة تزداد اشتعالا .. وكلما ازداد اشتعالها كلما ازدادت الأسئلة التي تؤرقني وارتفع صوتها تطلب إجابات تبدو على الأقل مقنعة لعدد ولو بسيط من الناس وهو ما جعل مهمتي يوما بعد آخر تأخذ أبعادا جديدة تتطلب طرق أبواب جديدة وسلوك طرق جديدة ربما يكون الموت مختبئا في أحد جوانبها .. كان على أن أكتشف الكثير من أسباب القبح التي باتت تغلف المشهد العراقي دون أن أنسى أن هناك دائما ضوء في نهاية النفق وأن ما يجري ربما يكون مرحلة العبور إلى هذا الضوء مهما استغرق ذلك من وقت ومهما كلف من خسائر في النفس والمال .. ألم يقل أعز من قال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

تذكرت في تلك الأثناء صفة أطلقها الخبير الإعلامي ياسر عبد العزيز عندما كنا نسير يداً بيد في بداية طريق صاحبة الجلالة بعد تخرجنا من كلية الإعلام جامعة القاهرة حيث شاركني في كل تفاصيل حياتي والملابسات المستحيلة التي رافقتني عندما بدأت خطواتي الأولى في عالم الصحافة في قاهرة

المعز .. كان يصفنى دائما «بصاحب الإرادة الحديدية » وهى الصفة الموازية لصفة ظلت لصيقة باسمى يرددها أصدقائى من العراقيين سواء الصحفيين أو غيرهم وكذلك رئيس وكالة أنباء الشرق الأوسط الأستاذ عبد الله حسن وهى « الفدائى» لأن كل الطرق المؤدية من وإلى مهمتى هى طرق مزروعة بالموت فما بالك أشد تلك الطرق خطرا وهو طريق البحث عن الحقيقة الذى قال عنه الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه : « لا تستوحشوا طريق الحكمة لقلة سالكيه » .

٢ - كيف أجد إجابات

لعل المثير فى الأمر هو أن العراق الذى رزقه الله بكل الثروات والخيرات وكان من أوائل الحضارات أبى أيضا إلا أن يكون ثريا فى حجم الكوارث والأزمات وهو ما ارتد ثراء فى أسئلة تريد إجابات تزداد وتتمتد كلما امتد زمن المذبحة .. قائمة طويلة من الأسئلة تتردد لا أستطيع أن أحصيها ولا أعتقد أن مهمتى سوف تمتد للإجابة عليها مهما طالت لهذا قررت حصرها فى أضيق نطاق ورتبتها وفق أولوية تغيرت مع تغير ظروف المهمة الصحفية التى امتدت أربعة أعوام .. بدأت أتساءل عن عدد طموحات الفقراء والمضطهدين التي أجهضت في العراق فارتدت إليهم خيبات باعتبارهم الفريق الذى يتلقى دائما الطعنات من الفرق المتنافسة لتكرر أسطورة جلجامش نفسها من جديد فى أرض سومر عندما تحالف مع عدوه أنكيدو الذى خلقته الالهة أورور استجابة للآلهة عشتار الجميلة ليخلص الشعب من ظلم جلجامش وجبروته ومع ذلك رحب الشعب الطيب بهذا التحالف أملا فى أن يصلح أنكيدو عدوه جلجامش المتجبر الذى أذاقهم الويلات ..ما أعداد الأحزاب ومصادر تمويلها ،وعرابو تلك الأحزاب والتنظيمات من الساسة الذين لم يكن لديهم ارث نضالي سابق ،وعن الساسة الذين غيروا خط مسارهم ١٨٠درجة من عضو فما فوق في حزب البعث[1] . إلى مسميات أخرى في أحزاب موجودة على الساحة ليمارسوا ما كانوا يمارسونه من استغلال واستبداد وفساد ولكن تحت عناوين أخرى بعضها يمتلك الكثير من القدسية.

وماذا عن مشاريع الأحزاب ،والكتل التي لم تنفذ، والتي طرحت لتضليل الناخب

(١) حزب البعث الاشتراكي الذي كان يتزعمه الرئيس الراحل صدام حسين وحكم العراق أكثر من ٣٠ سنة .

من اجل الوصول إلى السلطة.. وما حجم أملاك الساسة قبل استلام السلطة، وأملاكهم الحالية في الداخل والخارج ،المسجلة بأسماء ذويهم أو أقاربهم أو من يدينون لهم بالولاء مثلما فعل صدام حسين وجوقته قبل ذلك وضاعت المليارات دون أن تستفيد منها البلاد أو العباد .

وما مصير وعود أطلقها ساسة لم تنفذ ،ومصير لجان التحقيق المشكلة في قضايا مهمة ولم تخرج بنتيجة كان يجب أن تفسر ما لا يفسر .. وما مصير من جرى اختطافه من رموز وشخصيات من الوزن الثقيل أمثال السفير المصرى الفقيد إيهاب الشريف وأعضاء اللجنة الأوليمبية الذين تجاوز عددهم العشرين بما فيهم أحمد الحجية السامرائى رئيس اللجنة ومراجعى وموظفى دائرة البعثات الذين تجاوز عددهم الـ ١٥٠ شخصا ثم من نفذ عمليات اختطاف الجنود الأمريكيين والحراس البريطانيين ناهيك عن المواطنين العاديين الذين لا يحملون صفات أو ينتمون لجهات نافذة ومنهم عراقيون ومصريون وعرب .

وما عدد الساسة ولصوص المال العام والخاص وأموال الدولة والحواسم/ مصطلح وجد طريقه إلى ألسنة العراقيين بعد احتلال العراق ويطلق على كل شيء غير قانونى نسبة إلى عمليات النهب والسرقة التى تلت دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد فى معكرة أطلق عليها صدام حسين معركة الحسم عام ٢٠٠٣ / الذين سرقوا وهربوا والذين مازالوا يسرقون، وأعداد منظمات المجتمع المدني التي شكلت ،والعدد الفعلي الذي يقدم خدمات للمواطنين وأين يذهب ما يجمعوه من أموال تتجاوز ملايين الدولارات دون أى تواجد حقيقى اللهم إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد.

وما هو العدد الحقيقي للتفجيرات، التي حدثت في العراق بواسطة السيارات المفخخة ،والعبوات، والانفجارات الأخرى، الغامضة وحجمها وقوتها وعدد الشهداء والمفقودين، وعدد من فقدوا بيوتهم، وسياراتهم، وممتلكاتهم، ولماذا لم يتم تعويضهم، وما هى أعداد الإرهابيين المقبوض عليهم بجرائم إرهابية، وأعداد المحكومين بالإعدام ،من نفذ الحكم بهم، و من أطلق سراحهم، أو هربوا من السجون .. كيف هرب ياسر سبعاوي من سجن الموصل ،وكيف تمكن المحكومون بالإعدام من الهرب من سجن تكريت و كيف تمكنت فرق الموت التى تحمل مسميات مختلفة وجنسيات مختلفة ومذاهب مختلفة من الدخول إلى العراق بهذه الأعداد ومن أين تأتى مليارات الدولارات التى تمول نشاطها هل من الشرق أم الغرب .. وكيف يسمح لقادة فرق الموت والميليشيات بالخروج من سجونهم دون

محاكمة رغم ثبوت الكثير من تهم القتل والاختطاف الموجهة إليهم .. وما حجم الصفقات التى تتيح إطلاق سراح من هم مثل قائد عصائب أهل الحق قيس الخزعلى بعد أن ثبت بلا شك قيامهم باختطاف البريطانيين الخمسة من أحد مبانى وزارة المالية وسط بغداد وقتل أربعة منهم .. وكيف استطاع زعيم التيار الصدرى أن يفرض قضية إطلاق سراح أتباعه حتى المحكومين بالإعدام كشرط لتمرير تشكيل الحكومة العراقية التى طال انتظارها بعد انتخابات رائعة جرت فى مارس عام ٢٠١٠ .. وكيف تتحكم كتل سياسية شبه فاشلة فى الانتخابات فى مصير قوى حققت أغلبية ساحقة فى المقاعد البرلمانية .. كيف تجرى المعادلات وترتسم ملامحها رغم تناقض أرقام معطياتها عن نتائجها الحتمية .

كيف تتفشى ظاهرة التردي الأمني، وتحدث الخروقات الأمنية بين آونة وأخرى وأسبابها الحقيقة غير تلك التي يقولها المتحدثون بأسماء القيادات والوزارات الأمنية وكيف تصل سيارات محملة بأطنان من المتفجرات إلى مناطق لا ينفذ منها بشر إلا بسلطان .. وكيف تؤشر أجهزة كشف المتفجرات إلى من يضع عطرا أو يحمل أغراضاً منزلية مثل صابون التواليت ولا تؤشر عند مرور أسلحة ومتفجرات فيفعل من يحملها ما يفعل من قتل وتخريب بدم بارد[1] .

وما هى أعداد تلك الخروقات الأمنية المسجلة،وغير المسجلة وأعداد الإرهابيين والمتسللين، و الحجم الحقيقي لتدخل دول الاحتلال ودول الجوار و دول الإقليم في الشأن العراقي .

كنت دائما أتساءل: لماذا تظل المبانى الموسومة بالرصاص وآثار التفجيرات شاخصة لتروى حكايات المرارة والألم التى غلفت المشهد العراقى فى زمن المذبحة .. ولماذا تبقى ملامح الخراب فى مناطق تقع بقلب عاصمة الرشيد فى أحياء الفضل والكفاح والصدرية وغيرها من المناطق التى رسمت طلقات الرصاص والمدافع على حوائطها خرائط الموت والعذابات لسكانها الطيبين الفقراء الذين وجدوا أنفسهم فى أتون حرب فرضت عليهم لتحرق يابسهم المحترق أصلا بفعل سنوات الحرب والحصار وتزيد آلامهم التى لا يحتملها بشر .

وماذا عن ملف الاغتيالات المنظمة التي طالت كل كفاءات العراق وزهرتها من

(١) نشرت الصحف البريطانية تقارير موثقة حول عدم صلاحية تلك الأجهزة المنتشرة في شوارع بغداد وكيف تمت الصفقة بين مسؤولين عراقيين وأصحاب الشركة البريطانية من خلال رشاوي وفساد .

العلماء، والأطباء،والفنانين والصحفيين والرياضيين وأساتذة الجامعة ،والطيارين ومن هى الجهة التي خططت ونفذت تلك العمليات القذرة بشكل منظم .. ومن المسؤول عن موجة القتل المبرمجة التي طالت مكونات عاشت وشكلت جزءا من الفسيفساء العراقية التى كانت أحد عناصر القوة الناعمة مثل المسيحيين، والصابئة المندائيين، والايزيديين، والشبك .

لماذا لم تعلن الحكومة عن الجهة التي ينتمي إليها القتلة بعد أن ألقي القبض على بعضهم كما صرح بذلك الناطقون الرسميون .

وماذا عن الحروب الطائفية،ومن أشعلها، ومن ساهم في أذكاء نيرانها المشتعلة لتستمر حوالى عامين وتكاد تودى بالبلاد إلى حرب أهلية شاملة ومن غذاها لتحصد أرواح مئات الآلاف من الأبرياء وما مصير الجثث مجهولة الهوية التى كان الكثير منها غذاءاً للكلاب الضالة بينما رقد ما تبقى منها فى مقابر جماعية دون أن يمتلك ذووها حق دفنها وأخذ العزاء واكتفوا بمجالس عزاء وهمية أو لم يفعلوا ذلك .

وماذا عن القضية الشائكة العصية على الحل والتى استمرت حتى إنهاء مهمتى فى عام ٢٠١٠ أى بعد مرور ٧ سنوات على سقوط نظام صدام حسين (قضية الكهرباء) كم من المليارات خصصت لتطوير قطاع الكهرباء؟ كم صرف منها، وكم سرق ،وكم سيمضي من الوقت لينعم العراق صاحب ثالث اكبر احتياطي نفطي بالكهرباء ؟! وما هو حجم بيزنس المولدات المنزلية ومولدات الأحياء وكميات السولار والبنزين التى تلزم لتشغيل أكثر من ٧ ملايين مولد منتشرة بالعراق سنويا وكيف يتم استيراد المشتقات النفطية ويتم بيعها من خلال لصوص يعرفهم العراقيون باسم « البحارة» وكيف لا يجد العراقى الذى تعوم بلاده على بحور من النفط / الكيروسين/ الذى يدير به المدفأة النفطية / الصوبة[1] / فى مساءات شتاء العراق الموحشة ونهاراته قارسة البرودة .

وما هى أعداد العوانس، والمطلقات، والأرامل، والأيتام والمشردين و كبار السن والمعاقين من ضحايا التفجيرات وأعمال العنف،و أعداد المهجّرين والمهاجرين والنازحين قسرا أو قهرا سرا أو علنا والى من آلت ممتلكاتهم وبيوتهم .

(١) الصوبة : هي مدفأة تعمل بالكيروسين يستخدمها العراقيون في الشتاء القارس بسبب عدم وجود كهرباء لتشغيل المدفأة الكهربائية .

وما أعداد الذين ماتوا بسبب عدم توفر الدواء أو ثمنه الذى يستعصى على غالبية العراقيين توفيره فى ظل أزمة بطالة خانقة، أو بسبب الأدوية المغشوشة التى أثرى منها معدومو الضمير والأخلاق ، والذين ماتوا بسبب العواصف الترابية التى تقذف بها أرض السواد بعد أن أصيبت بالجفاف واحترقت أشجارها وتراجع عدد نخيلها إلى الربع تقريبا بعد أن كانت أحد رموز عراق الخير .

وما هى نسبة التلوث البيئي فى الهواء والتربة ،وتصحر وملوحة الاراضي ، وتدهور الوضع الزراعي، والجفاف ،وتدني نسبة المياه في نهري دجلة والفرات، وجفاق نهرالكارون ونهر الوند الواقعين فى محافظة البصرة جنوبى البلاد والذين قطعت الجارة الشرقية المياه وحولت مجراها إلى الداخل فجف الزرع والضرع وماتت الكائنات الحية التى كانت تعتبره مكانها الطبيعى للعيش والتكاثر ، وعن أعداد أشجار النخيل ، والأشجار المثمرة المتبقية من موجات الموت الجماعي ومعرفة أعداد الأشجار الميتة .سأحاول معرفة مساحة الأراضي العراقية المصادرة، أو المعتدى عليها من دول الجوار،وعن سرقة آبار النفط العراقية ،كميات النفط العراقية المسروقة!

وما عدد الذين ماتوا بسبب انتشار الأوبئة، والأمراض المزمنة ،والمستعصية والذين أدمنوا الحشيش ،والمخدرات، وحبوب الكبسلة وهى أمور لم يعرفها العراق على مدى تاريخه الحديث قبل دخول القوات الأمريكية واستباحة أرضه من جيران استغلوا الوقت المناسب للانتقام أو العبث أو القتال بالوكالة وتصفية الحسابات على أرضه بعد أن فقد أهله السيطرة عليها .

وما هى واردات العراق المالية من مبيعات النفط الذى اعتبره البعض ملكا لهم ونصيبهم الذى صادره صدام حسين طوال عهده الذى استمر ٣٥ عاما وكونوا مليارات الدولارات حتى إن شريط فيديو تم تناقله عبر أجهزة المحمول أظهر أحد الذين لم يعرفوا فى حياتهم شكل الدولار وهو قابع فوق بنيان من الورق الأخضر استطاع جمعه من التجارة غير المشروعة فى النفط إلا أنه لم يتمكن من تصريفه الذى يحتاج إلى الاستقلال بجزء من العراق المستباح وإعلان دولة تكون تلك الأكداس من الدولارات ميزانية لها لمدة عامين[1] .

وما حجم الدخل القومى العراقى من الموارد الأخرى غير النفط وحجم وطرق

(١) أثناء إحدى الحملات العسكرية جنوب العراق تم اكتشاف بناء كامل مليء بالدولارات يعود لأحد مهربي النفط وتم تصويره بالموبايل وتناقله العراقيون عبر البلوتوث .

الإنفاق، والأرقام الحقيقية للأموال التي تدفعها وزارة المالية كرواتب، و ميزانيات، ونثريات يقال إنها تقدر بالمليارات للرئاسات الثلاث /الجمهورية و الوزراء والنواب ؟

وما حجم التبادل التجاري الذى يسير فى اتجاه واحد بالطبع لمصلحة دول الجوار حتى أن الخيار والطماطم والأيس كريم / الموطا/ والمناديل الورقية مرورا باللحوم والدواجن والمعلبات ومنتجات الألبان والملابس والمشتقات النفطية .....الخ يحمل كل منها إسم الدولة التى جاء منها .. وما هو حجم الأموال المحولة للخارج، والأموال التى تم إنفاقها فعليا على المشاريع العمرانية ، والدوائر الأمنية التى أعيد تشكيلها من جديد بأسلوب الدمج ،وإعادة البني التحتية التى تكفى ميزانيات العراق الانفجارية لجعلها تفوق البنى التحتية لأرقى بلاد الدنيا وكما يقول العراقيون الطيبون : إن شوارعنا التى يكسوها التراب وتمزق الحفر أوصالها يجب أن تكون مكسوة بالحرير وما حجم أزمة السكن فى بلد تستطيل به الأرض آلاف الكيلومترات تنتظر من يقيم عليها مساكن للمشردين والفقراء الذين يبيتون فى العراء وأين شبكات المياه والمجارى التى يخصص لها ملايين الدولارات سنويا .

وما أعداد الدوائر والمستشفيات والمدارس، التى تم بناؤها منذ عام ٢٠٠٣ وما بنى منها هل صمد أم انهار كما انهارت أشياء كثيرة .

وإلى متى تستمر أزمة البطالة الخانقة ، وما هو أعداد العراقيين المعينين بعد دفع رشاوى، أو الذين عينوا عن طريق كتب تأيد وتزكية من أحزاب ،وعن المعينين بالواسطة،والمعينين بالصدفة وهو ما جعل مجلس النواب يقر ميزانية عام ٢٠١٠ مع توصية بمنع الوظائف والتى كان يقدر عددها بحوالى ١١٥ ألف وظيفة خوفا من استغلالها فى الدعاية الانتخابية التى كان ينظر إليها العراقيون والعالم على أنها ستعيد رسم خارطة النفوذ وتصلح ما أفسدته المرحلة الانتقالية التى استطالت لتستطيل آلام البلاد والعباد .

وما هو الحجم الحقيقى للمظاهر التى ترافق غالبا انتشار البطالة المطعمة بالفساد .. فما هى الأعداد الحقيقية أو حتى التقريبية لحالات الطلاق والهجر، وما حجم ظاهرة الشذوذ الجنسى وما يطلق عليه العراقيون « الجراوي أو الطنطات المثليين » ، وما سبب ازدياد أعدادهم في شوارع بغداد وفى مناطق يفترض أنها تخضع لتشدد دينى مثل مدينة الصدر .. وما عدد من تم تصفيته من هذه النماذج .

وماذا عن القاموس الأحمق الذى دخل حياة العراقيين تزامنا مع سقوط بغداد بما يحمله من المصطلحات اللغوية وأهمها «الحواسم ، والصكاكه ، والعلاسة ، والحدايق، وسواق المخدات، والفايخين » .. من أين أتت هذه المصطلحات ،وما هي الجهة التي أشاعت ثقافة (العلس والصك) في العراق وهى ثقافة الخيانة والتدليس وبيع اقرب المقربين حتى يتم قتله أو يلقى مصيره قبل الحصول على فدية مالية .

وماذا عن حجم الخراب، الأخلاقى وما خلفه من شهداء،الموت العبثى من عاهات أخلاقية مستديمة، وأمراض مستعصية نفسية واجتماعية تفوق ما حل بالعراق من كارثة أمنية وسياسية .. فما هو عدد المرتشين والمفسدين، واللصوص، والمجرمين، والقتلة، والعملاء الذين نفذوا أجندات خارجية ضد بلدهم دون أى وازع من ضمير ولماذا لا تكتمل محاولات الإصلاح التى بدأها البعض كأفراد عاديين أو مسؤولين حتى يعالجوا الأمراض ،والوهن، واليأس الذى أصاب المجتمع والذى رأيته اشد خطورة من العنف والفتنة الطائفية والذى تجلى عندما كنت أقوم بتغطية أثار انفجار مروع نفذه انتحارى بشاحنة تحمل طنا من المتفجرات شديدة الانفجار عندما اقترب منى طفلان كان وجهيهما يحملان بقايا من لمسة البراءة .. اقتربا يحملان فروة راس وكف يد لا ندرى أين بقايا جسديهما وبصوت مرتفع ينتظر صاحبه أن ننعم عليه ببعض المال « صور عمو صور » دون اكتراث بما يثيره المشهد من قشعريرة أصابتنى أنا وزميلى العراقى الذى كان يعمل لحساب وكالة أجنبية .

من الذي قام بسرقة البنوك العراقية ؟ ومن الذي قام بحرق ملفات وزارة الصحة خاصة ما يرتبط بالعقود الخارجية ؟ ومن قام بحرق دوائر التحويل الخارجي في البنك المركزي العراقي؟ ماذا حدث في وزارة التجارة ولماذا هرب الوزير عبد الكريم السودانى بعد أن تمكن شرفاء من إعادة طائرتة إلى مدرج مطار بغداد وتقديمه للمحاكمة بتهم عديدة تتعلق بالفساد فى وزارته ؟ ما سر عقود الطائرات القديمة التي أصرت الحكومة على شرائها ؟ ما سر إلغاء الخطوط الجوية العراقية ، بعد ما قال وزير النقل الذى أجبر على إجازة مفتوحة عامر عبد الجبار مباشرة على التلفزيون الرسمى : إن السر يكمن في تأسيس شركات أهلية للطيران بدل تلك المؤسسة الرسمية العريقة؟! لماذا تبقى الحياة البلدية والمعيشية في العراق بلا خدمات ، وبلا ماء صالح للشرب ، وبلا مجاري .. ؟؟

وخلال رحلتى للبحث عن إجابات عن تلك الأسئلة ولأننى أؤمن بأن هناك

دائما ضوء فى نهاية النفق وأن مهمة الصحفى والإعلامى كشف الحقيقة بكافة أوجهها وليس وجهها السيىء فقط كانت تظهر أسئلة جديدة كل يوم عن حالات انتصار تثير الانبهار وتدعو للأمل وسط كل هذا الركام من اليأس والصور المظلمة .

كنت أتساءل عن عدد من تحققت أحلامهم فى تلك الفترة الانتقالية من تاريخ العراق بين نظام صدام الذى كان يراه ملايين العراقيين كابوسا وعائقا أمام فرص الحياة خاصة عندما شاهدت على شاشة إحدى الفضائيات التابعة لجهة سياسية نافذة فى العراق الجديدة مذيعا شابا لم تخطئه عينى رغم التطور المبهر الذى بدا على مظهره كان يعمل حارسا لأحد البنايات إبان مهمتى الأولى بالعراق التى انتهت قبل دخول القوات الأمريكية إلى بغداد وسقوط نظام صدام حسين .. فكم من الشباب تمكن من تحقيق حلمه وتغيير مصيره فى العهد الجديد ..

وكم من الموهوبين اللذين كان انتماؤهم الطائفى أو العشائرى يقف عائقا فى طريق مستقبلهم تمكنوا من رسم مستقبل جديد لهم رغم دوامات العنف وبحور الدماء .. وكم من العراقيين الشرفاء اللذين تمكنوا من تكوين ثروات عبر طرق لا يشوبها فساد أو انتماءات لفرق الموت مثل ضياء الذى كان يعمل حمالا / شيال/ فى سوق الجملة الرئيسى بالعراق / الشورجة / وأسند إليه أحد أصحاب المحال العملاقة مهمة إدارة تجارته المشروعة فى الأقمشة عندما تعرض لتهديدات ومحاولات اختطاف وأتاحت له ظروف بغداد وتقلبات الأحوال أن يصبح من أصحاب الثروات والسيارات فى بغداد وخارجها بعد أن كانوا يطلقون عليه لقب « أبو اللوبيا» لأنها كانت قوت أولاده الوحيد فى أيام القحط التى استحالت أيام عز فى أيام المذبحة .. وكم من منتسبى الشرطة الشرفاء تمكن من ادخار جزء من راتبه المجزى وحصيلة عمله الإضافى فى مهن راجت بسبب معضلة الكهرباء والماء وهى إصلاح المولدات والتجارة فيها وامتلك سيارة كان يحلم طوال سنوات عمره الأربعين أن يمتلكها أحد أبناء عشيرته وليس هو بنفسه حتى يقول أن هناك من أبناء عشيرتنا من يمتلك سيارة حديثة .. وكم من العراقيين الطامحين إلى العلم تمكن من خوض غماره والوصول إلى مقعد لدراسة الماجستير أو الدكتوراه رغم عمليات القتل المنظم والتدمير الممنهج للكفاءات وحملة الشهادات العليا مثل أبو شهاب الذى أتاحت له وظيفته الحكومية راتبا كبيرا يكفى للمعيشة والدراسة

.. وكم من العراقيين تمكن من اللحاق بركب مهن ووظائف كانت قصرا على ذوى الولاءات والانتماءات .

وكم من العراقيين اللذين ينتمون إلى الطائفة السنية تمكن من الحصول على فرص غالية فى زمن الفرص الضائعة بالنسبة لطائفتهم بعد أن حرموا من تلك الفرص والمزايا فى عهد صدام حسين الذى كان يشار إليه كحاكم سنى أهان الشيعة وعانوا خلال فترة حكمه من الإقصاء والتهميش بينما الحقائق على الأرض تشير إلى أنه ضرب الشيعة والسنة والأكراد واكتوى جميع العراقيين من نظامه الديكتاتورى ولهذا تمكن عبد الرحمن الذى ينتمى لعائلة سنية عريقة فى محافظة صلاح الدين / مسقط راس صدام حسين/بعد أن أتاح له العهد الجديد فرصة تاريخية عندما تولى منصب مدير مكتب وزير الدفاع سعدون الدليمى وتمكن من إعادة مئات الضباط من مختلف الرتب إلى العمل والحياة مرة أخرى بعد أن تم إقصاؤهم فى زمن الحاكم السنى .. وكم من ذوى الخبرات الأمنية تمكنوا من العمل فى ظل النظام الجديد وتبوأوا مناصب عليا ومراكز حساسة فى وزارات وأجهزة أمنية رغم كل المخاطر التى أحاطت بهم من قبل متطرفين محسوبين على مذهب أو قومية أخرى رأوا فيهم صورة جديدة من نظام قالوا : إنه أذاقهم العذاب رغم أن خطايا نظام صدام حسين لم تتوقف عندهم وإنما اكتوى بنيرانها الجميع .. وكم ضابط سنى تمكن من النجاة بفضل أخ له شيعى أنقذه من عمليات التصفيات الجسدية المنظمة التى تولت أمرها الميليشيات الشيعية والقاعدة السنية على حد سواء فى قائمة تمتد لمئات الصفحات كتبتها دماء أبرياء بدعوى انتماءاتهم المذهبية والقاتل واحد .

مئات الأسئلة تفتح الإجابة عليها التى كانت أكثر سرعة وسهولة خاصة عندما أصبحت الحركة المحفوفة بالمخاطر متاحة فى بغداد وعدد من المحافظات أبواب الأمل التى توصل إلى الضوء البعيد فى نهاية النفق .

لم أنسى خلال رحلتى في البحث عن إجابات لكل تلك الأسئلة شعرا لأمل دنقل أضعه دائما ضمن منظومتى التى تحكم عملى وحياتى يقول ..

ربما ننفق كل العمر كى ننقب فى الجدار ثغرة

حتى يمر النور للأجيال مرة

ربما ..لو لم يكن هذا الجدار

ما عرفنا قيمة الضوء الطليق

٣ - عراقيون طيبون

ساعدنى كثيرا فى الاستمرار والتغلب على البداية المستحيلة وجود عراقيين طيبين بجوارى أولهم كان « أبو حيدر » أقدم موظف فى مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط .. يتغير الجميع وهو مستمر .. شيعى عربى طيب من سكان مدينة الصدر التى كانت عنوانا بالغ الوضوح لكل ما يجرى فى العراق .. جوع .. قهر .. فقر ..عنف طائفى أعمى .. ميليشيات.. قتل.. اختطاف.. قذائف هاون.. كاتيوشا .. تفجيرات .. كل ما يصيبك بالجنون من حكايات حقيقية أو مزيفة لحفلات إعدام جماعى لشباب من أهل السنة .. عمليات منظمة للاختطاف .. مخابىء للتعذيب والقتل بدم بارد .. مقر الجيش الذى سوف يستقبل الإمام المهدى[1] عند عودته من الغيبة ويحارب به أهل الكفر والظلم وهو جيش المهدى الذي كان يثير مجرد ذكر اسمه الكثير من الرعب .. قادة فرق الموت والمجموعات الخاصة .. إلا أن أبو حيدر ومثله كثيرون يدل وجودهم على أن الكثير من الصور غير صحيحة أو على الأقل مشوشة فقد كان الرجل يتمتع بطيبة تغلبها مسحة قهر واضحة من زمن سمح لأراذل البشر أن يتملكوا ويحكموا بينما لم يسمح لهذا الرجل الطيب المخلص الذى بكى حينما سقطت بغداد فى مستنقع السرقة والنهب المنظم عقب دخول القوات الأمريكية عام ٢٠٠٣. بمجرد امتلاك منزل يأوى أولاده وأحفاده اللذين أنجبتهم ابنته الكبرى من زوج وجدوا جثته ذات يوم ملقاة على أحدى الطرقات دون ذنب سوى أنه وجد فى راتب الشرطة المجزى معينا على قسوة الحياة فى العراق الجديد .. كان أبو حيدر نموذجا لمئات الآلاف من العراقيين القرويين الذين نزحوا إلى بغداد من أهوار العمارة المحاذية لإيران وهى مركز محافظة ميسان التى تبعد حوالى ٣٦٠ كم جنوب شرق العاصمة إلى بغداد بحثا عن الرزق الصعب ولم تنصفه بحور النفط التى يعوم عليها العراق سواء فى زمن الثوار من أمثال عبد الكريم قاسم أو زمن الطغاة أمثال صدام حسين أو العراق الجديد الذى كرس طبقية من نوع آخر أتاحت للفاسدين والقتلة وقادة فرق الموت

(١) الإمام الثاني عشر لدى الشيعة الجعفرية أو المهدي المنتظر الذي سوف يظهر ليملأ الدنيا خيرًا بعد أن ملئت شرًا وفقًا لعقيدتهم .

أن يبنوا قصورا بينما لم تمنح المخلصين المنكوبين فرصة أن يبنوا لهم لا بيوتا ولا قبورا؛ لأن موتهم دائما يأتى بشكل مفاجىء لا يسمح باكتشاف صاحب الجثة فى كثير من الأحيان ناهيك عن الجثث التى لا تبقى لها التفجيرات الدموية أى اثر لتزيد من مأساة الفقراء وتمنعهم مجرد زيارة قبور عزيز فقدوه ولم يعثروا على بقايا جسده.

إلا أن كل هذه الكوارث لم تمنع أبو حيدر ومن يشاركه طبقته المطحونة من السعى وراء الرزق يجتاز كل يوم طرقا مزروعة بالموت .. وينهى يومه الغابر نائما فى بيت ربما لن يتمكن أن يبيت فيه ليلته القادمة إذا ما أراد صاحبه أن يخليه .. إلا أن صموده لا يختل أبدا وعزيمته لا تلين .. فمثل هؤلاء الطيبين يعيشون بنوع غريب من الأمل .. أمل البقاء على قيد الحياة حتى لو انعدمت كل مقومات الحياة .

قرأ أبو حيدر على مسامعى سيلا من النصائح قبل أن نبدأ العمل ونزيل خرائب المكان وأصر على أن أنصت وأفهم لما يقول قبل أى شيء لأنه يجب أن أتمسك بتلك النصائح فى المهمة الجديدة وأن أعتبرها دستورا حتى أستمر على قيد الحياة إلى أن يشاء الله .. أخبرنى أن بغداد هذه المرة غير التى غادرتها منذ ثلاثة أعوام عندما كنت فى مهمتى الأولى[1] .. وأن المصريين والعرب بشكل عام غير مرحب بهم حاليا فى عاصمة الرشيد وأنه يجب ألا أبتعد عن المكتب كثيرا ولا أخرج إلا بصحبته وألا أجاهر بلهجتى المصرية الفاضحة أو مهنتى الكارثة لأنهما سببان مباشران للقتل إذا اجتمعا فى ذلك الوقت .. أن أظهر بملابس عادية لا تكلف فيها وألا أظهر أموالا أحملها وألا أكون منفتحا فى علاقات حتى مع زملاء المهنة وألا أعطى عنوانى لأى شخص أو رقم هاتفى وألا اتبع أى شخص إلى أى مكان يزعم أن به نشاطا يصلح للتغطية الصحفية مالم يكن موضع ثقة وروى لى موقفا لزميلى مدير المكتب السابق عندما اصطحبه أحد الأشخاص لإجراء مقابلة كادت أن تكون نهايته لولا تدخل شاب عراقى طيب اسمه نمير حداد وهو نجل زميلنا الفاضل صبحى حداد مراسل (البى بى سى) فى بغداد قبل انهيار نظام صدام واضطر للنزوح إلى خارج العراق تبعه ابنه نمير بعد ثلاث محاولات للتصفية ومئات التهديدات رغم تنقله من سكن إلى آخر

(١) كان الكاتب مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط بالعراق أواخر عام ٢٠٠٢، وأوائل عام ٢٠٠٣.

حيث أكد لى نمير القصة التى رواها أبو حيدر قبل فراره إلى دمشق ثم الاستقرار فى عمان بحثا عن ملاذ آمن .

بعد أن أكمل أبو حيدر سرد نصائحه الغالية والثمينة نظر باتجاهى وكأنه ينتظر منى ردا أو أن أقول شيئا إلا أننى كنت مشدوها بما يجرى من هذا الرجل الطيب وإصراره على توفير الحماية لى رغم أنها ليست مسئوليته بينما لا يوجد مقعد نجلس عليه وينتظرنا الكثير من العمل لتجهيز المكتب .. قطع أبو حيدر لحظات شرودى لنبدأ حملة نظافة قاسية استمرت أربعة ساعات شاركنا فى جزء منها عراقى آخر أكثر طيبة عرفت أن يقيم بشكل متقطع فى شقة متواضعة كانت مقرا للحارس فوق سطح البناية حيث يدير جزءا من أعمال صاحب البناية الذى فر إلى عمان بحثا عن الأمن مثل ملايين العراقيين .. وعند حلول الظهر استأذن أبو حيدر حتى يتمكن من العودة إلى مدينة الصدر فى وقت مناسب لأن قانون الغاب الذى بات يحكم العراق أصدر مرسوما بأن ينتهى النهار عند منتصفه ليبدأ نهار آخر يملكه آخرون غير العراقيين الطيبين يعيثون فيه فسادا وقتلا وتخريبا .

أخذ أحمد الطيب دوره فى تقديم العون .. كان شابا مثقفا تخرج من كلية التجارة ووصل إلى درجة نائب مدير دائرة الكهرباء فى منطقة الحبانية التابعة لمحافظة الأنبار التى صارت معقلا لتنظيم القاعدة مارس انطلاقا منها أبشع الجرائم ضد الإنسانية باسم حماية السنة اللذين كانوا أول ضحاياه .. كما مارس جيش المهدى ومن عمل باسمه مع باقى الميليشيات الشيعية جرائم يندى لها الجبين بدعوى حماية الشيعة الذين كانوا ايضا أول الضحايا ضمن قواعد جديدة للعبة الموت والحياة جعلت العراقيين يتسلقون كل يوم مقبرة جديدة اما للدفن أو لتقديم العزاء .

أكمل الشاب الطيب ما بدأه أبو حيدر من نصائح للبقاء على قيد الحياة زادها بنقل بعض من خبراته لتوفير الكهرباء والماء وشرح نوعيات الأدوات والأجهزة التى ينفرد العراقيون باستخدامها استثناء من باقى دول العالم حيث بات العراق يعيش ضمن حدود اوائل القرن الماضى ..

وكان الدرس الأول هو كيف يمكن أن توفر التيار الكهربائى لمدة لا تقل عن ٢٢ ساعة يوميا لأن الكهرباء التى توفرها دوائر الكهرباء فى العراق الجديد لا تزيد بأى حال من الأحوال عن ساعتين يوميا ويتطلب تشغيل المولدات المنزلية اما

السولار أو البنزين وهما مادتان شحيحتان فى واحد من أغنى بلاد العالم بالنفط وأفهمنى الشاب الطيب كيف يمكن تبادل الكهرباء مع من توافر من الجيران بطريقة التبادل البدائية من خلال جهاز تحويل أوتوماتيكى اخترعه العراقيون ويسمى / الجندوفر/ له أربعة مخارج ومداخل للتيار تتيح كهرباء المولد المنزلى والمولد الخارجى ومولد الجيران والكهرباء الحكومية / الوطنية/ ويعمل عبر شبكة من الأسلاك الكهربائية التى تتشابك مع أسلاك الجيران لتشكل مشهدا لا يوجد فى أى بلد بالعالم ولا يمكن إلا لخبير أن يفك طلاسم حركتها أو بداياتها ونهاياتها لأنه أمر شديد التعقيد .. ولأول مرة أعرف ما تعنيه الكهرباء لأننا فى مصر وباقى الدول نتعامل معها على أنها مجرد ذر يضىء المصابيح ويشغل الأجهزة بكل أنواعها دون حساب لما تستهلكه من أمبيرات محددة .. أما فى العراق فان استهلاك الكهرباء يكون بحساب دقيق حيث يجب أن تكتسب الخبرة الكافية لمعرفة عدد الأمبيرات التى تشغل ما تستخدمه من اجهزة وهو أمر يلزمه الممارسة لاكتساب الخبرة لتفادى انقطاع التيار الكهربائى الصناعى الذى يتم توفيرة عبر الشبكة العنكبوتية من الأسلاك الممتدة من المولدات الخاصة ومولدات الجيران.

أما توفير المياه للاستخدام فكان يتطلب قطع التيار الكهربائى عن كافة أجهزة المنزل وإعادة توصيلها إلى موتور المياه المتصل بخزانات تقع فى سرداب مهجور أسفل البناية يشبه القبو حتى يمكن أن تصعد المياه المختزنة عبر ايام إلى الخزانات التى تعلو سطح البناية وتمر عبر صنابير صدئة لتستخدم فى أعمال النظافة أو تلطيف الأجواء شديدة الحرارة إلا أنها لا تصلح بالطبع للشرب وأحيانا لغسل اليدين أو الاستحمام وهو ما يتطلب توفير مياه للشرب أكثر نقاء أما بغلى تلك المياه وتنقيتها أو شراء مياه نقية جاهزة للشرب معبأة فى زجاجات بلاستيكية كبيرة باعتبارها مياه معدنية إلا أن الخبير يدرك من رائحتها وطعمها أنها من صنع غرف بئر السلم أو أقبية الخزانات أسفل العمارات التى كانت تستخدم فى بعض المناطق كسراديب لإخفاء المختطفين حتى تسلم الفدية لإطلاقهم أو قتلهم إذا تعرفوا على الخاطفين .

دخلت فى فترة شرود باديا على قسمات وجهى ابتسامة ساخرة إزالتها ضحكة عالية الصوت يمتزج فيها الألم مع الدهشة مع الفرح الشديد لاكتشاف عالم جديد من الأشياء .. غريب بقدر غرابة عمليات القتل العبثى .. ينبىء بأسلوب جديد لحياة جديدة مثيرة تشبه كثيرا حياة الطفل الذى يبدأ فى اكتشاف العالم

عندما يبدأ فى التعامل مع الدنيا لأول مرة .

سألنى الشاب الطيب: لماذا كل هذا الضحك الهيستيرى الممزوج بالمرارة وكان الجواب حاضرا .. إذا كان توفير الكهرباء والماء فقط يتطلب كل هذه الخبرات وهذه الحسابات فكيف يمكن مواصلة الحياة بشكل طبيعى تتوافر فيه مقومات عادية لا نحسب لوجودها حسابا ونحن لا نتوقف عن الشكوى من قسوة الحياة فى مصرنا الحبيبة .. وكيف يمكن توفير الانترنت وأجهزة الاتصال وغير ذلك من بديهيات العمل الصحفى وكيف يمكن أن أدخل ميدان المنافسة المهنية مع وكالات الأنباء الأخرى ناهيك عن الفضائيات وجبروتها الإعلامى ..

عشرات الأسئلة بدأت تقفز على لسانى توحى بأن اليأس بدأ يتسرب من جديد فالمشكلة فى العراق - ليست فقط كما يتصور من يتابع أخباره عن بعد - تكمن فى المخاطر الواضحة للجميع وأعمال العنف الأعمى وإنما المشكلة التى يجب التعامل معها صباح مساء هى كيفية توفير المقومات البديهية للحياة مثل الكهرباء والماء وهو ما يعنى أيضا الأجهزة الموجودة حتى فى بيوت البسطاء من أهلنا والتى لم تعد رفاهية بل جزء من تفاصيل الحياة اليومية بما فيها الانترنت .

والمشكلة الأكثر ألما هى درجة حرارة بغداد التى لا تطاق فى شهرى يوليو وأغسطس مع هذا التقنين المعضل لاستهلاك ما يتوافر من الكهرباء عبر معادلة تشبه اللوغاريتمات .. إلا أن العراقى الطيب بادرنى بالحل الذى يكمن فى جهاز تصنعه إيران وتقذف بمئات الآلاف من القطع إلى العراق سنويا ضمن ما تقذف من بضائع رائجة بفعل الأزمة التى لن تنتهى قريبا وهو « مبردة المياه » التى تعمل على قدر ضئيل من التيار الكهربائى حيث يندفع الماء المتسرب من خرطوم رفيع إلى حوائط من الليف أو القش على جوانب تحيط اسطوانة معدنية تدور من الجهات الأربعة فينطلق الهواء مشبعا ببرودة المياه التى تتساقط على الليف أو القش مما يشيع أجواء من الرطوبة المحببة تقلل درجة الحرارة كما تقلل متانة العظام داخل جسم الإنسان بفعل الروماتيزم الذى تسببه على المدى الطويل .

حاول الشاب العراقى الطيب أن يهدىء من روعى حتى لا أنحدر سريعا إلى مزالق التشاؤم وألا تنتحب نفسى فاتداعى وتضيع روحى وسط دوامات الحزن الثقيل المغلفة بأهوال الغربة فتلفنى الكآبة ولا أستطيع أن أواصل .. حاول أن يقنعنى بأن التعامل مع هذه المشكلات سوف يصبح عادة بالنسبة لى كما اعتاد عليها العراقيون اللذين أجبرتهم الظروف على التنازل عن كثير من طقوس

حياتهم اليومية وأن يرتضوا بأن تكون عدد ساعات النهار أقل من أى مكان آخر فى العالم وأن تكون ساعات النوم غير متواصلة يقطعها أصوات يعرف من يسمعها ما تخلفه وهى نتيجة حتمية فى معظم الأحيان أقلها ضجيجا صوت طلقات الرصاص .. قال لى بصراحة: إذا كنت سوف تستمر بالعراق فلابد أن تتعامل مع كل قواعد وتفاصيل الحياة بالعراق وأن تعتاد على احتمال أى نوع من المنغصات والمشاكل التى أراها لأول وهلة كبيرة مستعصية على الاحتمال .. عندها تذكرت قول اينشتاين « يستطيع أى أحمق جعل الأشياء تبدو أكبر وأكثر تعقيدا .. لكنك تحتاج إلى عبقرى شجاع لجعلها عكس ذلك » .

المشكلة الأساسية التى واجهتنى هى ارتفاع ضغط الدم الذى أعانى منه والذى بدأت اشعر بأعراضه المزعجة وقبل أن ينتصف النهار ذهبت إلى مستشفى « السعدون» التى تبعد حوالى ٢٠٠ متر عن مقر المكتب وراجعت أحد الأطباء الشباب وهو مسيحى يدعى إدمون تولدت بينى وبينه صداقة قوية فيما بعد وشكوت له من ارتفاع ضغط الدم وأنه يزداد عند حلول الليل بسبب التوتر .. فاجأنى الدكتور إدموند بنصيحة غريبة ولكنها معبرة حيث قال لى: « أستاذ حاول ألا يرتفع ضغطك أو يصيبك أى ألم أو مرض بعد الثالثة عصرا !!» وعندما رأى ملامح الدهشة ترتسم على قسمات وجهى بادرنى قائلا: « بعد هذا الوقت لن يمكنك الحضور إلى هنا ولن تجد من ينقذك أو يخفف ألمك حتى صباح اليوم التالى» ، وعرفت ماذا يقصد الدكتور إدموند فكما أصدر حكام المذبحة الجدد فرمانا بأن ينتهى النهار كحد أقصى عند الساعة الثانية ظهرا لم يعملوا حسابا لمريض أو حتى امرأة تريد أن تضع مولودها بعد ذلك الوقت وهو ما خلق أساليب أخرى وأناس آخرين يقومون بمهنة الطبيب والقابلة « الداية» من أهل المنطقة ذاتها أو الشارع نفسه فى أغلب الأحيان حتى لا يضطر المريض أن يذهب إلى مكان بعيد توجد به مستشفى أو طبيب حيث أن عيادات الأطباء الخاصة فى ذلك الوقت كانت تعمل على خلاف باقى مناطق الدنيا من الساعة الثامنة صباحا حتى الثانية عشر ظهرا .

٤ - النوم على الطريقة العراقية

كان الليل قد بدأ يرخى سدوله على بغداد بينما كنا نجلس فوق سطح البناية الذى يتسرب إليه الريح الساخن مخترقا أغصان الأشجار العملاقة ويهز

بضع نخلات تصطف أمام البناية بعنف وتهور جامح .. كان الظلام ينسكب فوق شوارع بغداد المظلمة التى لا تظهر منها إلا حزم ضوء شاحب على مرمى البصر تليها أضواء باهرة قادمة من الضفة الأخرى لنهر دجلة حيث المنطقة الخضراء التى لا يعرف سكانها المقيمون فيها منذ سقوط نظام صدام حسين كل تلك التفاصيل التى عرفتها بعد يومين فقط فى عاصمة الرشيد التى يغلفها سكون عميق رغم صخب الريح والشجر وصوت المروحيات الأمريكية التى تهدر فوق رؤوسنا قادمة أو عائدة إلى مقر الحكام الجدد والقيادة الأمريكية على الضفة الأخرى من نهر دجلة .

أدركت أننا سننام ليلتنا على سطح البناية وهى وسيلة يعرفها العراقيون فقط يتخلصون بها من الحر الذى تختزنه جدران بيوتهم طوال أيام الصيف الحارق .. والحقيقة أننى اكتشفت طقسا آخر أكثر روعة وإثارة استمر ضمن طقوس ليالى الصيف التى قضيتها فى بغداد لفترة طويلة حتى بعد أن جهزت مقر عملى وإقامتى بكل ما يلزم من إمكانيات متواضعة إلى أن جاءت ليلة رعب أضافتها إحدى المروحيات الأمريكية إلى حياة الرعب التى استسغت العيش فيها مع مرور الوقت ..

ففى تلك الليلة المظلمة من شهر أغسطس بعد مرور حوالى ٤٠ يوما على وصولى إلى بغداد وبينما كنا مستغرقين فى نوم عميق نلف أجسادنا بملاءات الأسرة لتفادى لدغات الباعوض الشرس - أنا وأحمد وأحد أشقائه استقر على الإقامة معه - على سطح البناية اقتربت مروحية أمريكية وسلطت أضواءها علينا ربما لاستيضاح طبيعة تلك الكومة من القطع المتلاصقة التى لا تبدو لها ملامح توحى بأنها بشر وانما تثير الشك فى أنها « كدس من الأسلحة» مغطاة لإخفائها وزمجرت الرياح الناتجة عن دوران المروحية فوقنا بصوت يشبه العويل وهو ما جعلنا نصحو من نومنا واقفين رافعين أيادينا مستسلمين فزعا وطلبا للأمان ونطقنا ثلاثتنا الشهادة .. ففى مثل هذه الأحوال يكون مجرد الشك مبررا لصب نيران القذائف على المبنى وربما تدميره بالكامل[1] .. إلا أن من بالمروحية اكتفوا بحالة الهلع التى أصابتنا لسبب لا نعلمه حتى الآن وهو ما جعلنا نبقى على قيد الحياة إلا أننى قررت بعد ذلك عدم الاستمتاع ببرودة هواء السطح مثل بسطاء العراقيين الذين فضلوا الاستكانة للنوم شبه المستحيل فى درجات حرارة لا تحتمل على أن

(١) من ضمن الوثائق التي نشرها موقع ويكيليكس : أن الطائرات الأمريكية دمرت الكثير من الأبنية والعمارات بمجرد الاشتباه في وجود أسلحة أو قناص فيها .

يفقدوا حياتهم عبثا نتيجة قصف حركه الشك أو قذيفة طائشة أخطأت هدفها وهى أمور باتت معتادة فى تلك الأعوام المحترقة من تاريخ العراق التى خلفت مئات الآلاف من القتلى والجرحى .

٥ - رفاق سلاح القلم الطيبون

فى مدينة كبغداد تبدو الحياة طريقا مفروشا بالمخاطر والألم والهم الإنسانى لا معين سوى الإيمان المطلق بالقضاء والقدر أو النسيان والسير فى الطريق حتى تأتى لحظة النهاية .. وفى كلتا الحالتين تبدو لمسة أو همسة أو كلمة من رفيق أو صديق أو حتى شخصا لا تعرفه بمثابة طوق النجاة فى كثير من الأحيان .. بينما تبدو مهنة الصحافة فى مدينة كبغداد طريقا محاطا بأسلاك الضغط العالى العارية ويسير الصحفى بينها بحذر شديد حتى لا يلمس أحداها ويصبح كرة تتقاذفها المقادير وتفعل بها الصدمات الكهربائية فعلتها وهو أمر تحيطه المخاطر ويغلفه الوجع ويكون الرفيق أو الصديق بمثابة المنقذ وقت الخطر والدليل لإكمال السير بدون السقوط فى دائرة الخطر التى لا يمكن الفكاك منها وقت المذبحة .. فلا مجال للخطأ .. ولا رحمة لمن يسوقه القدر إلى مناطق نفوذ فرق الموت .. ولا فرصة للنجاة إذا استجاب الصحفى لفضوله المعتاد دون أن يوقفه صوت العقل أو ينقذه أحد الرفاق الطيبين ممن يتقاسمون معه خطر العمل فى وديان الموت بعد أن اختاروا مهنة المتاعب التى بات العمل فيها أقرب الطرق إلى الموت فى زمن المذبحة .

على شفا حفرة من الموت .. يعمل الصحفيون بالعراق .. فكل شارع حقل ألغام .. ومن تخطئه المفخخات .. تترصده رصاصات المسلحين بكافة أسمائهم وألوانهم وعناوينهم .. فالمسلحون فى العراق يعملون تحت رايات شتى وأهداف شتى أكثرها سهولة وأعلاها ضجيجا « الصحفيون » .. هدف وحيد يتفق عليه الاضداد المختلفون فى كل شيىء .

وعلى الرغم من أننى خصصت فصلا كاملا من الكتاب عن الصحافة والصحفيين بالعراق الا أن ثلاثة من الرفاق استحقوا أن يكونوا ضيوفا فى وقائع أيام المذبحة التى لا تخلو من مفارقات الوجع والاستذكار معاً، .. ذلك الوجع الذي حملته معى، بهدوء، أبان رحلتى المثيرة بين عراق الاغتراب ومصر التى كنت أشتاق إلى أهلها وشوارعها وأزقتها دائما .. ذلك الاستذكار الذي يأتي

مرعبا ، كأنه الوحشة، ويظل الاشتياق أنيناً، وحنيناً لرانيا وإياد وجانا[1] وهم همى الأول، في الموت أو السجن أو الوجع الإنساني .

شعلان وعلى وعامر .. عندما كان رنين هاتفى يحمل أيا من أرقام هذه الأسماء كانت الطمأنينة تسرى إلى نفسى وتريح جسدى المثقل بفعل السهر شبه الدائم .. حالت وقائع أيام المذبحة القاسية دون اللقاء بهم إلا بعد مرور ما يقرب من عام على وصولى إلى بغداد إلا أن التواصل بيننا استمر عبر الهاتف الذى أضحى بديلا عن أشياء ضرورية فى حياة العراقيين فهو وسيلة التسلية والإضاءة والتواصل البديل عن الاتصال المباشر بالزيارات والمجاملات والمشاركة فى المناسبات رغم أن مقرهم لا يبعد عن مقر وكالة أنباء الشرق الأوسط مسيرة ١٥ دقيقة بالسيارة إلا أننا نسكن جانبى بغداد اللدودين فانا فى الرصافة وهو الجانب الشرقى من بغداد التى يقسمها نهر دجلة إلى الرصافة والكرخ وهذا الجانب يقع تحت سيطرة ميليشيات قوات بدر وجيش المهدى بينما يقيمون هم فى حى المنصور فى الجانب الغربى / الكرخ/ حيث سيطرة تنظيم القاعدة والجيش الإسلامى وكان الانتقال بين الجانبين اللذين يشكلان عاصمة الرشيد أمرا تحيط به كافة المخاطر والإشكاليات خاصة إذا صار فى الأمور ما يسيء واستمر التواجد بالشارع إلى ما بعد الواحدة ظهرا .

أذكر أننى قضيت معظم عامى الأول دون أن أنعم بالنوم الطبيعى مثل باقى خلق الله بسبب القلق المغلف برائحة البارود وأجواء القتل والموت المجانى حتى أتيحت لى فرصة مرافقة الأستاذ شعلان فى سيارته إلى المنصور حيث مقر وكالة الأنباء الصينية / شينخوا/ وكان أحد أيام شهر رمضان الذى شعرت به لأول مرة عندما تناولت طعام الافطار مع الرفاق الطيبين / شعلان وعلى وعامر/ .. وبعد أن انتهينا من الطعام والحوارات الشيقة عن هموم البلاد والعباد والمهنة المقدسة ذهبت فى نوم عميق وأنا جالس فى مكانى قبل أن أكمل إجابة سؤال طرحوه على مسامعى.. ويحكى لى الرفاق كيف كانت حالة الهدوء النفسى الذى اعترانى حتى أننى لم اشعر بما حولى حتى ظهر اليوم التالى .. فهذه هى الترجمة العملية للشعور بالأمان فى بلد مثل بغداد التى يزحف القتلة فى طرقاتها يزرعون الخوف والموت فى ظرف استثنائى .. وهذه هى الترجمة الحقيقية لكلمة العراقى الطيب

(١) زوجتي وابني وابنتي .

الذى تشعر وأنت فى حضرته أنك فى عاصمة الرشيد التى كانت وينتظر العراقيون عودتها إلى قواعدها الآمنة ثانيا .

٦ - مواكب الموت المجانى

كلما كانت الأيام تسرع الخطا نحو نهاية العام ٢٠٠٦ كانت فرص الموت تتضاعف بينما تتراجع فرص الحياة إلى درجة العدم .. بات الموت مزروعا على الطرقات .. يزحف باتجاه العابرين لا ينتظر أن يأتون إليه .. بينما كانت قذائف الهاون العمياء وصواريخ الكاتيوشا الموتورة تنطلق من كل اتجاه حاملة أصوات الموت تزعق فوق رؤوسنا صوب المنطقة الخضراء مساء وصباحا ليتذوق سكان الحصن المنيع طعم الرعب الذى اعتاده المقيمون خارج أسوارها وبات جزءاً من طقوس حياتهم لا يستطيعون الفكاك منه إلا بالموت ذبحا أو بطلقة أسفل الرأس.

كانت زخات الرصاص التى لا تتوقف ليلا أو نهارا تنذر بسقوط قتيل أو مجموعة قتلى ساقهم حظهم العاثر للسقوط فى براثن إحدى السيطرات / نقاط التفتيش / الوهمية التى تمارس عمليات الإعدام المنظم وما بات يعرف بالقتل على الهوية .

كنت دائما أتساءل عندما يأتينى خبر اختطاف أو إعدام شخص أعرفه أو لا أعرفه أو مجموعة من الأشخاص « لماذا يخاف الناس فى لحظات ثم يرتد خوفهم فى لحظات أخرى ؟؟ ولماذا يتركون الخوف ليصنع بهم ما يصنع من قتل وخراب ويلون أيامهم بلون الدماء التى لا تترك لهم عزيزاً .. أخاً .. أباً .. ابناً ؟؟ ويصبح الموت كأسا يدور بين الجميع يرتشف كلٌ منهم نصيبه المقدر منه .

حكاوى يغلفها الرعب رسمتها أحداث ومشاهد يرويها أصحابها أو من عاصروها كما كانت أمى الحبيبة رحمها الله تقص علينا حواديت «أمنا الغولة» بما تحتويه من وقائع لا تصدق ولا يمكن تخيلها إلا فى حكايات الرعب التى يحاول الآباء من خلالها تكريس قيم بعينها عبر أجواء الرعب التى تحيط حكاياتهم ومصير من لا ينفذ أو يعتقد فى تلك القيم .. إلا أن حكاوى وقائع أيام المذبحة كانت للأسف حقيقية دارت أحداثها وفصولها فى شوارع ومناطق مازالت تحمل بعض علاماتها حتى بعد انكسار الموجة الطائفية وعودة النازحين أو بعضهم إلى مناطق شهدوا فيها أعمال الاختطاف والقتل والموت العبثى الذى كان بمثابة كأس دائر على رؤوس الجميع بلا أى تمييز أو توقف كأنه موجة جنون أصابت أحياء بغداد وما عداها من مدن العراق الحزين .

مكان واحد كانت تجتمع عنده كل الخطوط وتتقاطع كل المشاعر الحقد والقهر والرعب والحزن والخوف والأمل واليأس والرجاء .. مكان واحد تلتقى عنده خطوط القاتل وبذالته والقتيل وبراءته وأهل الاثنين المصدومين بما يفعل ابنهم القاتل ليسقط ابنا لآخرين ضحية عن قصد أو غير قصد .. والخاسر واحد وهو العراق الذى تقطعت أوصاله وانفرط عقد أبنائه سواء قاتلين أو مقتولين .. حكايات يرويها شهود المذبحة ربما يغيب عنها المنطق وتنطق أحداثها باللامعقول .. مئات الجثث تحمل نفس العلامات .. آثار تعذيب .. طلقات نارية فى الصدر والبطن .. بدون أوراق تثبت ماهية القتيل .. لفظ تم الاتفاق عليه « جثة مجهولة الهوية» .. ويصبح الأمل ليس العثور على المفقود حيا وإنما جثة فقدت جزءا كبيرا من ملامحها بفعل التعذيب والتحلل .. كيف يتخيل بشر أن يهنىء إنسان شخصا يعرفه لأنه تمكن من العثور على جثة فقيد له وتمكن من دفنه .. أصبح إكرام الميت « دفنه» أمنية فى زمن المذبحة وأصبح الطب العدلى « مشرحة بغداد» أبرز مناطق القبح وأكثرها إثارة للقرف والرعب فى آن واحد .. فيها يمكنك بوضوح رؤية كيف تتحكم ميليشيات القتل وفرق الموت فى الضحايا حتى بعد سلب أرواحهم .. إلى من يتم تسليمهم .. أين سيدفنون .. كيف ومتى يخرجون إلى مستقرهم الأخير .

٧ - الطب العدلى«المشرحة»

اسم ظلت ترتعد له أبدان العراقيين طوال زمن المذبحة ، كان وجهة المكلومين من أهالى الضحايا المغدورين الذين يتطلب العثور على جثثهم الكثير من الجهد والمعاناة ورؤية المشاهد المرعبة التى رسمتها أساليب التعذيب البشعة .. فهذا قدر كبير للطعام به آثار جثث تم طبخها .. وهذه جثة تنتظر قدوم رأسها إذا أفلح من قدر له أن يعثر عليها .. وهذه أقدام لجسد نهشته كلاب الطرق فى أحد مقالب القمامة .. وهذه أياد لا يعرف أحد أين تم إلقاء جثتها .. رائحة الموت تفوح .. رائحة العفن تزكم الأنوف .. فلا مكان لمزيد من الجثث حتى يتسلمها ذووها .. لا يتوقف الأمر على فئة عمرية معينة أو جنس بشرى دون آخر أو طائفة دون أخرى فالموت لا يفرق والجميع تحت الطلب إذا جاء القدر .. ولا تبقى غير كلمة يتفوه بها فى حسرة من يبحث عن مفقود أو عزيز غائب عندما تداهمه تلك المشاهد « الله ما يقبل» .. الجميع يتساءل من القاتل ؟؟ ولماذا القتل ؟؟ وإلى أين يمتد ؟؟ .

يقع هذا المكان داخل مدينة الطب التى أرادها مؤسسوها قبلة طبية للعراقيين والعرب عند تأسيسها نهاية الستينيات من القرن الماضى ولحقها ما لحق بالعراق من تدهور وساءت امكانياتها كما ساءت أمور العراق بفعل الحروب والحصار حتى انتهى عهد صدام حسين .. إلا أنها أصبحت رمزا من رموز زمن المذبحة حيث كانت تتوافد عليها يوميا من ١٠٠ إلى ١٥٠ جثة مجهولة الهوية تخلص منها قاتلوها فى الشوارع أو مقالب القمامة بعد نزع كل أوراق ثبوتية لتصبح جثة مجهولة الهوية .. كانت تسيطر على تلك المنطقة المحرمة إحدى فرق الموت المنظمة المحمية بغطاء رسمى حيث كان الحصول على جثة أحد الضحايا يتطلب تنسيقا على أعلى المستويات ليتمكن أهله من الدخول إلى ذلك المكان الذى يواجه « دجلة الخير » فى منطقة باب المعظم وسط العاصمة بغداد .. ويروى أهالى الضحايا خاصة من الطائفة السنية كيف كانوا يدفعون مئات الدولارات لأشخاص حافظوا على عراقيتهم بعيداً عن الانتماء الطائفى حتى يتمكنوا من الدخول إلى الطب العدلى للبحث عن ذويهم والخروج بأمان .. وإلا فأن الدخول إلى ذلك المكان سيكون بغير خروج ويتحول الداخل إليه إلى مفقود جديد .. أما إذا تمكن من الخروج مع الضحية التى يبحث عنها فإن إحدى فرق الموت سوف تتبع موكب الجنازة لتقتص من الضحية مرة أخرى وتقتل من تستطيع من أهله الذين رفضوا قانون / المشرحة .

٨ - ٣ شباب وامرأة حامل

فى منطقة الدورة التى تضم خليطا من السنة والشيعة والمسيحيين عاشوا جنبا إلى جنب لعدة عقود رسمت فرق الموت من ميليشيات، ومجموعات مسلحة مرتبطة بتنظيم القاعدة شكلا جديدا للحياة فى زمن المذبحة .. صارت منطقة الدورة والمنطقة المواجهة لها « أبو دشير » جنوبى العاصمة بغداد منطقة تماس بين من يدعى الدفاع عن الشيعة ومن يزعم الدفاع عن السنة وصار لكلا الجانبين ساحات للعمل .. اختطاف وقتل .. تفجيرات وعمليات قصف بالهاون والكاتيوشا .. تهجير قسرى وابتزاز ومصادرة البيوت بما فيها .. والهدف واحد هو العراقيين .. فى شارع واحد كان يقيم صديقان يعملان فى أحدى المؤسسات الصحفية الكبرى .. شريكان فى الدراسة واللعب والعمل والتهديدات .. رحلا فى وقت واحد عن الشارع الذى شهد طفولتهما فلا فرق هنا بين سنى وشيعى .. عربى أو كردى .. الهدف واحد هو الشعب العراقى .

يروى لى صديقى الشيعى كيف أجبرته الظروف على أن يترك البيت الذى عاش فيه مع أهله لمدة تتجاوز الثلاثين عاما بعد اختطاف شقيقه الأصغر وقتله ليتم العثور عليه جثة مجهولة الهوية فى الطب العدلى .

كان هذا فى ١٦ / ١١ /٢٠٠٦عندما كان مصطفى حمد الركابى الطالب فى العلوم السياسية المرحلة الثانية ذاهبا إلى الجامعة كعادته كل يوم عندما اعترضته نقطة تفتيش وهمية تعود إلى مجموعة مسلحة تابعة لتنظيم القاعدة وقامت المجموعة الإرهابية كما جرت العادة بانزال بعض الركاب بعد أن اطلعت على هويتهم وتأكدت أنهم من الشيعة وضمنهم مصطفى واثنين من الشباب وامراة حامل فى شهرها الخامس واقتادوهم إلى احد الدور العائدة لعائلة شيعية مهجرة فى منطقة الإسكان ليبدا طريق النهاية ورحلة التعذيب التى يتوسل صاحبها من جلاديه أن ينهوها بطلقة أو عدة طلقات فى الرأس والصدر .

يقول صديقى هشام الركابى : إن تلك المجموعة إرتكبت أبشع جرائم التعذيب لمدة يومين حتى استمرت آثارها واضحة على أجساد الضحايا بمن فيهم المراة الحامل التى جرى اغتصابها عدة مرات قبل أن تصاب بنزيف حاد أدى إلى موتها قبل إطلاق الرصاص عليها من قبل الإرهابيين وبعدها قامت بقتل الأشخاص الآخرين وألقت بجثثهم على قارعة الطريق فى نفس المنطقة بعد إحراق أوراقهم التى تثبت شخصياتهم.

وبعد البحث المضنى عثرت عائلة مصطفى على جثته فى الطب العدلى بباب المعظم وسط بغداد ويروى هشام الذى كان ضمن الفريق العائلى الذى عثر على الجثة أن شقيقه تعرض للتعذيب الفظيع قبل إطلاق رصاصتى الرحمة على رأسه ورغم مرور يومين على موته وتفسخ الجثة إلا أن آثار التعذيب ظلت شاخصة .

ويشرح هشام كيف كان الطب العدلى آنذاك يغص بالجثث التى تفترش أرضه لعدم وجود أماكن بالثلاجات المخصصة لحفظ الجثث التى كانت معظمها مجهولة الهوية وتم قتلها على أيدى المجاميع الإرهابية والميليشيات المسلحة حيث كان يقصد هذا المكان كل من يفقد عزيزا له من ابن وأخ وأب فى بغداد وكانت تواجه العائلات صعوبة فى الوصول إلى ذلك المكان بسبب أحداث العنف الطائفى وتقسيم بغداد إلى ما يشبه الكانتونات التى حاولت فرق الموت إقامتها على أسس طائفية ومذهبية .

ويقول هشام أن أحد أهم المصاعب الأخرى التى كانت تواجه أهل ذوى الجثث هو استهدافهم من قبل القناصة الموزعين على البنايات القديمة وغير المأهولة فى المنطقة المحيطة بالطب العدلى بهدف خلق الرعب بين الأهالى والعائلات المنكوبة .

٩ - الحمد لله .. دفناه

بينما كنت أتهيأ ليوم أشد قسوة من أيام شتاء العام ٢٠٠٦ وبعد أن ملأت مدفأتى النفطية بالكيروسين حتى تشيع فى أجواء المكتب قارسة البرودة بعضا من الدفىء وكثيرا من التلوث بدخانها الأسود الناتج عن احتراق شعلتها فاجأنى صديق قديم من أبناء محافظة الأنبار السنية التى تقع غربى العراق بزيارة نادرة نظرا لخطورة الوصول إلى بغداد لمن هم مثله .. استقبلته مبتسما وسألته عن عدد من أصدقائنا المشتركين وعائلاتهم وخاصة عن فراس ابن صديق لنا يدعى مجيد الذى كان فتى رائعا لا يعيبه إلى تسرعه ورغبته العارمة فى الاستمتاع بكل مباهج الحياة مرة واحدة رغم صغر سنه عندما غادرت العراق عام ٢٠٠٣ والذى لم يكن يتجاوز ١٦ عاما وكأنه يعلم أنه لن يستمر طويلا على قيد الحياة .. قال لى جميل: الحمد لله اطمأن مجيد عليه .. توقعت أن يكون قد تزوج أو نال فرصة عمل جيدة تتيح له حياة مستقرة هانئة .. وقلت له: مبروك زواج أم عمل .. قال لا الحمد لله دفناه أخيرا منذ يومين !!!! .

ارتسمت على وجهى ملامح قال ضياء أنه يراها لأول مرة ولا يستطيع تفسيرها .. ربما من غرابة الكلمات أو هول الموقف وصدمة موت فراس .. وما العلاقة بين كلمة مبروك والدفن وما معنى أخيرا .. هل كانت رحلة دفنة طويلة إلى هذا الحد ؟!!! .. تساؤلات حسمها جميل سريعا عندما قال لى وجدناه أخيرا فى الطب العدلى وتمكنا من دفنه فى بلده وأقمنا « فاتحة » أى مجلس عزاء له وظل يكرر: الحمد لله الحمد لله .

كان فراس مجيد من سكان الرمادى عاصمة محافظة الأنبار السنية أكبر محافظات العراق و أحد المعاقل الرئيسية لتنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين لا يزيد عمره على ١٩ عاما حضر إلى بغداد لبيع سيارته رغم تحذيرات أبيه بخطورة الأوضاع فى تلك الفترة من زمن المذبحة .. إلا أنه كان كعادته عنيدا لا يستمع لنصائح لكنه هذه المرة دفع الثمن غاليا وبدلا من أن يحصل على مكسب جيد من بيع السيارة فى بغداد اصطادته إحدى فرق الموت وقامت بواجب الضيافة على طريقتها .. وبعد وجبة تعذيب جرى خلالها ممارسة كل أنواع الانتهاك لآدمية البشر كانت طلقة أسفل الرأس كفيلة بإنهاء المعاناة لشاب لم يرى من حياته شيئا سوى القهر والرعب والخوف حاول جاهدا أن ينال قسطا من مرح رغم غضب المحيطين وانتهت رحلة عذابه ليستقر جثمانه مجهولا الهوية فى إحدى مناطق الأعظمية شمالى بغداد التى تضم مسجد الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان وكانت منطقة تماس لعمل تنظيم القاعدة وجيش المهدى والقوات الأمنية العراقية بسبب

وقرعها على الضفة المواجهة لمنطقة الكاظمية التى تضم مرقد الإمام موسى الكاظم وهو الإمام السابع لدى الشيعة الجعفرية .. تفسخت الجثة حتى سمحت الظروف برفعها من الشارع بعد مرور ثلاثة أيام .

بعد رحلة بحث مضنية استمرت أربعة أيام شملت الأهل والأقارب والمستشفيات ومراكز الشرطة التى كان مسموحا لأهل السنة بالتردد عليها تجنبا لطريق اللاعودة .. كانت المرحلة الأخيرة الأشد بؤسا فى البحث عن مفقودين هى الذهاب إلى مشرحة بغداد/ الطب العدلى/ ولأن أهل فراس لا يستطيعون الوصول إلى هناك حيث تنتظرهم نوعية اخرى من فرق الموت التى تمارس التطهير العرقى تحت غطاء رسمى أو شبه رسمى استنجدوا بأقارب لهم فى ناحية الدجيل الشهيرة التى أعدم صدام حسين بتهمة تصفية ١٤٩ من أهلها حاولوا اغتياله فى ثمانينيات القرن الماضى، وهى ذات غالبية شيعية إلا أن التزاوج وعلاقات النسب بين السنة والشيعة كانت عادية وسائدة قبل زمن المذبحة .. وكان هؤلاء الأقارب لهم صلات ببعض النافذين من حكام العهد الجديد الذين يستطيعون وحدهم تأمين طريق للوصول إلى الطب العدلى حيث الجثث مجهولة الهوية .. وتم الحصول على التأمين اللازم للبحث فى منطقة نفوذ فرق الموت بالطب العدلى .. وبعد رحلة بحث مضنية وسط ركام الجثث البشرية مجهولة الهوية تمكن عم فراس من التعرف على الجثة التى كانت متفسخة تماما حيث كانت توجد علامة فى ظهر الضحية عبارة عن وشم أو إصابة قديمة قادت عمه إلى التعرف عليه بعد أن فقدت الجثة كل ما يدل على صاحبها .

وعن طريق ممرضة موجودة فى الطب العدلى رق قلبها لحال الأسرة الملكومة تمكنوا من إتمام الإجراءات وسط جو مشحون نظرا لعدم تواجد الشخص الذى منحهم الأذن والأمان حيث ينتمى إلى فرق الموت .. وجرت اتصالات واسعة من جانب أقارب الضحية حتى لا يلقوا المصير المحتوم بعد أن أصبحوا داخل فك فرقة الموت المسئولة عن المكان .. وتمكنوا من الخروج بصعوبة .

وفى الطرق إلى خارج الطب العدلى لاحظ عم الضحية سيارتين تتابعان الموكب الجنائزى للاقتصاص من الضحية مرة أخرى بقتل أهله الذين أرادوا فقط دفن ميتهم .. وجرت اتصالات أخرى لتأمين الطريق .. وكل تلك الاتصالات والتأمين كانت تعنى دفع المزيد من الأموال لحكام زمن المذبحة .. وبعد لحظات عصيبة تمكن المنكوبون بقتل ابنهم من دفنه والاطمئنان عليه فى مثواه الأخير بعد أن بات دفن الضحايا أمنية فى زمن المذبحة وصارت المقابر الجماعية ملاذا آمنا

لآلاف الجثث مجهولة الهوية التى كان المسئولون عن الطب العدلى يضطرون إلى دفنها بعد مرور ثلاثة اشهر على تواجدها لديهم دون أن يتسلمها أحد حتى يفسحوا مكانا للمزيد من الجثث التى كان يتم جلبها يوميا من الشوارع أو مقالب القمامة .

١٠ - شهيد الفتنة

لم تكن سيوف الجلادين فى زمن المذبحة تفرق بين سنى وشيعى فإذا كان مصطفى الركابى تم قتله بدعوى أنه شيعى بينما لقى فراس مصيره المحتوم لأنه سنى إلا أن مقتل احمد هادى ناجى أبو زيد بعد اختطافه لم يكن له سبب واضح فهو من أم سنية من بيت خطاب من حديثة التابعة لمحافظة الأنبار السنية وأب من بيت المياحى الربيعى الذين يقطنون الكوت مركز محافظة واسط الجنوبية ذات الغالبية الشيعية .. أما أحمد نفسه شيعى متزوج من فتاة تعود إلى عشائر الدليم السنية من البونمر وهو معروف بأحمد النعيمى وهو فى عرف العشائر لا يؤشر إلى أنه سنى أو شيعى .

كان أحمد هادى مصورا بوكالة الاسوشيتيد برس وهو أخ لثلاثة مصورين يعملون لنفس الوكالة «فارس ومحمد وعلى» يقيمون فى منطقة البياع / الشرطة الخامسة/ غرب بغداد وكانت تشهد ذروة العنف الطائفى ذهب فارس ووالدته للنجف كعادة الشيعة لزيارة مرقد الإمام على مع تنبيه على باقى الاخوة بعدم الخروج بسبب إعدام صدام حسين ومخاوف من تهديدات جرى نشرها على نطاق واسع بإعدام ألف شيعى إلا أن أحمد استجاب لنداء العمل وتناسى المخاوف وخرج من بيته أول أيام عيد الأضحى عام ٢٠٠٧ بسبب حصول محمد وفارس على إجازة العيد وحل مع شقيقه على يمارسون دوامهم العادى لتغطية الأحداث وذهب لتصوير تظاهره فى منطقة السيدية احتجاجا على إعدام صدام حسين .

حان موعد آذان العصر ولم يعد أحمد إلى أولاده وزوجته الحامل فى توأم أنجبتهم بعد رحيله بعشرة أيام فقط .. وكالعادة فى مثل هذه الأمور استمرت الاتصالات على جهازه المحمول دون مجيب وبدأت رحلة البحث عن المفقود كالعادة بالاتصال بالأقارب ومراكز الشرطة والمستشفيات بالإضافة إلى لصق صوره على الحوائط الأسمنتية ولا مجيب .. وفى يوم الخميس ٥ / ١ جاء اتصال هاتفى للعائلة يطلب منهم زيارة أحمد لأنه معتقل فى ساحة النسور وانتظرت العائلة انتهاء حظر التجوال حيث كان يتم فرض حظر التجوال خلال هذه الفترة منذ مساء الخميس

من كل أسبوع وحتى ظهر اليوم التالى بعد انتهاء صلاة الجمعة بسبب الأوضاع الأمنية واستهداف المساجد والحسينيات .. وقبل انتهاء حظر التجوال بساعة جاء اتصال من ضابط بالشرطة يخبر أهل أحمد بأن المفقود تم العثور عليه مقتولا برصاصة أسفل الرأس أكملت مهمة ثلاث رصاصات أخرى فى القدمين واليد بعد وجبة تعذيب انتهت بربط كافة أوراقه الرسمية بقضيبه فى منطقة الدورة وتم نقله إلى الطب العدلى .

ويروى لى شقيقه محمد / أبو سارة / أنه شاهد آثار التعذيب العنيف وعلامات السحل على الأرض التى خطت ظهره بعلامات طولية من الكدمات الحمراء تحولت إلى اللون الأزرق بفعل مرور الوقت حيث تبين أنه قتل فى اليوم الأول لاختطافه .

ذهب أحمد دون تحية وداع لأهله سوى صورة التقطها بهاتفه المحمول صباح يوم اختطافه ربما كان يشعر أنها الصورة الأخيرة التى يلتقطها كمصور وستبقى ذكرى له كانسان .. ذهب دون أن يلقى نظرة على توأميه / زيد ورند/ اللذين كانا يستعدان لاستقبال الحياة يتقافزان فى بطن الزوجة المكلومة استعجالا للخروج إلى حياة لم يدركا أنها ستكون حياة بلا أب يداعبهما ويكفكف دموعهما .. رحل بينما كان يستعد لاستقبال زرعة عمره بشراء الحفاظات والملابس والألعاب كفرحة أى شاب تزوج منذ تسعة أشهر فقط بثمرة زواجه من حبيبة انتظرها طويلا حتى نال حياة رومانسية معها .. بينما تنتظره /صهباء/ منذ أول أيام العيد الذى لم يقضيه معها ولن يقضيه أبدا .

الغريب أن مجلس العزاء للشاب الذى رحل دون أن يفرح سوى مرة بزواج لم يستمر إلا تسعة اشهر تحول إلى ساحة قتال بين عناصر من جيش المهدى وقوات أمريكية حتى توسل أهل الشهيد للأمريكيين الذين لم يكن لديهم علم بأنه يعمل لحساب الأسوشيتدبرس حيث توهموا خطأ أنه من عناصر جيش المهدى لان المنطقة ذات غالبية شيعية وتواجه حى المواصلات / الكرطان/ ويعتبر الأمريكيون جيش المهدى وميليشياته من الأعداء .

ويروى أبو سارة أن ضرورة الخروج من الموقف اضطرتهم لكشف سر الشاب وإخوانه الأربعة الذين أخفوه عن المنطقة أنهم يعملون فى مجال الإعلام ولحساب وكالة أمريكية لان هذا وحده كفيل بقتلهم جميعا من الشيعة أنفسهم وليس من السنة باعتبارهم جواسيس وعملاء كما كان يوصف كل إعلامى فى ذلك الوقت وهو ما تطلب أن تترك العائلة منطقة سكناها بعد أن انتشر الأمر وانكشفت طبيعة عمل أعضائها وهو يوجب قتلهم من جيش المهدى .

بدأت رحلة النزوح التى طالت ملايين العراقيين ولكن هذه المرة ليس بسبب الطائفة وإنما بسبب العمل «الجريمة ».. كما تحول من تبقى من شباب العائلة إلى مهن أخرى منها مهنة تصليح المولدات الكهربائية وتأجير التيار الكهربائى الذى لا يزور البيوت إلا قليلا بينما يزورها الحزن والموت المفاجئ كثيرا .

ويروى أبو سارة أن هذا الشاب الذى قتله جاهل أو مجرم ورغم الأحداث المروعة التى كانت تشهدها المنطقة أرسل السنة من سكان حى المواصلات المواجه لحى / الشرطة الخامسة / وفدا للاستئذان للمشاركة فى تشيعه مع الشيعة باعتباره قاسما مشتركا وصار وقتها نوع من الصلح بين الطائفتين حزنا على الشاب الطيب / الوردة / كما يطلقون عليه إلا أن هذا الصلح لم يصمد طويلا لأن هناك من لا يريد أن يصمد الهدوء والسلام حتى تستمر المذبحة وتأكل المزيد من الطيبين .

١١ - جيش المهدى

في يوليو عام ٢٠٠٣ أعلن الزعيم الشيعى الشاب مقتدى الصدر الذى ينتمى إلى عائلة الصدر العريقة من خلال خطبته في مسجد الكوفة عن تشكيل جيش المهدي ، وهو في الحقيقة ليس جيشا إنما ينطبق عليه مفهوم الميليشيا أكثر مما هو جيش وقد أفتى مقتدى الصدر بأنه لا يعتبر ميليشيا بل جيشاً عقائدياً .

وتعود فكرة إنشاء جيش المهدي إلى عقيدة إن المهدي المنتظر وهو الإمام الثانى عشر لدى الشيعة الجعفرية (محمد بن الحسن العسكري) ابن الخمس سنوات الذي اختفى في سرداب في مدينة سامراء بمحافظة صلاح الدين التى تبعد حوالى ١٢٠ كيلومترا شمالى بغداد سيعود بعد أن يعم الأرض الفساد والظلم وأنه يأتي ليغير الواقع ويملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جوراً وظلماً يسانده في ذلك أتباع ومحبو آل بيت رسول الله ﷺ وأن كل من من لم يؤمن بذلك أو يساند المهدي المنتظر في دعوته هذه فهو من أعداء الرسول وآل الرسول .

ونظرا لأن هذا الجيش الذى يقول مؤسسه: أنه جيش عقائدى يفتقد إلى البنية التنظيمية المؤسسية انطلاقا من إسم « جيش» فإن تنظيماته كانت عبارة عن ، مجاميع عشوائية ، نواتها الفرد ، وكل خمسين فرد يشكلون فصيلاً ، وكل ستة فصائل تشكل سرية عددها ٣٠٠ مقاتل ، وكل سبعة سرايا تكون فوجا، وأغلب أفراد التنظيم هم عاطلون عن العمل ومن محدودي التعليم وتتراوح أعمارهم بين العشرين إلى الخمسة وثلاثين سنة .. كما أن معظم عناصر جيش المهدي من

محدودي الثقافة وثبت أن كثيرا منهم يتعاطون المخدرات وهو ما ظهر جليا في كثير من خطب قائدهم مقتدى الصدر حيث كان يدعوهم إلى الالتزام وطالما ما ينعتهم في خطاباته بالـ (جهلة) و (العناصر غير المنضبطة)، كما يعرف في الأوساط العراقية أن أكثرهم ممن يمارس الرذيلة وليس لديه إي التزام ديني أو أخلاقي

وعلى الصعيد العسكرى كان كثير من قيادات جيش المهدى تتلقى التدريب في إيران وفي لبنان والعراق بإشراف مباشر من الحرس الثوري الإيراني الذى قام فيما بعد بتشكيل المجاميع التي تجيد استخدام السلاح على اعتبار أن أكثر الشباب العراقي متدرب على استخدام السلاح بحكم الحروب المتعاقبة وقيام صدام حسين بفرض التدريب المسلح على اغلب الشباب العراقي .

يعمل جيش المهدي بنظام السرايا التي لا تتجاوز غالباً السرية الواحدة الخمسين مقاتلاً من عامة الشيعة الذين ينضمون إليه عن طريق هيئات تشكلت في الحسينيات والجوامع التابعة للتيار الصدري، وهم يعملون كمتطوعين بلا مخصصات مالية ثابتة معتمدين فقط على نظام العطايا وما يوزع عليهم من الخُمُس « مقدار الزكاة لدى الشيعة» إضافة إلى تقديمهم في فرص العمل لدى الدولة وخاصة في أجهزة الأمن من الشرطة وقوات الأمن كجزء من الاتفاقات المعقودة بين التيار الصدري وبين حكومة الائتلاف الشيعي التى تولت حكم العراق منذ عام ٢٠٠٥ .

وتشكلت في بادئ الأمر سرايا محدودة منها سرية الامام محمد الصدر في مدينة الصدر، وسرية الشيخ مصطفى الصدر في بغداد الجديدة، وسرية الشيخ مؤمل الصدر في منطقة الشعب وحي أور، وسرية الشيخ علي الكعبي وسرية الشيخ حسين السويعدي وكلها في بغداد، وهي في معظمها أسماء لمن يعتبرهم التيار الصدري شهداءه إبان حكم نظام صدام حسين، ويكون عدد أفراد السرية غالباً متعلقاً بقوة الزعيم الشيعي الذي يقودها وحجم المساحة الجغرافية أو السكانية التي يتولاها، وقد تتعدد السرايا في المنطقة الواحدة كما هو الأمر في مدينة الصدر في بغداد،و سرعان ما تزايدت هذه السرايا خاصة بعد أحداث تفجيرات الإماميين العسكريين في سامراء ٢٢ فبراير ٢٠٠٦.

أما تدريب قيادات وبعض تلك العناصر كان يتم في إيران وجنوب لبنان بالتعاون مع حزب الله وفي داخل العراق ومن الشخصيات البارزة في حزب الله التي أشرفت على جيش المهدي سواء في التأسيس والتدريب ، القائد العسكرى الكبير بالحزب الذى اغتيل فى دمشق عماد مغنية وقد أشرف على تدريب قيادات في جيش المهدي سواء في

إيران أو بالنجف فقد كان مغنية يدخل باسم مستعار للعراق ويعمل بكل أريحية وقام بتهيئة أماكن لقادة جيش المهدي في إيران في حال ملاحقتهم من قبل القوات الأمريكية في العراق وهذا ما حصل فعلا بعد أن تكررت ملاحقة القوات الأمريكية للكثير من عناصر جيش المهدي لتورطهم في الكثير من أعمال العنف الطائفي .

ويستند جيش المهدي في معلوماته الاستخباراتية على ما يزوده به أعضاؤه الملتحقون لصفوف منتسبي وزارتي الدفاع والداخلية والوزارات الأخرى في الدولة ، وعلى ما تقوم به الجهات الاستخباراتية الإيرانية بتزويدهم بما يحتاجون إليه من معلومات استخباراتية ، كما قاموا بتشكيل مؤسسة استخباراتية (مصغرة) تحت عنوان (الإشراف العسكري) وهى تأخذ على عاتقها متابعة وإحصاء أبناء العراق وبالتحديد بغداد ممن هم من المذهب السني والعمل على تصفيته أو تهجيره من بغداد لكي يكون المكون الغالب في بغداد هو المكون الشيعي خاصة في الجانب الشرقي من العاصمة (الرصافة) .

ومن أبرز أعمال جيش المهدى كانت بعد احتلال العراق بأيام حين دخل المرجع الشيعى السيد مجيد الخوئي إلى النجف حيث كان مهاجراً إلى لندن لأنه كان معارضا لحكم صدام حسين ، ولما عاد للنجف بعد أيام من احتلال العراق لم يرق للتيار الصدري رجوعه (مقتدى الصدر) لأنه كان يطمح أن تكون المرجعية له بعد المرجع الأعلى بالعراق آية الله علي السيستاني ولذا قام أتباع الصدر بتصفية الخوئي وأصدرت القوات الأمريكية في أغسطس عام ٢٠٠٤ مذكرة تقضي باعتقال مقتدى الصدر واتهامه بقتل الخوئي ، وهو ما أحدث صداما بين جيش المهدي والقوات الأمريكية ودخل مقتدى وجيشه فى مواجهة مع القوات الأمريكية في النجف أشيع حينها أنها بسبب رغبة مقتدى السيطرة على مبالغ النذور التي ترمى من قبل الزائرين في المراقد الشيعية وهي تعد بالملايين وانتهى الأمر بلجوء مقتدى الصدر إلى إيران وإيقاف العمليات بين أتباع جيش المهدي والقوات الأمريكية التى طالت مرقد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه .

أما البروز الآخر لجيش المهدي فكان فى أعقاب تفجير قبتي الأماميين العسكريين فى ٢٢ فبراير ٢٠٠٦م، ولكن هذه المرة ليست كبروزه في ٢٠٠٤ في معركته مع القوات الأمريكية حينما اكتسب تأييداً جماهيرياً كبيراً، بل ظهر هذه المرة كأبرز ميليشيا طائفية تحارب أهل السنة وتعتدي عليهم في مناطق نفوذها وقد مكنهم من ذلك سيطرتهم بالتناغم مع قوات بدر وهى الجناح العسكرى للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية الذى يتزعمه آل الحكيم على وزارتي

الدفاع والداخلية مما ساهم بشكل كبير في قيام جيش المهدي وفيلق بدر بتصفية كبيرة لأهل السنة بالعراق وقتل أئمة مساجد السنة بعد حرقها وتهجير الكثير من العائلات السنية من بغداد وغيرها من المحافظات إلى آماكن أخرى سواء داخل العراق أو خارجه.

ويروى زميل صحفى ينتمى للمذهب الشيعى أنه بعد دقائق معدودة من الإعلان عن تفجير القبة الذهبية لمرقد الإماميين العسكريين فرضت ميليشيا جيش المهدى سيطرتها على شوارع العاصمة بغداد ونصبت نقاط تفتيش خاصة بها وهى فى كامل عدتها وعتادها وفرضت سلطتها فى غياب تام لسلطة الدولة لتبدأ دوامة القتل على الهوية فى أبشع صورها وبشكل أسرع مما كان يتخيله الجميع .

أما مصادر تسليحهم فتتنوع بين مخلفات الجيش العراقي السابق والدولة العراقية التى انهارت وتركت مخازن أسلحتها نهبا للعصابات وما حصلوا عليه من أسلحة بعد انضمام كثير من أعضاء جيش المهدي إلى صفوف الحرس الوطني وتشكيلات وزارتي الدفاع والداخلية بالاضافة إلى الدعم الإيراني المسلح لان جيش المهدي وعد بمقاتلة القوات الأمريكية إذا ما قامت أمريكا بضرب إيران كما جاء على لسان (مقتدى الصدر) وشمل هذا التطور مد إيران جيش المهدي بأحدث الأسلحة وأشدها فتكاً، وقد تسلم (جيش المهدي) فعلياً شحنات من الأسلحة المتطورة والعادية شملت القاذفات والبنادق صغيرة الحجم «غدارات» صناعة إيرانية، وهي نسخة مطورة من البندقية الألمانية (أم بي فايف) وهذه البندقية صغيرة الحجم بحيث يسهل إخفاءها تحت الملابس؛ ويستخدم لها عتاد مسدس عيار ٩ملم،وكذلك تم تزويدهم بالرشاشات الثقيلة والصواريخ المضادة للطائرات، واتخذ الجيش من حسينياته مقرات لها [1].

وكان التيار الصدرى قد دخل إلى العملية السياسية في الانتخابات النيابية عام ٢٠٠٥ مع المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق رغم الاختلاف القوي معهم وهى القائمة التى حملت الرقم / ٥٥٥ / وأشيع أنها تحظى بدعم المرجعية الشيعية فى النجف وهو ما جعلها تكتسح أغلبية مقاعد البرلمان وتشكل الكتلة السوبر التى حكمت البلاد فيما بعد، وكان الائتلاف يضم حزب الدعوة أيضا وهو تربطه بالتيار الصدري علاقة تاريخية تعتمد على تنحية فكر الصدر الثاني وهو الخصم اللدود للتيار

(1) أثبتت الوثائق التر نشرها موقع ركيليكس حول العراق تورط إيران في تسليح الميلشيات الشيعية وفرقة الموت .

الشيعي الصفوي والعودة إلى الصدر الأول مؤسس التيار الصدري وحزب الدعوة معـاً، حتى أصبح الصدريون الدعامة الرئيسية لرئيس الوزراء السابق (إبراهيم الجعفـري) وهو ما تكرر بعد انتخابات ٢٠٠٩ حيث أظهر استفتاء التيار الصدرى تفوقـا كـبيرا للجعفرى على حساب نورى المالكى وغيره من الأسماء المطروحة بمـا فيهـا جعفـر الصدر ابن الصدر الأول عم مقتدى الصدر وبعد مجيء نوري المالكي انسحب التيـار الصدري وحزب الدعوة جناح الجعفري من الإئـتلاف وبقـوا في البرلمـان العراقـي بتسميات أخرى بعد معارك ضارية قادتها القوات العراقية مدعومة بالقوات الأمريكية فى سلسلة حملات عسكرية كان أعنفها « صولة الفرسان »فى محافظة البصرة والتى امتدت إلى كربلاء وبغداد وغيرها من المحافظات وهو ما أسهم فى تجميـد جـيش المهدى بقرار من مقتدى الصدر وتحويله إلى مؤسسة ثقافية أطلق عليها اسم المهدون بعد أن أدى دوره فى تصفية أعداد كبيرة من أبناء المذهب السني وأصبح هو البارز في التصفية الطائفية لأهل السنة في العراق رغم النفى المعلن من قادته وعلـى رأسـهم مقتدى الصدر وأنهم يعملون لصالح الشعب العراقى سنة وشيعة عربا وأكرادا بينما كان المجلس الإسلامي الأعلى يعمل خفية ، لذا وجب التخلص من هذه الورقة .

كانت لعملية صولة الفرسان في محافظات الجنوب والوسط وبغداد لتصـفية جيش المهدي وإلقاء القبض على عناصره وفرار الكثير من قياداته إلى إيران ولبنان أكبر الأثر فى تقليص نفوذ جيش المهدى إلا أن هذه القيادات والعناصر الباقيـة تحاول لملمة صفوفها للعودة من جديد ، والدخول إلى العراق متى سنحت لها الفرصة ، أما ما بقى من عناصرها في داخل العراق فحاليا لا تعلن عن نفسـها كمـا في السابق كونها من جيش المهدي أملا في العودة مرة أخـرى للسـاحة العراقيـة ، وخوفا من الفتك بهم من قبل القوات الأمريكية بعد أن احترقـت أوراقهـم، وتم التركيز على خوض الانتخابات تحت مسمى أحرار العراق في محاولة لاسـتعادة مكانتهم في الساحة العراقية بعد أن تم تحجيم نشاط جيش المهدي في العراق من قبل الحكومة وقوات الاحتلال الأمريكي ، وقد نجح تيار الأحـرار المتحـالف مـع المجلس الأعلى رغم العداء التاريخى وتيار الإصلاح بقيادة الجعفرى فى تحقيـق نتائج مبهرة حيث حصل على ٣٩ مقعدا فى الانتخابات النيابية التى جرت فـى ٧ مارس ٢٠١٠ من إجمالى مقاعد الائتلاف الشيعى البالغة ٧٠ مقعدا [1] .

(1) الغريب أم مقتدي الصدر المقيم في إيران كان أول الراعين لائتلاف دولة القانون زعامة نوري المالكي ليشكل الحكومة التي استمر الصراع على تولي رئاستها منذ ٧ مارس ٢٠١٠ إلا أنه أعلن تعرضه لضغوط قاسية ليعلن هذا التأييد .

ويعود سبب النزاع التاريخي داخل البيت الشيعي وهو ما يحجم نفوذ مقتدى الصدر حتى الان بالعراق إلى الصراع بين الحوزتين (الفارسية) و (العربية) أو ما يسمى بالحوزتين (الصامتة) و (الناطقة) فبينهما من الخصومة الشيء الكثير من تاريخ مليء بالدماء والثارات ، والاختلاف على الحقوق الشيعية (الخُمس) ومردودات السياحة الدينية والدخول المتأتية من الأضرحة والمزارات.

الحوزة العربية (ممثلة بالصدر) والحوزة الفارسية ممثلة بالسيد السيستاني ومن يقف وراءه ويؤيده من حزب الدعوة والائتلاف العراقي بقيادة آل الحكيم ، وتنظر المرجعية الأخيرة إلى (مقتدى الصدر) باعتباره مازال طالبا لم يصل إلى مرتبة المجتهد، ويعرف في الحوزة بأنه طالب بحث خارجي ، لذا لا يحق لمقتدى الصدر أن يعطي الفتوى أو أن يكون مرجعية ،وهو سبب ذهابه إلى إيران لكي يحصل على المرجعية ويعود بها بعد ذلك إلى العراق

ولعل من المفيد ذكره هنا هو أن الزعيم الشاب الذي ملأ الدنيا ضجيجا وأصبحت إشارة من يده كفيلة بإحراق مدن ومناطق بأكملها بالعراق لم يكن معروفا أبدا قبل الاحتلال إلا أنه أصبح النجم اللامع واللاعب الكبير في المحفل السياسي العراقي وسطع نجمه هذه الأيام بعد أن أفل فترة بسبب تفوق تيار أحرار العراق الذي يدعمه في الانتخابات الأخيرة .

مقتدى شاب في نهاية الثلاثينات من العمر اغتيل أبوه وإخوته على يد أعوان إيران لكونه طالب سابقا بضرورة تعريب المرجعية العراقية في أوائل العام ١٩٩٩ إلا أن أصابع الاتهام التي توجهها الحكومة الحالية تشير إلى مخابرات صدام حسين إلا أن ما جرى بعد اغتيال والده وشقيقيه يؤكد عكس ذلك حيث حظي مقتدى برعاية بالغة من الحكومة العراقية له ولوالدته وخصص له راتب ضخم ومنح امتيازات خاصة ويقال إنه كان الابن المدلل للرئيس الراحل صدام حسين.

أمه من عائلة لبنانية وكانت تذهب إلى أهلها في لبنان وتعود على نفقة الحكومة العراقية وبرعايتها.. عرف عن مقتدى قبل الاحتلال حبه لألعاب الأتاري وللعبة البليارد المعروفة ومن شدة ولعه بهذه اللعبة كان يصطحب معه عصاه الخاصة أينما يذهب ويحتفظ بها داخل سيارته الماليبو رصاصية اللون، حيث كان يفضل هذا النوع من السيارات.!

كان مقتدى شخصية مغمورة غير معروفة في الوسط العراقي ولكنه ورث عن ابيه زعامته للتيار الصدري

وتشير تقارير صحفية إلى أن تشكيل ميليشيا جيش المهدى من أتباع التيار

الصدري الفقراء والمعوزين ماديا كان بترتيب من أحمد الجلبى على أن يكون قائدها مقتدى وارث التيار الصدري .. حيث كان لقاء مقتدى بالجلبي في مبنى نادي الصيد بحى المنصور الراقى غربى بغداد وحضر حينها مقتدى مرتديا ملابس طبيعية عبارة عن بنطلون جينز وقميص أبيض وجاكيت أسود كان قد تركها في سيارته الخاصة وبرفقته مساعدوه وكانوا باديء الأمر بمثابة أصدقائه وعلى رأسهم قيس الخزعلي الذب قاد تنظيم عصائب أهل الحق عنما انشق على مقتدي الصدر وجيش المهدي .. كان جميع الحاضرين بمن فيهم مقتدى يلبسون الملابس العادية (بنطلون وقميص) حيث لم يعرف عنه ارتداءه للملابس الحوزوية الا أنه ومن معه أطلقوا لحاهم فيما بعد لكي يظهروا بصيغة إسلاميين معممين ليكونوا مقبولين نوعا من قبل أتباعهم وخصوصا أنهم يتزعمون تيارا إسلاميا..!

وفي أحد الرسائل غير المعلنة من قبل المرجع الخالصي إلى مقتدى الصدر يحثه على تحجيم دور جيش المهدي لدوره المشين والمخزي فيما يمر به العراق وشعبه من كوارث جراء الجرائم التى يرتكبها جيش المهدى كتب له يقول:

إنك تتحمل وزرا كبيرا وإثما عظيما أمام الله فبماذا ترد عليه يوم العرض حين يسألك الخالق عز وجل عن دورك في قتل الأبرياء.! فلقد عملت أنت شخصيا على تحويل المقاومة الشيعية وجعلها عصابات تقتل وتنحر السنة لا لذنب اقترفوه سوى لتنفيذ ارادات المحتلين ولصراع عقائدي مذهبي عفا عليه الزمن وأيقظه المحتل.

وساهمت إيران التى لها عداء عقائدي مع العرب ولالتحافها بعباءة المذهب وانظوائها تحت المظاهر الاسلامية فى إقناع البسطاء من الشيعة بعداء أهل السنة خاصة بعد الخطأ الاستراتيجى لزعيم تنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين أبي مصعب الزرقاوى الذى أفتى بوجوب قتل الشيعى الرافضى وسيطرت على جيش المهدي ودعمته بالمال والسلاح ، ووجهته لاشعال حرب أهلية بحجة أن العرب السنة يناصبون العداء لأتباع ال البيت واقحمتهم بفتاوى تجيز ذلك وتدعو له بقوة منها وعلى سبيل المثال لا الحصر ماصدر عن القيادي في جيش المهدى حازم الأعرجي الأخ غير شقيق للبرلماني عن التيار الصدري بهاء الأعرجي .

١٢ - حاشى المهدى من هيك جيش

كلمة يتندر بها الشيعة أنفسهم بعد أن أفلت الزمام وأصبح هذا الجيش وصمة عار فى جبين العراق والشيعة تحديدا بسبب طبيعة الجرائم التى ارتكبها

والمحرمات التى تجاوز عليها حتى بات كل من ينتمى إلى هذا التنظيم المهترىء والذى تبرأ قائده منه أكثر من مرة مصدر سطوة وقوة حتى إن أى شخص يريد أن ينهى أمرا يدعى انتماءه أو معرفته بأحد عناصر هذا الجيش لدرجة التدخل فى عمليات الفصل «الأحكام العشائرية» التى تعتبر ميراثا راسخا من القوانين يخضع لها الجميع لما لها من قوة وسطوة تاريخية .. بات التلويح بهذا الاسم « جيش المهدى» وسيلة لكل من يريد الحصول على اتاوة أو يبتز شخصا على أى مستوى .. بات عناصر هذا الجيش أو من يدعون الانتماء له قوة تتجاوز سلطات الحكومة والدولة وأى سلطة أخرى .. ساهم فى ذلك السكوت المريب للحكومة العراقية لفترات طويلة على ممارسات عناصر هذا التنظيم أو من يدعى الانتماء له فى كافة المحافظات خاصة مناطق الوسط والجنوب .ز فاذا قامت السلطات المحلية أو قوات الامن باعتقال أحدهم أو بعض منهم سارع أقرانهم بفك اسرهم وإطلاق سراحهم عنوة على مرأى ومسمع من الجميع .. وإذا تطور الأمر إلى اشتباكات مسلحة تكون الغلبة طبعا لجيش المهدى .. وغالبا ما ينتهى الأمر بفرض شروط وتقديم الاعتذار من السلطات المحلية .

إلا أن ما يجب ذكره هنا هو أن بعض عناصر جيش المهدى الذين كانوا يؤمنون بدوره المجتمعى ويمارسون سلطات وصلاحيات الانتماء إلى التنظيم فى خدمة الناس تمكنوا من فرض النظام فى بعض المناطق وأخذ الحق للضعفاء من أقوياء جاروا عليهم .

روى لى أحد سكان مدينة الصدر أن جيش المهدى أصبح مسئولا عن توزيع الغاز على المدينة وهى سلعة كانت شحيحة ومرتفعة الثمن فى زمن المذبحة وكانت طالبة دكتوراه سنية تريد الحصول على حصة أسرتها من الغاز وهى قنينتين إلا أن شحة المعروض والزحام الهائل على منفذ التوزيع الذى يتولاه عناصر من جيش المهدى أدى إلى نفاذ الكمية ولم تتمكن من الحصول على حصتها .. شعرت الفتاة بالقهر وبكت مستغيثة « هلى لأنى سنية ولا أقوى على أخذ حقى كونى امرأة يضيع هذا الحق فما كان من المسئول عن مركز التوزيع إلا أن يمنحها ثلاث قنينات من الغاز بدلا من اثنتين مع تقديم الترضية اللازمة لها والاعتذار وقال إن القنينة الثالثة هى هدية بلا مقابل .

١٣ - فصل السنى

فى شهر ديسمبر ٢٠٠٧ يروى « أبو سجاد » من سكان مدينة الصدر أن معركة عشائرية نشبت بين قبيلة تميم والبودراج بسبب قتل صديق يعمل بالشرطة ينتمى

لتميم صديقه المنتمى للبودراج فى أثناء نقاش عادى على أحد المقاهى وثار اصدقاء كانوا متواجدين فى المكان على القاتل بينهم شخص سنى من سكان مدينة الصدر وما كان من القاتل المتهور الا ان عاجل بأربعة رصاصات فى قدميه ووجه إليه سباً قاسيا لأنه سنى ويتدخل بين الشيعة وبعد أن غادرت اسرة القاتل المحلة كما جرت العادة انتظارا لفصل عشائرى / يجلس فيه أهل القاتل والقتيل لأخذ الدية/ حاول اهل المصاب السنى الحصول على فصل من اهل القاتل جاءهم الرد عنيفا محملا بقدر من الشتائم والتهديد الصريح .« مو كافى انتم سنة وتريدون فصل» .. وكان أهل المصاب قد أنفقوا آلاف الدولارات لعلاج ابنهم الذى تسببت احدى الطلقات فى عجز دائم باحدى قدميه ولما فاض الكيل وفشلوا فى إقناع أهل القاتل بالحصول على تعويض مناسب أو المبلغ الذى اقترضوه وأنفقوه على علاج ابنهم لجأوا إلى مكتب الصدر الذى يضم قسما للعشائر يقوم بدور الوسيط فى النزاعات العشائرية « الفصل» .

ويقول أبو سجاد : إن من بمكتب الصدر انتفضوا لنصرة هذا المظلوم رغم أنه سنى وكانوا فى منتهى الحزم والشدة مع خصمه الشيعى بل واختصموه مالم يعطى الحق لصاحبه وذهبوا لأبعد من ذلك طلبوا من أهل القاتل أن يدفعوا الدية مضاعفة مع تقديم الاعتذار الكافى للشاب السنى المصاب .

وتؤشر تلك القصة البسيطة إلى أن هناك نقاط ضوء رسمها عراقيون طيبون بعيدا عن الانتماءات المذهبية وسط هذا الفيض من الظلام الذى كان يغلف زمن المذبحة .

١٤ - المجموعات الخاصة

يقول « تي.اي لورانس» أو لورانس العرب الأسطوري الذي قاتل مع الثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية قبل نحو مائة عام : ان محاربة التمرد «عملية صعبة وبطيئة مثل تناول الحساء بالسكين»

ويبدو أن هذا التعبير ينطبق تماما على عناصر جيش المهدى الذين بات أمرهم محيرا بالنسبة للأمريكيين وغيرهم من المتعاملين مع الشأن العراقى بما فيهم المراقبون والمحللون السياسيون والعسكريون .. وقادت تلك الحيرة القوات الأمريكية إلى ابتكار مصطلح « المجموعات الخاصة» التى تعتبرها هدفا دائما لهجماتها وتعنى عناصر المليشيات الشيعية التى يقول الأمريكيون انها مدعومة من إيران وخارجة عن مسار التيار الصدري، وجناحه المسلح « جيش المهدى» .

وتشير التقارير الامنية إلى ان هذه المجموعات لا تعمل فقط في مدينة الصدر معقل التيار الصدرى ، بل انتشرت في مدن وأحياء أخرى شيعية ببغداد مثل بغداد الجديدة وحي العامل والشعلة والبياع والشعب وحي سومر ومنطقة (كسرة وعطش) والحسينية وأبو دشير ، كما انتشرت فى مناطق متفرقة من العراق وهذه المجموعات تعمل بموجب قواعد متحركة غير ثابتة وتركز على مهمات زرع القنابل على الطرق خاصة تلك الخارقة للدروع التى تنتجها ايران وتكبد الأمريكيون بسببها الكثير من الخسائر الفادحة وتنفيذ الهجمات المباشرة ، فضلاً على عمليات التهجير القسري لأهل السنة ، ومطاردتهم واختطافهم .

ومن المرجح أن يكون الأمريكيون قد ابتكروا هذا التعبير لمحاولة الفصل بين عموم قواعد جيش المهدي ، والنشطاء الفاعلين فيه ، الذين يتولون المهمات الإرهابية القتالية والجرائم الطائفية ، وهي خطوة أريد بها عدم استفزاز مقتدى الصدر وقيادات جيش المهدي ، وفي تبرير العمليات التي تقوم بها القوات الامريكية بين الحين والآخر ، لمطاردة الناشطين في جيش المهدي .

وقد بدأ الترويج لهذا المصطلح منذ صيف ٢٠٠٧ بعد ان اقتربت القوات الأمريكية من انهاء خطر تنظيم القاعدة خاصة حول بغداد بعد التحالف مع رجال العشائر السنية فيما عرف بمجالس الصحوة [1] .

ورغم وجود مستوى عال من التعاون الأمريكي الإيراني منذ غزو العراق واحتلاله عام ٢٠٠٣ ، إلا أن التقاطعات بين الطرفين ظلت موجودة ، وهو ما حدا بمسئولين أمريكيين، إلى الإعلان عدة مرات أن مسؤولين رفيعي المستوى في الحكومة الإيرانية يقدمون الدعم والسيطرة لبعض الجماعات المسلحة.

ومنذ تشكيل حكومة المالكي عام ٢٠٠٦ والتي تعهدت بمطاردة المليشيات فأن قوات فيلق القدس الايراني زاد نشاطاته في استهداف القوات الحكومية ، بعد مرحلة من التعاون بين الطرفين ، ظهرت في مشاركة مليشيا جيش المهدي في عمليات عسكرية حكومية ضد الأحياء السنية في بغداد ، مثلما جرى في الأعظمية وشارع حيفا ومنطقة الفضل وسط العاصمة .

وجاءت بداية عمل تلك المجموعات كما يقول الأمريكيون عام ٢٠٠٦ واستمرت حتى ٢٠٠٨ ، وتصنف في بعض الأحيان على أنها خلايا سرية «تدعي الخدمة ضمن

(1) الصحوة هي قوات مسلحة بأسلحة خفيفة ومتوسطة قواها الرئيس رجال العشائر الذين قاتلوا القاعدة بدعم أمريكي .

مليشيا جيش المهدي» .

وتشير التسريبات الأمريكية إلى إن قائد تلك المجموعات وزعيمها هو قيس الخزعلي، الذي انشق عن التيار الصدري وكون ما بات يعرف بـ « عصائب أهل الحق »، ويعمل تحت إمرة القائد الأعلى لفيلق القدس وهو المتهم الرئيسى بعملية اختطاف البريطانيين الخمسة من مقر وزارة المالية شرق بغداد عام ٢٠٠٧ وقتل أربعة منهم بالإضافة إلى اختطاف جنود أمريكيين من مقر محافظة كربلاء التى تبعد حوالى ١٠٨ كيلومترات جنوب بغداد وقتلهم فى الطريق المؤدى إلى العاصمة بعد استشعار خطر الملاحقة من قبل القوات الأمريكية ، ويقول الأمريكيون إن « تلك المجموعات هي من الناحية التنظيمة تعمل على شاكلة حزب الله اللبنانى » .

ووفقا لتصريحات القادة الأمريكيين فان العلاقة غير واضحة بين المجموعات الخاصة ، وجيش المهدي حيث صرح الجنرال لويد أوستن الرجل الثاني في تسلسل القيادة الأمريكية بالعراق والذى خلف الجنرال ريموند أوديرنو فى ٢٤ مايو ٢٠١٠ كقائد للقوات الأمريكية بالعراق ، « إن هناك تداخلاً بين المجموعات، وان الصلة بين المجموعتين غير متبلورة إلى حد كبير وأن هناك فصلاً بين النشاطات الاجتماعية لجيش المهدي مثل توزيع المشتقات النفطية ، والعمل في حراسة الأحياء ، ونشاطات المجموعات الخاصة الاكثر فعالية ».

إلا أن قادة أمريكيين آخرين يقولون:إن تلك المجاميع هي بالأصل عناصر في جيش المهدي وانشقت عنه أو هي مجاميع متمردة على قيادة زعيم التيار الصدرى وقائد جيش المهدى مقتدى الصدر، وتعمل بأوامر إيرانية مباشرة .

أما القيادات الصدرية فإنها ترفض أي نوع من الربط بين جيش المهدي وتلك المجموعات التي يتحدث عنها الامريكيون ويقول القادة الصدريون أن ذلك االربط هو مجرد ادعاءات القصد منها « افشال التيار الصدري في الانتخابات المحلية التى جرت فى يناير ٢٠٠٩ ، وتصفية القواعد الشعبية لجيش المهدي إلا أن التيار الصدرى حقق نتائج جيدة فى تلك الانتخابات المحلية والانتخابات النيابية التى جرت فى مارس ٢٠١٠».

ولتفسير هذا التناقض، يمكن القول بأن الامريكيين في محاولتهم لتفادي استفزاز القيادات الصدرية بشكل مباشر بسبب تهيئة التيار لدور سياسي قادم مختلف بعد نجاحاته الكبيرة فى الانتخابات وامتداد نفوذه الشعبى ، ولتخليص مقتدى الصدر من الحرج بسبب مطاردة إتباعه ، في حين أنه إما هارب أو مختف ، فإنهم ابتكروا هذا التوصيف (المجموعات الخاصة) ليمكنهم من انجاز عملية عزل قواعد جيش المهدي ، عن قياداته ، مستثمرين إعلانات سابقة لمقتدى الصدر بأنه

يعمل على تطهير جيش المهدي من العناصر الفاسدة والمتمردة ودعم دوره الثقافى والاجتماعى والسياسى .. ولهذا عمل الأمريكيون بحرية وتتوالى بياناتهم العسكرية لتزف أخبار اعتقال عناصر من المجموعات الخاصة المدعومة من إيران خاصة بعد اعلان مقتدى الصدر عن تجميد جيش المهدى إلى أجل غير مسمى بعد أن ارتكبت سرايا الجيش اعمال عنف تتوزع بين عمليات الاغتيال والاختطاف ، واعمال اخرى تتناول الجانب الخدمي تتمكن فيه من جمع المعلومات وتقديمها لتلك السرايا ، التي هي في حقيقتها (فرق موت) لم تظهر عام ٢٠٠٦ كما يقول الامريكيون بل وجدت مع تأسيس جيش المهدى وتصاعدت عملياتها مع فورة العنف الطائفى منذ عام ٢٠٠٥ .

١٥ - الرحيل المر

لاتبتعد الذاكرة العراقية كثيرا في استذكار أول عملية تهجير منظمة لليهود تمت طوال عقد الاربعينات وبداية العقد الخامس من القرن الماضي والجميع يؤكد أن الهجرة تمّت من المنظمات الصهيونية التي كانت تريد بشرا يسكنون ارض اسرائيل.

ثم تلتها هجرة الكلدان العراقيين الذين عانوا من التمييز العرقي عام ١٩٥٩ وما بعدها و الذين انتقل الآلاف منهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبالتحديد إلى ولاية ميتشجان التي يشكلون فيها قوة أقلية لا بأس بها .

أما أشهر هجرة تمّت في العراق وفي الداخل فهي هجرة الفقراء من فلاحي الجنوب إلى مدينة بغداد التي كانت تستقطب الأيدي العاملة في مشاريع الإعمار الهائلة التي كان مجلس الإعمار قد بدأها بقوةفتحولت العديد من المناطق في بغداد إلى مستوطنات للمهجرين الذين فروا من ظلم الاقطاع في الجنوب فضلا عن الفقر والحرمان أملا فى حياة جديدة بعد أن بدأت الحكومة الملكية بمشاريع عملاقة كربط المناطق بشبكات الكهرباء والماء وتعبيد الطرق وبناء المؤسسات التعليمية التي تحتاج إلى أيد عاملة غير ماهرة فضلا عن انتشار بناء الدوائر الحكومية والمستشفيات والمؤسسات الصحية وبعض العمارات في قلب بغداد والتي استقطبت الآلاف من العمال استوعبتهم المرحلة اللاحقة فعملوا في التنظيف والحراسة وأعمال أخرى .

وتعد مدينة الصدر شرقى العاصمة التى باتت المعقل الرئيسى للتيار الصدرى وجناحه العسكرى « جيش المهدى من أكثر المناطق استقبالا للمهاجرين بعد أن بناها الرئيس الراحل عبد الكريم قاسم وأطلق عليها فى البداية مدينة الثورة ثم

تحولت إلى مدينة صدام واستقرت في النهاية على اسم جديد يناسب الزمن الجديد وهو « مدينة الصدر المنورة ».

كما حدثت هجرة أخرى طوال أكثر من عشر سنوات هي الهجرة الضخمة لسكان الاهوار بعد إن قام صدام بتجفيفها وتقطعت السبل بمئات الآلاف من صيادي الطيور البرية والأسماك ومربي الأبقار والجاموس الذين اعتادوا على هذه الحياة لآلاف السنين ، مما اضطر الشباب منهم إلى العمل في القصور الرئاسية بتكريت وبغداد والبصرة والحلة وبعض المناطق الأخرى ولا توجد بيانات دقيقة عن عدد المهجرين قسريا بهذ الاسلوب

وتاتي الهجرة المليونية للكرد إلى الاراضي التركية في عام ١٩٩١ بعد فشل ما يعرف بـ«انتفاضة اذار» ضد نظام صدام حسين بعد حرب الخليج الثانية بايام قلائل .

وفي الداخل قام صدام حسين بتصميم هجرة قسرية بهدف إعادة التوزيع السكاني اوتغيير التركيبةالديمجرافية خصوصا في الشريط الحدودي مع إيران وفي محافظة كركوك حيث قام بتهجير آلاف من الأكراد ووطّنهم في أماكن مختلفة مثل الرمادي والديوانية والعمارة وغيرها من المناطق الجنوبية والغربية ثم جاءت الأزمة التي سبقت نشوب الحرب العراقية الإيرانية عندما اتهم صدام الكرد الفيلية في العراق وهم «الأكراد ذوى المذهب الشيعى» بالتآمر مع الحكومة الايرانية فقام بالاستيلاء على أموالهم وعقاراتهم وتم اعتماد قانون التبعية الايرانية لهم و نفيهم على ضوئه إلى ما وراء الحدود بين العراق وإيران إلا أنهم عادوا بعد انهيار نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣ بعد أن كونوا عائلات وتزاوجوا مع الإيرانيين وصار عدد كبير منهم أعضاء بالبرلمان ودوائر الدولة بعد أن شكلوا أحزابهم السياسية التى تطالب بحقوقهم [1] .

ولعل من أكبر الهجرات تلك التي تمت في عهد النظام السابق خصوصا بعد هزيمة جيشه في حرب الخليج الأولى والحظر الدولي على العراق الذي ادى إلى خروج الملايين من العراقيين إلى خارج العراق بحثا عن عمل ولقمة عيش وقد تجمع غالبية العراقيين في الأردن وقسم منهم حصل على فيزا او لجوء إنساني أو حتى سياسي طوال عقد التسعينات .

غير أن أخطر هجرة تعرض لها العراق هي تلك التي اعقبت تفجير مرقد

(1) الطريف في الأمر أن السفير الإيراني الحالي بالعراق حسن دانائي فر هو أحد ! لعراقين الذين طردهم صدام حسين إلى إيران .

الإمامين العسكريين / الإمام على الهادي والحسن العسكري وهما الإمام العاشر والحادي عشر لدى الشيعة/ فى بلدة سامراء السنية بمحافظة صلاح الدين وهى الحادثة التي فجرت عنفا طائفيا غير مسبوق في تاريخ العراق جعل الحياة في احياء بغداد وبعض المحافظات جحيما لا يطاق مما اضطر الملايين من العراقيين إلى ترك العراق إلى عدة دول و جعل العراقيين يتندرون بالقول «ان تحت كل نجمة تجد ثمة عراقي» .. فيما واكب تلك الهجرة الخارجية هجرة داخلية إلى مناطق أكثر أمنا اعتمادا على الانتماء الطائفى .

في تقرير له ذكر مكتب مساعدة العراق التابع للأمم المتحدة المعروف باسم « يونامي» ان هناك اكثر من مليونين وثلاثمائة الف لاجيء أو مقيم عراقي في خارج العراق وان المكتب يعمل مع الحكومة العراقية لدعم عودة العائلات إلى العراق وهو ما أكده الممثل الشخصي للامين العام للأمم المتحدة ستيفان دي مستورا الذي رأي أن هناك بوادر مشجعة وهو ما سيجعل الأمم المتحدة تستجيب إلى طلبات وزارة الهجرة والمهجرين في دعم نشاطاتها بهذا الاتجاه.

إلا أن عودة العائلات المهجرة إلى مساكنها بعد تطبيق خطة امن بغداد واستقرارالأوضاع نسبيا واجه الكثير من الصعوبات والمشاكل

لكن المواطن يجد نفسه ازاء هذه االحقائق حسيرا كسيرا وهو لأن الكثير من المهجرين تم نسف بيوتهم وحرق أثاثهم وصودرت مصالحهم وهو أمر لا يمكن احصاؤه بدقة.. كما أن الكثير من العائلات تعرضت للقتل والتنكيل عند عودتها إلى بيوتها مرة أخرى رغم وجود حالات إيجابية جرى التعامل معها بشفافية وأعيدت لها بيوتها لكنها فقدت المحتويات .

ربما يمنع الحياء البعض من متابعة تفاصيل التهجير بسبب العوز والحالة الاقتصادية السيئة فى وقت تجد الحكومة العراقية نفسها في زاوية ضيقة بسبب حجم التحديات التي تواجهها وضآلة مواردها وضيق افق خبرتها في التعامل مع الأزمات وخصوصا أزمة مثل أزمة المهجرين .

يقول أبو حيدر إنه رفع شكوى إلى المسؤولين لكنه شعر بأن مصيبته أقل وطأة من مصيبة مهجر آخر قتل أولاده أمام عينيه وأنه حاول أن يصمد معولا على أنه عاش في الحي لسنوات طويلة وانه معروف بالاستقامة ولابد ان أحدا من أبناء الحي سيتردد كثيرا قبل أن يفكر أن يؤذيه بكلمة فكيف بغيرها ، إلا أن الأمور خرجت عن كل منطق مع قدوم الغرباء إلى المنطقة الذين جندوا من الصبية والجهلاء ليفتكوا بالأبرياء ويروعونهم شر ترويع .

تبدو قصة هذ المهجر أقل القصص إثارة بالنسبة للمواجع التي تهز ضمير الإنسانية .

يقول عمر أبو شيماء وهو تركماني إنه هاجر من العراق وفي داخله خوف عميق الا يعود ثانية إلى بيته في أطراف الأعظمية .. الجحيم بعينه كان يراه يوميا وهو يتوجه إلى مكان عمله في باب المعظم .. كان يلاحظ نظرت الاشفاق من أصدقائه في السوق الذي هو فيه إلى أن خبّره أحد أصدقائه من الباعة بأنه مرصود وان اسمه مشكلة وان عليه أن لا يأتي إلى المكان .. كان عليه أن يفكر بطريقة أخرى للحياة والعيش .. فكر بعمل آخر لكن دون جدوى. أخيرا غادر العراق إلى سوريا وهناك حيث البطالة تضيق على السوريين حاول إيجاد فرصة له معهم ..الترحيب السوري بالعراقيين بدأ بالفتور التدريجي نظرا للمصاعب والمشاكل التي حدثت وارتفاع أسعار المواد الغذائية والفنادق والشقق وإيجارات السكن الأخرى .

ويقول سنان: إن القلق الكبير من نفاد المبالغ دون الحصول على عمل يشكل واحدة من المشاكل التي رسمت أفقا أسود أمام العائلات التي خافت على أبنائها من العودة إلى العراق تحسبا من القتل الطائفي الذي انتشر بشكل كبير بعد تفجير المرقدين المقدسين لدى الشيعة فى فبراير عام ٢٠٠٦ .

إحصائيات الهلال الأحمر العراقي تبعث على التفاؤل بسبب الأرقام المشجعة عن عدد العائدين إلى الوطن وخصوصا إلى العاصمة بغداد بعد ان تحسنت الأوضاع الأمنية في أنحاء كثيرة من بغداد خصوصا في المناطق الساخنة ، وهذه الإجراءات تم مدها بمنحة مجلس الوزراء البالغة مليون دينار لكل عائلة تعود إلى مسكنها السابق وادى هذا إلى التعويض الجزئي الذي شجع عددا لا بأس به من العائلات إلى العودة إلى أماكنها السابقة إلا أن توفير الأمان في المناطق التي عادت إليها العائلات مرهون بالدور الذي تقوم به الأجهزة الأمنية من جيش وشرطة من فرض لهيبة الدولة وسلطتها مما يعطي الإحساس بالأمان لدى العائلات الأخرى التي تتوجس خوفا خصوصا بعد مقتل عدد من العائلات في أثناء عودتها إلى مناطق سكناها القديمة .

ساهمت عدة إجراءات اتخذتها الحكومة فضلا عن تحسن الوضع الأمني في عودة الكثير من العائلات عبر الطرق البرية مع سوريا والأردن ولبنان فضلا عن عودة آخرين عبر الجو مستفيدين من رفع رسوم التحميل عنهم فضلا عن تجهيز قوافل من السيارات الحديثة لنقل المواطنين من سوريا والأردن إلى العراق ومجانا

بالإضافة إلى تخصيص رحلات طيران مجانية لعودة المهاجرين خاصة من مصر .

يتحايل الفقراء من المهجرين على الوضع المزري الذي يعيشونه ببناء دور بسيطة يسكنون فيها ريثما يتحسن الوضع الأمني والمعاشي بعد أن فقدوا كل شيء إلا أن بعض الجهات تحرمهم من هذا الحق البسيط .

تروى أم زينب التى قتلت القاعدة زوجها عام ٢٠٠٦ أنها تقيم فى فناء خلفى لأحد المساجد بمنطقة أبو دشير المواجه لحى الدورة جنوبى بغداد بعد أن دبرت أمر المكان بمساعدة أهل الخير وتقيم حاليا فى غرفة واحدة بمرافقها البائسة مع أولادها الستة الذين يبحثون عن فرصة عمل تتيح لهم النذر اليسير من متطلبات الحياة القاسية .

وما زاد الطين بلة أن بعض المحافظات التي تعد ملاذا لمئات العائلات رفضت قبول مهجرين جدد بحجة عدم القدرة على تحمل الأعباء الأمنية والمادية لهؤلاء المهجرين الذين هربوا من القتل في محافظات أخرى .. مثل هذا الرفض أو الموقف خلق شعورا عارما بالاستفزاز والإحباط في نفس الوقت الأمر الذي قاد إلى مشاكل اجتماعية ونفسية أدت إلى قيام مظاهرات كبيرة بعضها حقق نتائج مرضية مثل المخيم الاعتصامي الذي أقيم في مدينة كربلاء لأهالي مدينة ديالى الذين تعرضوا إلى إبادة جماعية على يد القاعدة .

تؤكد إحصائية رسمية عراقية وجود اكثر من ثلاثة ملايين عراقي خارج العراق بينهم مهاجرون ومهجرون وغيرهم .. ففي السويد وصل عدد العراقيين إلى مائة الف وفي الدنمارك حوالي ٢٥الفا وفي ألمانيا هناك ٤٥ ألفا وفي استراليا ٦٥ وفي الولايات المتحدة هناك ثمانون ألف عرقي أما في بريطانيا فهناك ٤٥ ألفا و٢٥ ألفا في فرنسا و١٢٠ ألفا في إيران وفي مصر هناك أكثر من مائة ألف عراقي وحوالي مليوني عراقي في الدول المجاورة منهم حوالي مليون ونصف في سوريا وحدها .

١٦ - حكاية الجهاد

لم يكن حي الجهاد غير اسم لأحد أحياء بغداد العديدة المنتشرة على بقعة كبيرة تضم العاصمة العراقية ،إلا أن اسم إحدى مناطقه الصغيرة وتدعى (حي الفرات) اكتسب شهرة أكبر بعد المعارك العنيفة التي شهدها عند وصول الجيش الأمريكي إلى مطار بغداد المجاور له.

لكن الجهاد بين ليلة وضحاها غدا رمزا للرعب الطائفي الذي أحاله من منطقة هادئة نسبيا إلى واحد من رموز العنف الطائفي والقتل والخوف.

حي الجهاد منطقة واسعة نسبيا يضم أحياء صغيرة حديثة ،كان يضم فيما

سبق كلية الأمن القومي التابعة للمخابرات العراقية ، لذلك فإن اغلب الأراضي في أحيائه وزعت على الموظفين الحكوميين وحملت أسماء الجهة التي ينتمي إليها هؤلاء مثل الخارجية ، الأطباء ،الديوان(ديوان الرئاسة) المخابرات ،نواب الضباط (رتبة عسكرية) وغيرها ، فيما كان حي الفرات يضم مجمعا لمنتسبي الحرس الخاص ،الذي يشكل وحدة الصفوة للحرس الجمهوري أيام حكم صدام حسين.

ورغم انتشار العنف الطائفي عام ٢٠٠٥ إلا أن حي الجهاد لم يشهد أحداثا مثيرة ، بل بقي الجميع فيه وكأنهم في واحة خارج بغداد لا يتأثرون بما يحدث ، رغم أن الأحياء الصغيرة التابعة صنفت طائفيا ، فحي الأطباء والفرات والمخابرات اعتبرت أحياء سنية ، فيما اعتبرت الأحياء المتبقية أحياء شيعية ،ورغم ذلك لم يحدث ما شأنه أن يوتر الأمور بين السكان حتى ذات جمعة حصل ما كان يخشاه الجميع.

وتبدأ حكاية الفتنة بعد صلاة الجمعة فى أحد أيام المذبحة حيث انفجرت شاحنة صغيرة مستهدفة المصلين في جامع (صديق شنشل) وهو جامع في منطقة الأطباء الذي تسكنه غالبية من الطبقة المترفة ، لكن القدر حال دون حدوث إصابات كثيرة نتيجة الانفجار الذي تم توقيته مع موعد خروج المصلين من الجامع ، ذلك لأن إمام الجامع طلب من المصلين التأخر عن الخروج لأداء صلاة الغائب على روح الشخص الذي كان يتولى رعاية الجامع وقد توفي خارج العراق.

أعقب ذلك في اليوم الثاني ــ أي يوم السبت ــ انفجار سيارة قرب حسينية الزهراء الواقعة في المنطقة المقابلة لجامع شنشل والتي يتخذها انصار التيار الصدري مقرا لهم ،مما أدى إلى سقوط ٤٠ قتيلا وجريحا على الأقل وهدم منزلين على سكانهما .

في اليوم الثالث أعلن عن تصعيد المحرقة ، يقول لي أحد الأصدقاء الصحفيين من سكنة المنطقة ، بينما أنا في مقر الجريدة تلقيت اتصالا من المنزل ، كان أهلي خائفين مذعورين طلبوا مني أن أجد مكانا أبيت فيه ولا أعود إلى حي الجهاد أبدا.. لقد بدأوا يقتلون الناس في الشوارع بجنون.

تقول الرواية : إن مجموعة من المسلحين اقتحموا حي الجهاد وبدأوا بنصب سيطرة / نقطة تفتيش/ على إحدى الطرق الرئيسة المؤدية إلى المنطقة ،يوقفون السيارة ويدققون في هويات راكبيها،ومن ثم يقومون بالإعدام على الهوية ، كل من يحمل لقبا لعشيرة من المنطقة الغربية أي كل من يعتقدون أنه من أهل السنة ، وهكذا خلال أقل من ساعة قتل ٥٢ شخصا في مكان واحد.

يخبرني الصحفي أن زوجته كانت في إحدى السيارات وقبل أن يصلوا لسيطرة

القتل توقف سائق السيارة وطلب منهم الترجل والذهاب سيرا على الإقدام ، كانوا يقتلون الناس بدم بارد..تقول : تنقلنا بين المنازل والخوف يسيطر علينا ولم أكد أصدق أني قد وصلت المنزل سالمة.

الغريب أن الحكومة التزمت الصمت ، بل راح بعض القادة الأمنيين والمسئولين يكذبون ،ويبررون ، وبقيت الجهاد مستباحة ٢٤ ساعة ؛ليدخلها الجيش صباح اليوم التالي بعد أن قتلت عائلات كاملة في منازلها ، والأغرب أن الجيش بسط سيطرته ولكن دون أن يلقي القبض على أحد من الجناة ، ومنذ ذلك اليوم صار مشهد القتل مألوفا في حي الجهاد الذي أصبح رمزا للخوف حتى بات سائقو سيارات الأجرة يتخوفون من الذهاب إليه في جهر النهار ..ورغم أن الهدوء عاد بعد سنتين ، واستقرت الأمور ألا أن البعض من أهالي بغداد لا زال يشعر بالخوف من اسم حي الجهاد الذي تحول إلى صورة مصغرة عن الحياة في بغداد ،أو قُل العراق إذ أصبحت الجماعات المسلحة والقاعدة وتنظيمات أخرى تسيطر على المناطق السنية فيه حتى بات الوصول إلى حي الأطباء آو الفرات أو المخابرات دخولا إلى المنطقة المحرمة ، فيما سيطرت المليشيات الشيعية على المناطق الأخرى وراحت تفرض أوامرها وسياستها بعيدا عن السلطة التي غابت نهائيا رغم وجود رمزي لسيطرات/ نقاط تفتيش/ هنا وهناك لا تستطيع شيئا حيال ما يجري إذ تسيطر عليها المليشيات بالكامل.

وبدأت حملات تهجير متبادلة ومنظمة راح ضحيتها الفقراء من الناس الذين لا يملكون في دنياهم إلا بيتا استطاعوا بنائه بعد سنوات من الكد والجهد غير أنهم خسروه في دقائق معدودة على أساس عمليات التطهير الطائفي للمناطق فلا يسمح لسني بالسكن في منطقة شيعية والعكس وهو ما أدى إلى تنقية إجبارية لمعظم مناطق العاصمة بغداد في سنوات المذبحة وأصبحت تلك المناطق عبارة عن كانتونات تحكمها المجموعات المسلحة سواء المنتمي منها لتنظيمات سنية أو ميليشيات تابعة للقوى الشيعية .

وكان يتم الفصل بشكل قطعي وهمجي يطال أسرة بكاملها حيث كان العراقيون يتزاوجون دون النظر إلى طائفة بعينها فصار لزاما في تلك المرحلة أن يتم الفصل بين الزوجين على أساس طائفي وانهارت عائلات بأكملها باعتبار أن الزوج مثلا ينتمي إلى الطائفة السنية والزوجة تنتمي إلى الطائفة الشيعية أو العكس .. بل صار الأمر وصولا إلى قتل العم أو الخال إذا كان ينتمي لطائفة مغايرة فيما يشبه الفصل العنصري الذي زرع بذور الكراهية المقيتة وانقلبت الأمور إلى حد القطيعة بين الأهل بعد العداء الذي وصل إلى المطالبة بالثأر بسبب القتل أو الاستيلاء على الأملاك .

ولم يكن حى الجهاد استثناء فى زمن المذبحة وإن كانت الصور الطائفية قد تجسدت فيه بشكل أكثر وضوحا وفجاجة وإنما اندرج تحت طائلة القتل بعناوين الطائفة والمذهب غالبية أحياء العاصمة بغداد وعدد كبير من المحافظات التى كانت تمثل فسيفساء عراقية تتميز بثراء انقلب ليصبح جحيما .. وكما يقول العراقيون: إن ثرواتهم غير المحدودة كانت وبالا عليهم بدلا من أن تكون سببا فى سعادتهم وتمتعهم بنعيمها .

١٧ - مصيدة منتصر

يروى منتصر أبو زيد الذى كان يعمل فى مؤسسة الصحافة والعراق الحر/ إف أى إم بى أو / فى خريف ٢٠٠٦ كان يقود سيارته الخاصة فى شارع العمل الشعبى قرب مدرسة عدنان خير الله وفى التقاطع حدث هجوم استهدف آلية أمريكية بقاذفة آر بى جى وصارت حالة من الرعب فى وقت لم يكن يعلم جغرافية المكان جيدا وتتميز تلك المنطقة بدرويها وأزقتها المتشعبة وهرع نحو شارع فرعى تحسبا لهجمة أمريكية ردا على الهجوم .. وكان هذا مع موعد صلاة العصر واقترب من الجامع ليميز إذا كان حسينية شيعية أم مسجد سنى وزاد الأمر حيرة هو اسم الجامع « جامع الإمام على رضي الله عنه» علما أن الشيعة لا يقولون : رضى الله عنه وإنما يقولون : عليه السلام ودخل إلى الجامع طلبا للاطمئنان والسكينة وعملا بنصيحة والدته باللجوء إلى الجامع عند الشعور بالضيق .

فجأة ظهر مجموعة من الرجال الملثمين وغير الملثمين الذين يحملون لحا ثقيلة كان بينها لحية حمراء وهو أمر غير معروف بالعراق وكانوا يحملون مصابا بطلق نارى فى بطنه .. وبسرعة أخفى هوية المنطقة الخضراء التى تمنح للصحفيين / سيبيك/ وأخفى هوية المؤسسة الصحفية وأظهر أوراق السيارة التى كانت تعود لرجل سنى من أهل الغزالية .. سأله أحدهم عن إسمه فقال: منتصر أحمد حسن بكر رغم أن إسمه « منتصر جواد كاظم» وهو إسم يدل على هوية شيعية وقال لهم : أنه من أقارب دار بكر فرحب أحدهم به بصوت عال وقال أهلا بأهل عانة وهى بلدة سنية تتبع محافظة الأنبار .. عندها تأكد منتصر أنهم من المتشددين السنة فغير لهجته فورا من اللهجة البغدادية إلى لهجة المنطقة الغربية وقال « هلا بابن عمى» وهو التحية لديهم فقال: حياك الله .. وأجاب منتصر « بالمحيى » .

طلبوا منه أن يصطحب المصاب فى سيارته وصعد معه بالسيارة أحد المسلحين الذى يحمل سلاحا أمريكيا وقاذفة باعتباره سنيا .. وعندما تحرك سأله المسلح

هل تصلى ؟ .. قال : نعم .. قال له : وما هى تلك الطجعة « وهى علامة الصلاة التي تظهر بوضوح فى جبهة الشيعة نظرا لاستعمالهم قطعة الحجر التى تسمى تربة للصلاة عليها « .. طلب المصاب أن يخبئوه فى أحد الدور التابعة لهم . واستجاب منتصر لأن المنطقة يحاصرها الأمريكان .. وعند محاولتهم مساعدة المصاب حتى ينزل من السيارة نطقت شفتا منتصر بكلمة سريعة بها لهجة أهل الجنوب .. فجأة رفع المسلح سلاحه فى وجهه وقال له: أنت رافضى [1] .. فأقسم له أنه سنى .. أنقذه صياح المصاب من الألم طلبا للراحة ومحاولة إخراج الرصاصة .. وتركه المسلح يمضى بسيارته .. وعند خروجه من المكان التقاه أحد الملثمين الذين كانوا بالمسجد وقال له : أين وصلتم قال له: « وصلته للمقصود » والكارثة أن تلك الكلمة كان يستعملها منتسبو الجهات الأمنية للدلالة على الأماكن المقصودة لديهم مسبقا ويعنى الهدف المطلوب وهو ما جعل الملثم يستشيط غضبا وذعرا من منتصر ظنا منه أنه عنصر أمنى ووجه سلاحه اليه .. واسرع منتصر بالقول : « والله لأقول لأبو بكر عليك» وهو أسلوب تحذيرى يقوله أهل المناطق الغربية السنية .. توجه منتصر مسرعا إلى طريق الخروج حيث كانت قوات أمنية تحاصر المكان مع القوات الأمريكية فأطلقوا زخات رصاص تحذيرية ليتوقف وعندما توقف هجموا عليه وهشموا زجاج سيارته دون أن يتبينوا من هو فلا مجال فى مثل هذه الظروف للتحقق ومجرد الشك يتطلب القتل فورا .. تحدث معه جندى أمريكى بلهجة عصبية وهو يطرحه أرضا مع سيل من الشتائم باللغة الإنجليزية وتساؤل عصبى « ماذا تفعل هنا؟.. سحبه الجندى إلى جانب الطريق سحلا بعد ربط يديه..وطلب منه هوياته وطلب مترجما عبر جهاز اللاسلكى مبلغا من بالجانب الآخر أنه اعتقل أحد الإرهابيين المسئولين عن الهجوم .. عندها قال منتصر : « لا تحتاج إلى مترجم فأنا أتحدث اللغة الإنجليزية أنا مواطن أمريكي .. قالها للخلاص بعد أن اشتدت ثورة الجندي الأمريكي الذى سأله هل تمتلك هوية أمريكية .. قال له منتصر : إن كل ما يثبت هويتى مخبأ بأحد مقاعد السيارة .. وعندما بحثوا بالسيارة لم يجدوا إلا الأوراق التى جهزها ليريها للمسلحين وهى تثبت أنه سنى من أهل الغزالية .. زدات الأزمة وتلقى ضربات من الجندى الأمريكي يشاركه جندى عراقى حاقد ومترجم استاء من إجادته للغة الانجليزيه

(1) يطلق السنة لقب الرافضة على الشيعة . ويطلق الشيعة لقب النواصب على السنة باعتبارهم نياصبون أهل البيت القرار وفقًا لمعتقدات شيعية خاطئة

.. أنقذته ضابطة أمريكية تواجدت مع المجموعة تدعى « سنو ويمن »تعاطفت معه بد أن سالت الدماء من وجهه ورأسه وطلبت منه أن يقص حكايته وما الظروف التى جعلته يتواجد فى مكان الهجوم على الرتل الأمريكى .. أبلغها منتصر بمكان الهويات الرسمية التى تشمل هوية «الدخول للمنطقة الخضراء » .. وأبلغها أنه اضطر للكذب بأنه مواطن أمريكي حتى ينقذ نفسه فقط وليخفف الضغط والضرب وثورة الجندي الأمريكي المرعوب الغاضب .. سلمه الأمريكان للقوات العراقية الذين صادروا هاتفه المحمول وكروت الشحن التي بحوزته وما لديه من نقود واستفسروا عن الدماء التي بالسيارة فأبلغهم بالقصة ومكان تواجد المسلحين حيث عرضوا عليه شاشة داخل السيارة العسكرية « هامفى» التى ترسم خريطة كاملة للمنطقة وبها بعض الإشارات لأسماء بيوت عراقيين .. وبعد أن تأكدوا أنه شيعى ولا علاقة له بالمسلحين الذين كانوا ينتمون للقاعدة أوصلوه إلى منطقة الشعلة ومنها تمكن من الوصول إلى منطقة سكنه فى الكاظمية .. عندها أقسم منتصر أن هذه المنطقة لن يصلها مادام على قيد الحياة بعد أن رأى الموت بعينيه على أيدى المسلحين والأمريكيين والعراقيين .

١٨ - فتنة الحرية

يبدو أن تلك المنطقة لم تأخذ من إسمها أى نوع من الحريات سوى حرية القتل وإشاعة الفتنة بعد أن غدت إحدى رموز الدم فى زمن المذبحة .. منطقة الحرية وتنقسم إلى الحرية الأولى والثانية والثالثة والدولعي وتقع شمال غرب العاصمة بغداد تحدها منطقة الكاظمية الشيعية / نسبة إلى الإمام موسى الكاظم وهو الإمام السابع لدى الشيعة الجعفرية / وجنوبا الشعلة أحد مراكز نفوذ جيش المهدى الجناح العسكرى للتيار الصدرى .. وكانت الدولعى ولا زالت معقلا للميليشيات الشيعية وخاصة جيش المهدى ويحظى فيها بنفوذ واسع ربما يفوق نفوذه فى مدينة الصدر معقله الرئيسي نفسها .

ويحكى أبو عبد الله من سكنة الدولعى «محلة ٤٣٤ »التى كانت مواجهة للمعقل الرئيسى لجيش المهدى الذى استحل منطقة يقع فيها أحد مقرات الإدارة الرئيسية للحرس الجمهورى أيام صدام حسين حيث أقام قواعده التى ساعدت على بدء الفتنة مبكرا منذ نهاية العام ٢٠٠٥ وبداية العام ٢٠٠٦ .

وكانت بعض عناصر من المقاومة السنية المسلحة / كانت توجد فعلا فصائل متاومة هدفها ضرب قوات الاحتلال الأمريكى فقط باعتباره محتل يجب جهاده

قبل أن يتم تشويه صورة المقاومة لاحقا باعتبارها أعمالا إرهابية / وكان هؤلاء ينتمون إلى عشائر الدليم والجبور وزوبع ويمارسون نشاطهم في ضرب القوات المحتلة على الطريق السريع الرابط بين تلك المنطقة ومنطقة «جكوك» .. وكان قائد جيش المهدى فى تلك المنطقة ويدعى «أبو نوفل» قد سلم أسماء عناصر المقاومة بالكامل للواء البركان التابع للحرس الوطنى الحكومى فى وقت كانت تلك القوات الحكومية عبارة عن ميليشيات تعمل بغطاء رسمى وهو ما أدى إلى اعتقال ٢٣ شخصا من الدليم و٣ أشخاص من الجبور وتم تعذيبهم وذبحهم ثم تذويب أجسادهم فى حامض «التيذاب» وكان هذا الأمر سببا مباشرا فى تصاعد المقاومة ضد الامريكيين توازيا مع تهديد الشيعة فى منطقة الدولعى بالقتل باعتبارهم مسئولين عن هذا الأمر وفقا لما استقرت عليه قيادات المقاومة فى ذلك الوقت .

وكانت أول عملية كرد اعتبار ضد قائد جيش المهدى «ابو نوفل» باعتباره المسئول الاول عن دم الشهداء هو قتله فى منزله خلال عملية نوعية أسفرت أيضا عن مقتل زوجته وأحد حراسه واعتقال اثنين اخرين من الحراس .. وبعدها انتفض جيش المهدى ليرد على قتل قائده وقام بالانتشار فى الدولعى وهدد أهل السنة بالقتل والذبح .

وكان أول ضحية فتى سنى يدعى فراس الجميلى وتم سحله فى الشارع وقطع رأسه وتعليقها على باب منزل «أبو نوفل» لمدة يومين ايذانا ببدء عمليات الانتقام التى قالوا : إنها لن تنتهى إلا بقتل ١٠٠ سنى .. وتوالت دوامة القتل فى المنطقة لتطال الجميع فى حلقة من مسلسل الصراع الذي أخذ الصبغة الطائفية التى التقت مع أجندات القوى التي أرادت للعراق أن يصبح نموذجا فريدا فى العنف الطائفى يكون المواطن العادى هو الضحية وليس من يحمل السلاح فى عمليات قتل بالوكالة دون النظر إلى ذنب أو جريرة ارتكبها الضحية .. وأصبح القتل منهجا يوميا وواجبا مفروضا على قاتل لا يعرف لماذا يقتل ومقتول لا يعرف ما سبب ذبحه وكان يسقط يوميا ما بين ٣ إلى أربعة من الشيعة يقابلهم نفس العدد الجانب من الآخر فى دوامة قتل عبثى لم تقف الجهات التي كان يفترض بها أن تقف لتمنعها وإنما تم تغذية تلك الرغبة المتوحشة فى القتل والقتل والمضاد .. حتى إن «لواء البركان» المسئوول عن حفظ الأمن فى تلك المنطقة تدخل بشكل اشعل فتيل الأزمة ورفع من درجة الاحتقان عندما قامت عناصره بقتل سبعة من عائلة سرهيد المنتمية إلى عشيرة البطة بالتواطؤ مع جيش المهدى الذى كان مدعوما

بشكل رسمى غير معلن من الحكومة التى كان يقودها رئيس الوزراء الأسبق الدكتور إبراهيم الجعفرى والتي تشير إليها الكثير من أصابع الاتهام بالمسئولية عن عمليات القتل الطائفى التى هزت المجتمع العراقى وضربت ثوابته فى مقتل وأرست أساسا قام عليه زمن المذبحة .

وبعد ارتفاع وتيرة العنف واحتراق الأخضر واليابس وسريان قانون فرق الموت بدأت عمليات النزوح الجماعى خاصة بعد تنفيذ عمليات القتل مع صلاة الفجر لاهل السنة وبدأت المساجد تخلو من مصليها وانتقل اهل السنة إلى حى العدل ومنطقة الغزالية بعد أن اشتدت عمليات التصفية الجسدية المصحوبة بتعذيب وصارت شبه منظمة ووصلت إلى أوجها بعد تفجير المرقدين الشيعيين / مرقد الإمام على الهادى والحسن العسكرى وهما الإمامين ١٠ و١١ لدى الشيعة الجعفرية/ فى بلدة سامراء السنية يوم ٢٢ فبراير عام ٢٠٠٦ وكانت القشة التى قسمت ظهر البعير وأخرجت ما تبقى من عفاريت كانت حبيسة القمقم حتى خلت الشوارع تماما من الناس وقت الظهر وأصبح الخروج يعنى الرغبة فى الانتحار مهما كانت الأسباب .

وانحصر أهل السنة فى منطقة جامع الدباش بالحرية الثالثة اعتبارا من ٢٠٠٧ بعد أن قامت القوات الأمريكية بمساندة من الحرس الوطنى الحكومى بجمع العائلات السنية وابلاغهم بانه لا يمكن حمايتهم وأن الأمر يتطلب النزوح من تلك المنطقة إلى ملاذ آمن وجرى تهجير ما يقارب من ٣٠٠ عائلة هى من تبقى من أهل السنة بالمنطقة .

ومن حكايات القتل شديدة الألم كما يروى أبو عبد الله هى حكاية قتل خادم جامع دعاة الاسلام أبو عمر فى منطقة الدولعى وهو مشهدانى / سادة أهل السنة/ وكان يعمل فى سوق خضار الشعلة / العلوة/ وترصد له عناصر جيش المهدى مدعومين بلواء البركان التابع للحرس الوطنى الذين اعتقلوه بتهمة الإرهاب وهى التهمة الشائعة فى ذلك الوقت وما تلاه وتم تسليمه إلى جيش المهدى فى منطقة الشعلة رغم أن عمره ٧٠ عاما وقاموا بحرقه بحامض «التيذاب» بالكامل فى سوق الخضار حيث يعمل وحرق لحيته ووجهه بالنار ولم يتبق منه غير الجمجمة فى مشهد همجى أمام الناس الذين كانوا قد اعتادوا على رؤية تلك المشاهد دون القدرة على طلب الرحمة لمن جاء قدره المحتوم ليموت بتلك الطريقة البربرية .

وتحت وطأة عمليات القتل الوحشي التي استمرت بلا رادع من دين أو ضمير أو قوة مسئوولة عن توفير الأمن للبلاد والعباد يروى أبو عبد الله/ كان أبوه ضابطا بالجيش العراقي السابق وكان من المصلين فى جامع دعاة الإسلام / أنه تم وضع ورقة مكتوب عليها / إلى أتباع أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية الزنديق إلى اتباع هند بنت عتبه إلى

أتباع خدم صدام حسين .. ننذركم ثلاثة أيام للرحيل و إلا سوف يتم قطع رؤوسكم بالكامل وحرق داركم / مع توقيع جيش الإمام .. كتيبة الزهراء .. ومعها ٣ طلقات من مدفع بى كى سى .. وهو السيناريو الذى كان يتكرر كثيرا وجرت مبادلة بين عائلة أبي عبد الله وعائلة أخرى شيعية تسكن منطقة حى الجامعة تم إرغامها على الرحيل أيضا من قبل القاعدة فى مشهد مشابه تماما لما يجرى فى أحياء الشيعة .. قتل .. تعذيب.. اختطاف .. تهجير .. هكذا كانت تسير الأمور وفق أجندة وضع خطوطها ونفذها متهمون وساعدهم فى فرضها متهمون آخرون .. والضحية واحدة .. العراقيون .

ويروى أبو عبد الله أنه فى شهر نوفمبر عام ٢٠٠٨ بعد أن ساد هدوء نسبي فرضته خطط أمنية ورغبة من خطط ونفذ وساعد على أن تهدأ الأمور عادت عائلته إلى محل سكنها القديم استجابة لدعوات حكومة المالكي التي أكدت أن خططها لفرض القانون بسطت الأمن وأعادت الأمور إلى نصابها .. الا أنه وبعد مرور شهر تم كتابة شعار على الدار بالخط العريض الأحمر / إلى الوهابية السفلة .. ارحلوا .. ارحلوا.. ارحلوا / وتم إخبار الحرس الوطنى وكانت الأمور قد تبدلت قليلا وبدأ الوعى الشعبى مع ما تدعو إليه الحكومة من مقاومة للعنف ينجحان فى وضع بذور الاستقرار النسبى لإنهاء أيام الفتن والملمة عوامل المذبحة وتم طمأنة العائلة والتأكيد على استمرارها فى البيت .

إلا أنه وبعد مرور أسبوع وفى تمام الساعة التاسعة ليلا فى أول أيام شهر ديسمبر حضرت سيارة اوبل حمراء اللون أمام باب الدار خرج منها اثنان من الملثمين وحاولوا دخول البيت لكن الباب الحديدى كان عائقا أمامهم ، ومن خلف الباب اطلقوا زخات من الرصاص على البيت فى وقت كانت تجلس الأم وابنها وابنتها وأصيب الابن فى قدمه ، وعندما سمع رب الأسرة اطلاق الرصاص أخرج رشاشه وناوشهم من فوق سطح المنزل لمدة نصف ساعة حتى لاذ المسلحون بالفرار بعد تدخل الحرس الوطنى متأخرا بصحبة القوات الأمريكية.

ومع إصرار الأمريكان والعراقيين على استمرار الأسرة فى مسكنها إلا أنها آثرت الرحيل عن بيتها مرة أخرى تحت ضغط القلق والرغبة فى العيش بسلام وتم بيع البيت بثمن بخس وشراء منزل آخر فى منطقة سنية وهى الغزالية وهو ما يفسر شيوع تقسيم المناطق على أسس طائفية حتى بعد الاستقرار النسبى الذي استمر لفترة طويلة منذ نهاية العام ٢٠٠٨ ولم يعكر صفوه سوى رغبة بعض الجهات فى استمرار عوامل التوتر التي حد منها وعى العراقيين ورغبتهم فى إنهاء أيام المذبحة

التي لا تنهيها النوايا الحسنة فقط .

ويقول أبو عبد الله : إن سبب استمرار الطائفية فى منطقة الحرية هو استمرار سيطرة جيش المهدى على المنطقة رغم تجميده ووجود بعض الدعم غير المعلن له من جهات نافذة تتيح له حرية الحركة والعمل عند اللزوم وهو نفس ما تعانيه مناطق أخرى تنتظر بفارغ الصبر أن ينتهى أمر التجميد الذي لاح فى الأفق بعد سلسلة تفجيرات طالت حسينيات شيعية فى مناطق الصدر والحرية ضمن موجة العنف التي ترافقت مع التوتر السياسي الذي أعقب الانتخابات النيابية فى مارس ٢٠١٠ .

١٩ - شوارع الموت

ربما كانت منطقة الوشاش المواجهة لحى الإسكان غربي العاصمة بغداد نموذجا فى استغلال عنوان جيش المهدى العريض الذى يقول قادته أنه عنوان شريف لجيش عقائدى له أهداف نبيلة بعيدة تماما عن العنف الطائفي وأعمال الإجرام التى تتنوع بين الابتزاز والسرقة والاختطاف والقتل والاغتصاب وهتك الأعراض وفرض الاتاوات وهى اتهامات لاصقت اسم جيش المهدى وأصبحت قرينة له طوال أيام المذبحة حتى إن المواطنين شعروا بارتياح شديد وانتفضوا عندما تم تجميد « جيش المهدى» وإعلان قائده مقتدى الصدر البراءة من كل مرتكبى الجرائم باسم جيش المهدى باعتبارهم خارجين عن ناموسه وقيمه التي استنها لهذا الجيش العقائدى منذ تأسيسه بعد دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد فى ٩ ابريل عام ٢٠٠٣ .

كان مسئوول كتيبة الموت أو جيش المهدى فى منطقة الوشاش يدعى احمد ناجى أو حمدى ناجى الملقب «أبو فاطمة» كانت حياته نموذجا للعقوق والفساد الأخلاقي والديني والعائلى وكما كانت جرائمه محل حكايات وحوارات أهل المنطقة التى اشاع فيها الرعب كان مقتله محل تفسيرات متعددة هل قتلته جرائمه النكراء أو قتله شذوذه الجنسي أو قتلته ثقته الزائدة فى قدرات لم تكن حقيقية ، أو مستندة إلى قوة وإنما مستندة إلى ضعف الناس بفعل الخوف الذي يرتد إلى جبن ورغبة فى عدم ملامسة الشبهات واجتناب الشر وإيثار السلامة .. وتقول الروايات المتعددة إنه تم قتله بسبب الثأر من قبل إحدى العشائر القوية .. فيما تذكر رواية أخرى أن جيش عمر قتله فى إطار التصفيات بين الجماعات المسلحة .. فيما تقول رواية ثالثة : إن شاذا مثله قتله بعد أن استثاره جنسيا .. إلا أن الرواية الأكيدة هي رواية الفرحة العارمة التي سادت المنطقة بعد سريان نبأ

مقتله وتفكك عصابته الإجرامية .

وضمن ما يروى عن شذوذ هذا المجرم ورغبته فى القتل لمجرد القتل هى عملية اختطاف وتصفية شاب بسيط يدعى كريم عبد محمود ويعمل موظفا فى بلدية المنصور /زبال/ وكان شريدا طريدا لا أهل له حيث كان أبوه متزوجا من سيدة أخرى غير أمه وإرضاء لتلك الزوجة التى لا تريده ينام فى الشارع ويعيش على الصدقات أى أنه شخص يعيش على هامش الحياة لا علاقة له بسياسة أو اقتصاد أو مال أو جاه ورغم أنه سنى إلا أنه لا ينتمى لأى طائفة لأنه لا ينتمى بالأساس إلى عائلة .. ورغم هذه الحالة المزرية لشخص لا يضر ولا ينفع خطفه جيش المهدى بأمر من « أبي فاطمة» وبعد وجبة من التعذيب والتشفى التى تؤشر إلى مدى شذوذ قاتليه اطلقوا عليه ٣ رصاصات فى الرأس والصدر ثم ألقو جثته على ناحية شطيط قرب البيجية وبعد ثلاثة أيام تسلمه والده قتيلا بعد أن تركه شريدا .

وبين مسلسل القتل العبثى كانت حلقات غير مرتبطة تنتهى دائما بالقتل .. إلا أن القتل هذه المرة كان جماعيا حيث قامت تلك العصابة بقتل شاب يدعى طارق الخالدى مع أشقائه الأربعة لا لشيىء الا لأنه تطوع فى سلك الشرطة العراقية وهو كان سببا وجيها للقتل من وجهة نظر أبو فاطمة بالإضافة إلى أنه ينتمى للطائفة السنية.

ويروى سعد السامرائى وهو عسكرى سابق كان ينتسب إلى القوة الجوية إبان حكم صدام حسين ويعمل حاليا حارسا فى منطقة الوشاش مثل الكثيرين من ضباط وعناصر وطيارى الجيش السابق الذين ارتضوا بالإعمال البسيطة وتنازلوا عن حقهم فى الحياة الكريمة فى محاولة لطمس هويتهم حفاظا على أرواحهم .. يقول سعد : إن ٤ من جيش المهدى اقتحموا أحد المقاهى واعتقلوا سنيا يدعى هيثم وبعد أربعة ساعات وجدت جثته على قارعة الطريق.

فى شارع شطيط القريب على حى الإسكان ذي الأغلبية السنية تواجه الوشاش الشيعية وهو الشارع الذى كان يعرف بشارع الموت حيث تنتهى فيه الحركة عند الساعة الثانية عشر ظهرا لتبدأ حياة فرق الموت ونقاط التفتيش الوهمية التى تمارس القتل على الهوية الطائفية بعد ممارسة أبشع عمليات التعذيب قبل قتل الضحية .

ويقول سعد :إنه بعد سقوط نظام صدام حسين وتسريح الجيش العراقى عمل فى تلك المقهى التى كان يتم اصطياد أهل السنة منها لقتلهم ورغم أنه يسكن مع عائلته

فى الوشاش منذ ٣٥ عاما إلا أنه تلقى تهديدا لترك العمل بالمقهى ولولا تدخل صاحبة المقهى وهى شيعية من أهل العمارة عاصمة محافظة الناصرية جنوبى العراق لكان قد لقى حتفه مثل غيره من السنة إلا أنه يعتبر أن دوره فى القتل لم يكن قد حل .

ويروى سعد عن شقاء سكان منطقة الوشاش الذين كانوا منكوبين فى كل أمورهم وكانوا بين فكى كماشة إما أن يتم قتلهم من قبل عناصر جيش المهدى أو يدفعون إتاوات وإما يتعرضون للموت عندما تحدث مداهمات أمريكية أو عراقية ويرد عناصر جيش المهدى من فوق منازلهم حيث تتلقى بيوت المنطقة القذائف الأمريكية المدمرة

ويروى أحد الشيعة الناجى من موت محقق أنه في يوم الأربعاء المصادف٤/١٠ من عام ٢٠٠٦ كان مع أصدقائه متوجهين إلى سوق الوشاش الشعبي للتسوق عند العصر وقبل أذان المغرب بسيارتهم تمّ إيقافهم من قبل سيارة «بيك اب» بدون أرقام وفيها ستة أشخاص مسلحين وطلبوا الهويات وعند إبراز الهويات إليهم قاموا باعتقال من في السيارة بتهمة أنهم إرهابيون..

وعند سؤالنا لهم من انتم كان جوابهم الضرب بأعقاب المسدسات ثم قيدوا الشباب الثلاثة وأخذوهم إلى بيت سكني في الوشاش في فرع مقابل المستوصف الطبي واخذوا الموبايلات الخاصة بنا وبدأوا بتفتيشها والبحث في محتوياتها وعند دخولنا إلى البيت وجدناه عبارة عن معتقل وفيه حركة كثيفة لرجال مدججين بالسلاح ويرتدون الملابس السوداء..

وفور دخولنا إلى البيت (المعتقل) أدخلونا إلى غرفة مظلمة ودخل علينا شخص يرتدي العمامة وقال أنا مسؤل جيش المهدي في الوشاش بالمناسبة كانوا الجميع مفطرين في هذا الشهر الكريم..!

وكان ينفخ دخان سيجارته علينا وبعد التحقيق معنا.. بينا له أننا نحن شيعة ونعمل في بغداد واننا من مدينة الحلة.. أخذ الموبايلات التي تعود لنا وقام بالاتصال بالهواتف اللي موجودة فيها ويسأل الذين يتصل فيهم فلان سني ولا شيعي وبعد أن تأكد من هوياتنا قاموا بإطلاق سراحنا في منطقة الإسكان بعد ان سرقوا الأموال التي نحملها والموبايلات ومسجل السيارة والإطار الاحتياطي..

وعندما فكوا رباط أعيننا وجدناهم تركونا عند سيطرة / نقطة تفتيش/ الإسكان المجاورة لمستشفى الطفل وكان منتسبوا السيطرة ينظرون إلينا وإلى أصحاب الملابس السوداء دونما تدخل..!

وبعد أن تركونا عبروا السيطرة ولم يسألهم احد ما انتم ولماذا سيارتكم بدون

أرقام ولماذا أنتم مسلحين وكأنهم متفقين معهم.. وعند ركوبنا سيارتنا للعودة جاء أحد منتسبي السيطرة وهو يضحك ويقول لقد انكتب لكم عمر جديد لماذا تركوكم أنهم لايتركون احد بعد اعتقاله ثم تركنا وهو يضحك ....

ويروى لـ صلاح وهو رجل أعمال شاب / سنى/ كان يمتلك منزلا كبيرا فى إحدى شوارع الوشاش الراقية وبه حارس شيعى رفض أن يغادر المنطقة بعد أن تحولت إلى منطقة نفوذ لفرق الموت أملا فى صلاح الأحوال وعودة الأمور إلى نصابها الطبيعى .. وكان قد استورد أجهزة فحص طبى اليكترونية لافتتاح مستشفى فى بغداد ثمنها يفوق أربعة ملايين دولار إلا أن الاضطرار الأمنى جعله يؤجل المشروع ليحتفظ بالأجهزة فى منزله .. ورغم أنه كان ملتزما بدفع الإتاوات لعصابة « أبو فاطمة» مقابل الحماية إلا أن أحداث الفتنة الطائفية قلبت نمط العلاقة بينه وبين تلك العصابة حيث أصبح هو وماله حلالا لها باعتباره سنيا وبعد مفاوضات طلبوا منه الرحيل وترك كل ما له ثمن بالمنزل وعندما اعترض هددوه بالقتل بل وأعدوا لذلك يوما للتنفيذ الفجائى إلا أن الحارس الشيعى النبيل ساعده على الهروب تحت جنح الليل عندما راقب تحركات تلك العصابة التى أبلغته بأن هذا السنى يجب قتله والتخلص منه .

وكان الرد شديد القسوة على ما اعتبرته تلك العصابة خيانة مضاعفة من جانب الحارس الشيعى الذى أنقذ سنيا من القتل علاوة على مخالفة أوامر قادة المنطقة الجدد .. ويروى صلاح تفاصيل تلك الليلة التى نجا فيها من الموت بأعجوبة وخرج من منزله بلا أى شيء سوى حياة مهددة بينما كان نصيب الحارس الطيب الموت حرقا بعد تعليق جثته على أحدى أشجار حديقة المنزل .

وبعد أشهر من أجواء الرعب والقتل التى أشاعها حمودى ناجى قائد جيش المهدى فى منطقة الوشاش المنكوبة كغيرها من مناطق بغداد التى خضعت لفرق الموت وعصابات الجريمة التى استمدت قوتها من غياب سلطة حقيقية للدولة العراقية وشيوع سلطان الخوف لدى الأبرياء من العراقيين الذين كانوا يسعون فقط لتأمين حياة متواضعة جرت وقائع قتل هذا المجرم الذى تعددت الروايات حول طبيعة مقتله أو الجهة التى تقف وراء تصفيته نظرا لانتشار أعدائه فى كل مكان والجميع يطلب الثأر لمختلف الأسباب إلا أن الرواية الأكثر شيوعا وتقترب من المصداقية أكدها لـ أحد شيوخ المنطقة .. وتقول الرواية أن مختار عشيرة العكيدات السنية أراد الانتقام لمقتل ابنه جمال فى سوق مفتن الرئيسى للوشاش على أيدى « أبو فاطمة» حيث لم يتقبل العزاء وطلب الثار وكان ذلك فى نهاية

عام ٢٠٠٦ رغم تدخل وجهاء من عشيرة السواعد الشيعية للصلح إلا أن نداء الدم كان أقوى وتم قتل « أبو فاطمة» بطريقة لا تختلف كثيرا عن الطريقة التى يصطاد بها ضحاياه حيث جاء دوره فى تذوق كاس الموت القاسى .

وكما جرت العادة فى مثل هذه المواقف شن عناصر جيش المهدى عمليات انتقامية عشوائية وقاموا بقتل عدد من عشيرة العكيدات وغيرها بدعوى الثأر لقائدهم وشهدت المنطقة أعمال عنف مروعة انتهت باشتباكات عنيفة بين جيش المهدى وعناصر الحرس الوطنى ومالت الكفة إلى جهة الهدوء وتم اختيار رشيد العلى الذى هدأت الأمور فى عهد توليه قيادة جيش المهدى بالمنطقة بعد أن تناقص عدد السنة بشكل كبير سواء بالقتل أو التهجير بالإضافة إلى صدور قرار تجميد جيش المهدى كما استغلت القوات العراقية مدعومة أمريكيا اجتماعات لجيش المهدى فى احد مقاهى منطقة شطيط / المقهى الرياضى/ للاتفاق على تنفيذ عدة عمليات خارج حدود الوشاش وهى القتل والاختطاف بعد أن علمت القوات الأمريكية بتلك العملية وتمت مداهمة المقهى واعتقال عدد منهم وهرب الآخرون .. وعادت الأمور تدريجيا إلى طبيعتها مع وجود نار تحت الرماد بسبب مطالب الثأر العشائرى .

٢٠ - دُعبله

كما كان « أبو فاطمة» نموذجا للشذوذ الأخلاقى والنفسى ومؤشرا واضحا على كيفية عمل فرق الموت والميليشيات التى لا علاقة لها بمبدأ أو دين أو طائفة كان «على دعبله» وهو من عشائر اللهيب السنية نموذجا آخر على هوية من ينتمون لتلك العصابات التى تعمل تحت عناوين يشار إليها بالبنان وتتمتع بغطاء سياسى محلى وإقليمى وربما دولى .

و« دعبله» أطلق عليه هذا اللقب نظرا لقصر قامته الملحوظ وعدم وجود سند عائلى له فهو أحد التافهين الباحثين عن موقع ونفوذ حتى ولو بسلطان الخوف والقتل فهو من عائلة بسيطة جدا وانتمى لجيش المهدى ليمثل نموذجا لهؤلاء البشر الذين احتموا بانتماءاتهم لعصابات القتل القذر طمعا فى حماية ومال ونفوذ وكانت توكل إليه عمليات القتل الأعمى لطائفته السنية وينفذها بشكل أشد عنفا من عناصر جيش المهدى من الشيعة حتى يثبت الولاء الأعمى لتلك العصابات دون وازع من دين أو ضمير وصار هذا «الدعبله» أو « بليه» بلهجتنا المصرية مثار رعب وقلق لأهل منطقة الوشاش استنادا إلى سلطان القهر والخوف الذى فرضته عصابات زمن المذبحة حتى اختفى ولا يعلم أحد هل قتل أم هرب أم

تم اعتقاله مثل كثيرين غيره طالتهم عدالة السماء .

٢١ - محرقة

ضمن وقائع أيام المذبحة يروى لي صديقي الصحفي عامر حميد ما جرى له في الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٢٠٠٦ .

«كنت شبه مجبر على التوجه إلى منزلي في ناحية الضلوعية/٩٠ كم شمال بغداد/ ، وذلك لكي التقي أطفالي وأفراد عائلتي بعد أن مكثت لأكثر من شهر في بغداد حيث مقر عملي، وسبق هذا القرار ليل طويل من التفكير والقلق بسبب الظروف الأمنية السيئة التي تحكم طريق السفر والذي يمكن أن يكون طريق اللا عودة، حيث تنتشر المليشيات والمجاميع المسلحة بمختلف مسمياتها عليه، في ظل غياب شبه كامل للأجهزة الأمنية وارتفاع كبير في حمى العنف الطائفي».

«وبعد ساعات طويلة من التفكير قررت الذهاب إلى منزلي رغم كل المخاطر، ومع إشراقة شمس اليوم التالي توجهت إلى محطة نقل الركاب الرئيسية « العلاوي »، لا ستقل من هناك أي باص يتوجه إلى تكريت أو سامراء لأنه لم تكن في ذلك الوقت سيارات تتوجه إلى الضلوعية مباشرة من بغداد، دخلت الكراج[1] وبدأت البحث عن الباص إلى أن وجدت رجلا في متوسط العمر يقف إلى جانب باص صغير، فسألته إذا كانت هناك أي سيارة تتوجه إلى سامراء أو تكريت، فاجابني بصوت منخفض هذه السيارة التي تسال عنها، نحن متوجهون إلى تكريت، فصعدت إلى الباص وكانت الساعة حوالي الثامنة صباحا، وبعد قليل انطلقت بنا الباص في شوارع شبه خالية من البشر وتكاد تشم رائحة الموت في كل مكان منها ».

وبعد سلسلة من التوقفات بسبب دوريات القوات الأمريكية التي تقطع الطريق في لحظة لأغراضها الخاصة، وصلنا إلى منطقة الدجيل التي تبعد عن الضلوعية قرابة/٢٠ كم/، وهنا سالني السائق، إلى أين تصل بالتحديد، فأجبته إلى الضلوعية، فكان وقع اجابتي عليه كالصاعقة، فالتفت إليّ وقال هل أنت مجنون، أجبته كلا ولكني لم أرى اطفالي وعائلتي منذ اكثر من شهر، فرد علي قائلا وربما لن تراهم إلى الأبد، وأوقف السيارة، وهو يردد على بعد اقل من/ ١٠ كم/ من هنا حيث مدينة بلد « ذات الغالبية الشيعية» ، تقف مليشيات شيعية مسلحة على الطريق تختطف وتقتل كل من تجده من أهالي الضلوعية « ذات الغالبية السنية»

(1) الكراج : تعني محطة نقل الركاب .

، وربما انك لم تسمع عن حادث مقتل ١٤ من أهالي بلد قبل أيام قليلة في منطقتكم، فأجبته بل اعلم ذلك علم اليقين ولكن لم يعد لي من الصبر ما يمكني من البقاء بعيدا عن عائلتي، فقال لي أنا اقترح عليك أن تعود إدراجك إلى بغداد، فأنا شخصيا لن اشترك بجريمة قتلك، لأنهم إذا وجودك في سيارتي سيقتلونك بدون شك،.

حاولت إقناعه بكل الطرق ولكن من دون جدوى، وأمام إصراره على عودتي قلت له حسنا هناك طريق قريب من هنا يوصل إلى الضلوعية انزلني واذهب أنت راشدا في طريقك، فوافق على المقترح وتحرك الباص لمسافة قصيرة حيث انزلني على الطريق الذي طلبته، وفور نزولي من السيارة حاولت الابتعاد عن الطريق العام لمسافة تؤمن عدم رؤيتي من قبل سالكي الطريق وان كانوا قلة لا تكاد تذكر.

وبعد مرور نحو نصف ساعة على وقوفي على جانب الطريق الفرعي المؤدي إلى قاعدة البكر الجوية حيث تنتشر مناطق «البوحشمة ويثرب « ذات الغالبية السنية، مرت أول سيارة وكان سائقها رجل كبير في السن سألني إلى أين تصل، ولكن الإجابة كانت محرجة بالنسبة لي لأني لا اعرف عن الرجل أي شيء والمنطقة بكاملها تعيش أعتى أيام الحرب الطائفية، فبادرته بالسؤال والى أين تصل أنت يا حاج، قال أن منزلي قريب من هنا ولم يبقى وقت طويل على موعد الإفطار، فتفضل معي، شكرته على دعوته وبقيت متوقفا لتمر نصف ساعة أخرى وتأتي سيارة يستقلها شابان أحدهما ملثم والآخر بدون لثام، نظرا إلي ومرا وبعد أن وصلا إلى مسافة ليست بالبعيدة عادا إدراجهما نحوي، فكان السؤال، إلى أين تصل؟ هل نستطيع مساعدتك، ومن طريقة كلامهم عرفت أنهم من أهالي يثرب، فقلت لهم، كل ما أريده هو الوصول إلى منطقة يثرب إذا كنتما تصلان إلى هناك، وهنا بدأت الأسئلة تتقاطر علي، لماذا تريد الذهاب إلى هناك، ومن تعرف في يثرب، أنت ليس من أهالي يثرب فلماذا تريد أن تذهب إليها، وبعد طول انتظار قررا اصطحابي معهما، صعدت إلى السيارة، وما أن انطلقت حتى بادرني احدهم بالقول ربما تريد الذهاب إلى القاعدة الجوية، وأنت خائف منا ولا تثق بنا ولكن إذا كنت تريد الذهاب إلى هناك سنوصلك، وطبعا قاعدة البكر الجوية كانت في ذلك الوقت ومازالت أهم القواعد التي يستخدمها الجيش الأمريكي، أجبتهم بكل تأكيد أن ما أريده هو الوصول إلى يثرب، وعاد السؤال ماذا لديك في يثرب، فأجبتهم بصراحة أريد أن أصل من خلالها إلى منزلي في ناحية الضلوعية، وهل أنت من أهالي الضلوعية، أجبتهم، نعم، هل لديك ما يثبت ذلك، هوية الأحوال المدنية

مثلا، أخرجتها من جيبي وقدمتها لهما واطلعا عليها، فقال لي أحدهما: ربما تكون الهوية مزورة، لكي نتأكد سنسألك عن عدد من الأشخاص إذا عرفتهم فأنت من أهالي الضلوعية، وذكروا عدداً من الأسماء فأجبتهم عنها، قال أحدهما: حسنا الآن تأكدنا من صدق كلامك ولكن مازالت هناك مسألة نريد أن نعرفها، قلت تفضل، فسألني هل تعمل في الجيش أو الشرطة أو الدوائر المرتبطة بالحكومة، فأجبته كلا، فسألني لماذا أنت في بغداد في هذه الظروف الحرجة وماذا تعمل هناك، أجبته بان منزلي في بغداد، وأني كنت اعمل في وزارة الإعلام في النظام السابق وبعد حلها من قبل الأمريكان بقيت بلا عمل، ولكن علي البقاء في منزلي حتى لا يستولي عليه أفراد الميليشيات، فأجابني حسنا تفعل، فالمرء يقتل عن ماله وأرضه وعرضه.

وواصل حديثه معي قائلا، نحن بصراحة نعمل مع «الجيش الإسلامي» وسنوصلك إن شاء الله إلى منزلك، ولكن أنت تعرف الظروف الصعبة التي تعيشها المنطقة، سنسلك طريقا جانبيا تنتشر فيه الجماعات المسلحة ومن بينها القاعدة، وهم طبعا لا يتقبلون أبدا العمل في الأجهزة الحكومية فإذا كان لديك ارتباط بأي منها أخبرنا لكي نعرف كيف نحميك، وكررت عليهم الإجابة بأني لا اعمل في أي منها، ودخلنا الطريق الذي كان بجانب ساقية زراعية يغطيها القصب والبردي، فقلت في نفسي: ربما تكون هذه بداية النهاية، وأنهما ما زلا يشكان بأمري وربما ستنتهي الأمور بقتلي، والأفكار تتقاذفني، وأنا أجلس بينهما، ولم يعد يفصلنا عن موعد الإفطار إلا نحو ساعة، سألني أحدهما، هل تريد ماء أو طعام، لأنك تبدو متعبا، أجبته، كلا، أنا صائم والحمد لله، قال لي حسنا، أترى ذلك الحاجز الذي يقف فيه الرجال المسلحون، أجبته نعم، قال لي: أنهم جماعة تنظيم القاعدة، ولكن لا عليك نحن سنتدبر الأمر وما عليك إلا أن تبقى صامتا، وصلنا الحاجز وتبادلوا السلام والتحية مع الأشخاص الموجودين فيه، فكان السؤال الأول، من هذا الشخص الذي معكم، ولماذا يلبس هذه الملابس وهل تثقون به، أجابهم الشخص الذي يقود السيارة: نعم، نحن نعرفه، فسمحوا لنا بالمرور، واستمر بنا الحال هكذا في كل حاجز نصل إليه، إلى أن وصلنا الطريق الرئيسي الذي يربط قاعدة البكر الجوية بمنطقة يثرب والذي كان تحت سيطرة المسلحين بشكل كامل، وهنا اخبروني بأنهم سيكلفون شخصاً آخر بإيصالي إلى الجسر الذي يوصلني إلى الضلوعية، بسبب انشغالهم، رجوتهم وحاولت جاهدا أن أقنعهم بإيصالي ولكن دون فائدة، وطلبوا من أحد المسلحين أن يأخذني إلى حيث أريد، وكان شابا كث

اللحية ويحمل بندقية من نوع (بي كي سي) ويتشح بالعتاد، ويتطاير الشرر من عينيه، ولكن ما باليد حيلة، نزلت من سيارتهم وصعدت مع المسلح الآخر الذي طلب أن يرافقه أحدهم وكان لايقل عنه من ناحية التسليح أو الشكل.

جلست في المقعد الخلفي في سيارة البطة [1] التي عرفت عند العراقيين بأن من يصعد فيها نادرا ما يعود إلى أهله، وساورتني الشكوك في نواياهم، إلا أن ما طمأنني هو أن أحد الشخصين اللذين جئت معهما طلب من المسلحين أن يوصلاني إلى جسر الضلوعية ويعودان على الفور، دون أن يسألاني عن شيء، وما هي إلا دقائق حتى بدأ الجسر يتراءى لي تنعكس عليه أشعة شمس الغروب التي كانت تودع أطول يوم في حياتي، نزلت على طرف الجسر الذي أغلقته القوات الأمريكية بالكتل الكونكريتية الأسمنتية حتى لا تمر عليه السيارات وأنا لا أصدق أني ما زالت حيا توقفت لأغترف الماء وأغسل وجهي، فإذا بثلاث جثث لشباب في مقتبل العمر تتقاذفها الأمواج على حافة الجسر، كدت أن أنهار، ولكن لم أعرف من أين جاءتني كل تلك القدرة على تحمل الموقف وتجاوزه لأواصل طريقي سيرا على الأقدام إلى أن عبرت إلى الضفة الأخرى .

رفع أذان المغرب في مسجد قريب، فشاهدني أحد أصدقائي كان يتوجه بسيارته إلى المسجد، فلم يصدق أني وصلت سالما، فطلبت منه أن يوصلني إلى منزلي، وما أن وصلت ودخلت إلى باحة الدار وشاهدني الأطفال حتى ضج المنزل واختلطت كلمات التهنئة بالوصول مع دموع الفرح، وأكثر ما شدني في هذا المنظر هو وقوف أمي صامتة لا تقوى على الحراك أو الكلام، وكأنها لا تصدق أني أقف أمامها، بسبب ما تسمعه عن الأوضاع الأمنية في بغداد، وهنا انتهت رحلة الوصول إلى المنزل لتبدأ بعد خمسة أيام رحلة العودة إلى بغداد التي لم تقل خطورة عن سابقتها، وأبرز ما فيها أن توجهت إلى مدينة تكريت التي تبعد حوالي/ ٨٠ كم/ إلى الشمال من الضلوعية وهي نفس المسافة التي كنت سأقطعها لو أني أستطيع التوجه مباشرة إلى بغداد، وصلت تكريت حوالي الساعة التاسعة صباحا، وجدت باص صغير تجلس فيه ثلاث نساء وجلست في المقعد المجاور للسائق بانتظار أن يكتمل عدد الركاب وفي هذه الأثناء وصل ثلاثة شبان تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٠ عاما، بدت عليهم علامات القلق حاولوا الحصول على سيارة تاكسي توصلهم إلى

(1) هي إحدى موديلات سيارات تويوتا تتميز بحقيبة واسعة وعريضة كانت تستخدمها فرق الموت وخاصة تنظيم القاعدة وجيش المهدي لسرعتها وسعة حقيبتها التي تتسع لشخصين مخطوفين .

بغداد، ولكن دون جدوى، فقرروا أخيرا الصعود معنا في الباص لينطلق بنا إلى بغداد، بعد أن وعدنا السائق بان يوصلنا إلى محطة العلاوي وسط بغداد ، وما أن وصلنا إلى منطقة الطارمية(٢٥ كم) شمال بغداد، حتى تبدلت أحوال السائق، واخبرنا بأنه لن يتمكن من إيصالنا إلى العلاوي، وسيجد لنا سيارة أخرى توصلنا إلى هناك، على أساس انه تلقى مكالمة من احد أصدقائه يطلب منه عدم الدخول إلى بغداد، لأنه مطلوب من قبل المليشيات المسلحة وسيقتل حال وصوله، تعاطفنا معه وقبلنا بمقترحه مرغمين لا راغبين، أوصلنا إلى منطقة التاجي وتوقف أمام مطعم (خيرات الرحمن) وهو مطعم مشهور في هذه المنطقة وطلب منا البقاء في السيارة وعدم التحدث إلى احد من الناس الموجودين في المكان إلى أن يعود إلينا، وما أن ابتعد عن الباص حتى وصلت سيارتان من نوع (بطة) سيئة الصيت،/ وهي سيارات ميكروباص لنقل الركاب وهي موديل عريض من تلك السيارات وتبدو مربعة الشكل لهذا يطلق عليها العراقيون كلمة بطه/ وترجل منها عدد من المسلحين يتقدمهم شاب ملتحي في مقتبل العمر، وما أن وصلوا الباص حتى اخرجوا مسدسات من جيوبهم، فتحوا الباب وطلبوا من الشبان الثلاثة النزول، ولم يتأخروا في تنفيذ الأمر، وبعد أن نزلوا أجلسوهم قرب السيارة، وبدأوا يطرحون عليهم الأسئلة، مثل من أين انتم وأين تعملون، في الجيش أم في الشرطة، ارتبك الشبان الثلاثة ولم يجيبوا على أي من الأسئلة، وهنا أمر الشيخ أو الأمير مسلحيه بأن يأخذوهم في احد السيارات، ثم استدار إليّ وسألني وأنت ما حكايتك أراك تجلس في مكانك دون كلمة أو حراك، فأجبته، وما عساي أقول، فلم يسأني أحد عن شئ بعد، فقال لي حسنًا، أنا أسألك الآن، من أين أنت والى أين تريد، أجبته أنا من الضلوعية، وأريد الذهاب إلى بغداد، فكان السؤال التالي وماذا تفعل في بغداد، أجبته منزلي هناك وأنا أذهب أليه، فرد علي قائلا لا تبدو إجابتك مقنعة، هل تعمل في وزارة الداخلية أو الدفاع اجبني بصدق ولا تكذب لأني سأعرف الحقيقة وعندها لن أرحمك، فأجبته لم أخبرك إلا الحقيقة والأمر متروك لك، وبالنسبة لي فأن العمر واحد والرب واحد ولن يحدث لي إلا ما يريده الله وأنا راض به، وما أن انتهيت من كلامي، حتى قال لي ستكون لك فرصة أخيرة، سأتصل بأحد أفرادنا في الضلوعية فإن أكد كلامك خرجت سالمًا وإن ثبت العكس، فلن يعرف أحد لك خبر، واتصل بهاتفه بالشخص الذي أراده للسؤال عني، وعلى ما يبدوا أنه أجابه بالإيجاب وعندها أخبرني بأنه سيتركني أنا والنساء الثلاثة لنواصل طريقنا إلى بغداد، وطلب منا النزول من السيارة التي كنا فيها والصعود إلى سيارة أخرى توصلنا إلى محطة العلاوي.

أما حال النساء اللاتي كن معي في هذه اللحظات العصيبة لا أجد من الكلمات ما يمكن أن يصف حالتهن، فالخوف والهلع سيطر عليهن بشكل كامل وما عدن يدركن ما يقلنه من كلام ولا يستطعن التحكم حتى في أيديهن وأرجلهن من هول ما رأينه، من خطف لثلاثة من الشبان في أعمار أبنائهن أو إخوانهن تحت تهديد السلاح ونهايتهم الحتمية معروفة مسبقا وهي الذبح أو القتل بالرصاص بعد وجبة من التعذيب ثم إلقاء الجثة على قارعة الطريق أو في أحد مقالب القمامة .

وأخيراً وصلنا إلى منطقة العلاوي دون ينبس أي منا بكلمة واحدة.

وبعد أكثر من ٤٠ يوما رجعت إلى منزلي مرة أخرى للقاء عائلتي وأصدقائي، دون أن أخبرهم عما جرى معي من أمور خلال رحلة الذهاب إلى بغداد، إلا أن احدهم بادرني بالسؤال كيف كانت رحلتك فأجبته، إنها كانت جيدة والحمد لله، وواصل حديثه قائلا، احمد ربك اللي ما لزموك(اعتقلوك) جماعة «أبو رحمة» وهو أردني الجنسية يقال انه من أقارب أبو مصعب الزرقاوي كان ينشط مع جماعته على الطريق بين بغداد وتكريت وتحديداً في منطقة «الركة» قرب سامراء، التي تبعد حوالى ١٢٠ كم شمال بغداد في الطريق إلى تكريت مسقط رأس صدام حسين وعرف بإجرامه وقتله للأبرياء دون تمييز.

وأضاف أن أبو رحمة قتل قبل أيام ما بين ٣٠ إلى ٤٠ شخصا معظمهم من طلبة جامعة تكريت، وقام بذبحهم بواسطة المنشار الكهربائي، مشيرا إلى إن من بين الضحايا عدد من طلبة كلية القانون بحجة انهم يدرسون « القانون الوضعي» ولا يدرسون الشريعة، بالإضافة إلى موظفين مدنيين و أفراد من الشرطة، مشددا على أن غالبية الضحايا من السنة.

ويروى أهالى مناطق شمال بغداد عن هذا المجرم « أبو رحمة» الذى يتبعون اسمه دائما بكلمة « الله لا يرحمه» حكايات لا يمكن أن يتصورها عقل حول أساليبه الاجرامية فى القتل العشوائى والتعذيب والاختطاف فهو كما يقولون يجد دائما سببا للقتل سواء كان الضحية سنيا أم شيعيا رجلا أم امراة وأيًا كان عمر الضحية شابا أم عجوزاً .. وسوف يأتى ذكر هذا الأمر تفصيلا فى الجزء الثانى من الكتاب « بساتين الحب والنار» .

٢٢ - خميس العبيدى

رغم شيوع جرائم الاختطاف والقتل وعمليات التعذيب المروعة التى تظهر

آثارها على جثث الضحايا الا أن اختطاف وقتل المحامي (خميس العبيدي)، وهو أحد محامي الدفاع عن الرئيس الراحل صدام حسين،تؤشر إلى إحدى السيناريوهات الغريبة التى كانت تجرى فيها الأمور أيام المذبحة وكيف أن عمليات الاختطاف والقتل تتم بلا أى توجيه أو دافع سوى التطوع والرغبة فى إظهار الولاء لجهة أو ميليشيا أو حزب أو طائفة وتقديم القربان اللازم على ذلك وهو الدم ورأس الضحية أو الضحايا فبعد وصولى إلى بغداد بحوالى أسبوع تم اختطاف وقتل العبيدى والذي اعتقل من منزله يوم ٢١ يونيو /حزيران ٢٠٠٦ على أيدى ميليشيات جيش المهدي في مدينة الصدر / الثورة أو صدام سابقا / ، حيث وجدت جثته في اليوم التالي في حي أور وقد تعرضت لتعذيب شديد.

وربما لإشاعة جو من الألم والخوف الذي أصبح سلطانا يتحكم فى كل شيىء تم ترويج فيلم عبر الهاتف المحمول والأقراص المدمجة التى باتت بديلا عن كل وسائل الاعلام والتكنولوجيا وأصبح الهاتف المحمول تحديدا فى ظل انعدام الكهرباء ومن ثم المتعة الإلكترونية جهازًا « كله منافع» يغنى عن التلفاز والفيديو والراديو أيضا بل والكهرباء حيث تم انتاج نوعيات خاصة من أجهزة المحمول بها مصباح ضوئى صغير يمكنه العمل لمدة ساعتين تقريبا يكون بديلا عن المصباح الكهربائى فى قضاء الأمور البسيطة بالمنزل أو الشارع القريب .. وقام بالتقاط الفيلم عناصر من الخاطفين أنفسهم، ويظهر الشريط المحامي (خميس العبيدي) صبيحة اليوم الذي قتل فيه، في المنزل الذي احتجز فيه في مدينة «الصدر المنورة» وقد تمكنت إحدى الجهات المدافعة عن حقوق الإنسان تحديد الأفراد المسئولين عن احتجازه والذين تظهر صورهم في الشريط وهم:

١. حيدر (ابن أبو درع وهو بعبع السنة أو زرقاوى الشيعة كما كانوا يسمونه وله قصة معى سارويها فى مكان منفصل) – قتل في مواجهات مع القوات الامريكية .

٢. شيخ سجاد - – يعتقد أنه قتل أيضا.

٣. عماد .

كما يظهر من الشريط أن المحامي خميس قد تم تعذيبه خلال الليل لذا كان يطلب من خاطفيه أن يبقى ليرتاح، لكنهم أصروا على تقييده واقتياده إلى مكان آخر، حيث يظن أنه تعرض إلى تعذيب أشد قبل إطلاق النار عليه. ويثبت هذا الشريط مرة أخرى تواطؤ وزارة الداخلية العراقية مع ميليشيات أبو درع وهو واحد من أكثر قادة جيش المهدى قسوة وشهرة في مدينة الصدر ، وضلوع أبو درع في

اختطاف المواطنين وقتلهم.

ويمكنك سماع أحد الخاطفين في الشريط وهو كان يكلم من موبايله شخصاً يدعى (ملازم حازم)، يبدو أنه كان يعلمه باقتياد المحامي خارج المنزل الذي كان معتقلا فيه.

وكانت زوجة العبيدي قد قالت أن نحو عشرين رجلا مسلحا يرتدون لباسا مدنيا حضروا إلى منزلهم يوم ٢١ يونيو ٢٠٠٦ عند الساعة السابعة صباحا على متن سيارات حديثة ومظللة وقالوا أنهم من أمن وزارة الداخلية واقتادوا زوجها وسيارته إلى جهة مجهولة.

والعبيدي والذي يبلغ من العمر (٤٩) عاما، هو ثالث محام من فريق الدفاع عن صدام حسين ورفاقه يتم اغتياله، وقد أكد مصدر في وزارة الداخلية العراقية أنه تم العثور علي جثة العبيدي في ساحة صباح الخياط في حي أور القريب من مدينة الصدر (شرق بغداد) الساعة العاشرة صباحا بالتوقيت المحلي ليوم ٢٢ يونيو /حزيران، وأضاف إن العبيدي كان قد خطف من منزله في منطقة الدورة (جنوب بغداد).

وكان العبيدي عضو هيئة الدفاع عن صدام قد اتهم الادعاء العام في آخر جلسة له قبل مقتله بالانتقائية في اختيار الوثائق وإخفاء باقي الأوراق الخاصة بالدعوى، كما أخبر المحكمة أنه سيأتي في الجلسة القادمة للمحاكمة بخمسة عشر شاهدا ربما كانت شهادتهم ستحرج المحكمة وتكشف بعض الخفايا.

ولعل الجدير ذكره هنا هو ما أخبرنى به الموظف الشيعى الطيب حسن نجم عبد الله « أبو حيدر» وهو أن عملية اختطاف وقتل العبيدى بعد تعذيبه جرت دون تنسيق أو أوامر من قيادات جيش المهدى وإنما بدافع التطوع و« الغيرة» على الشيعة باعتبار أنهم أشد تضررا من نظام صدام حسين واعتبار أن من يدافع عن صدام مذنب ومدان يستحق القتل حتى بدون أوامر أو تخطيط من القيادات إلا أن تلك القيادات وخاصة أبو درع كانت تزكى تلك السلوكيات والدليل على ذلك أن أحد الأشخاص عرض دفع مليار دينار/ حوالى ٨٠٠ ألف دولار/ لإنقاذ خميس العبيدى من القتل ولكن عندما عرض بعض من شارك فى خطف العبيدى الأمر على «أبو درع» أحد القادة الرئيسيين لجيش المهدى فى بغداد كان قراره هو التصفية .

وهكذا كانت تدار أمور القتل ، والاختطاف ، والتعذيب ، والتنكيل أي لمجرد التطوع ، وتكوين رؤية عن ذنب لشخص ربما ليس له أى ذنب مثل خميس العبيدى الذى كان يمارس مهامه كمحامى ، وغيره بضعة آلاف من العراقيين الابرياء

الذين تم اختطافهم وتعذيبهم وقتلهم والتنكيل بجثثهم أو حرقهم أحيـاء دون أى جريرة أو ذنب مباشر سوى تصادف وجودهم فى زمان ومكان جرت فيه المذبحة .

وتشير الدلائل وحكايات من عاصروا أيام المذبحة أنه في مثل هـذه المنـازل في مدينة الصدر ، وعلى أيدي هؤلاء المجرمين، وبالتواطؤ الفاضح مع وزارة الداخلية أو غيرها من الجهات الرسمية أو غير الرسمية ذات النفوذ ، كان يـتم احتجـاز وتعذيب وقتل العشرات من العراقيين الأبرياء على هوياتهم الطائفية .

٢٣ - بعير أبو درع

عندما أخبرنى « أبو حيدر»[1] بتلك المعلومات وأنه عرفها أثنـاء حـوار دار فـى مجلس عزاء أقامه القيادى المرعب فى جيش المهدى «أبو درع» فى قطاع ٧٤ من مدينـة الصدر شرقى بغداد المقسمة إداريا إلى ٧٩ قطاعا /القطاع يضم نحو الف بيت مساحة كل بيت ١٢٠ مترا مربعا /حيث يقيم عدد من قادته قتلوا فى محاولة لفك الحصار عن المنطقة عندما هاجمتها القوات الأمريكية لاعتقال أبـو درع وأسـفرت عمليـات القصف عن إصابة ابنه إصابة بالغة قطعت يده على أثرها وهم لامى حسين وشقيقه إحسان وقائد آخر يدعى يونس حاصرتنى فكرة مجنونة بحضور مجلس العزاء الـذي يستمر غالبا ٣ أيام حتى أرى هذا المرعب الذى يثير اسمـه حالـة مـن الخـوف لا يضاهيها ذكر زعيم تنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين أبو مصعب الزرقاوى نفسه .

أبو درع وكنيته الحقيقية « أبو حيدر» هو بائع سمك فى أحد أشهر الأسواق بمدينة الصدر « سوق مريدى» واسمه الحقيقى إسماعيل حافظ حيدر ومسئول عن سرية جيش المهدى فى قطاعات ٧٣ و٧٤ و٧٥ فى مدينة الصدر معقل جيش المهدى الجناح العسكرى للتيار الصدرى ، وينتمى إلى عائلة « آل جبينه» من عشيرة « آل الأيزج» وكان يطلق على مقره في مدينة الصدر أسم « الشعبة الخامسة لجيش المهدي » .

استجاب أبو حيدر لفكرتى الجنونية متعهداً بحمايتى وفدائى بروحه وشاركت في آخر يوم من مجلس العزاء دون علم أحد وبشـكل جنـونى حركـه فضـول الصحفى الذى كاد أن يقودنى إلى الموت عدة مرات خلال أيام المذبحة لأنني أردت أن أرى ذلك الأسطورة التى يطلق عليها «زرقاوى الشيعة» والذى ينسب إليه المئات من أعمال القتل والاختطاف ضد أبناء الطائفة السنية سواء نفذها أو أشرف على

(1) هو موظف بمكتب وكالة أخبار الشرق الأوسط في بغداد منذ ثمانيات القرن الماضي ورد ذكره في موضع آخر من الكتاب تفصيلاً .

تنفيذها أو لم يفعل ذلك .

تحركنا من منطقة « كسرة وعطش » باتجاه قطاع ٧٥ بمدينة الصدر الذى يقطن فيه أهل إسماعيل حافظ « أبو درع » .. شوارع فقيرة وبيوت متواضعة تنبىء العابرين بأن هناك مشاريع لقتلة ومجرمين بدافع الفقر والجهل .. وهذا القطاع يوجد به سوق كبير من الناحية الشرقية يطلق عليه سوق العورة / وهى امرأة فقدت إحدى عينيها تبيع السمك واخذ السوق اسمها/ تتفاوت روايات سكانه ومرتاديه حول ما يقوم به أبو درع .. هناك من يقول أنه يفرض إتاوات على الجميع .. هناك من يقول أنه يفرض قانونه الخاص ولا يقبل باستغلال أصحاب المحلات أو الباعة الجائلين للناس ويفرض « التسعيرة» .

كان مجلس العزاء قد أقيم فى أحد الشوارع الضيقة فى مكان مقابل لقطاع « ٧٤» وأدار « أبو درع « المجلس ثلاثة أيام رغم أنه أحد أوائل المطلوبين للقوات الأمريكية والعراقية فى ذلك الوقت وكان يقوم على خدمة المعزين والترحيب بهم بنفسه .. أشار لى أبو حيدر إليه وقال هذا هو أبو درع .. رجل قصير القامة ممتلىء قليلا ويعانى من قصر فى احد قدميه بسبب إصابة قديمة يجعله يسير بشكل غير طبيعى ولكن غير ملحوظ بدرجة كبيرة .. تبرز فى وجهه الأسمر لحية قصيرة .. تنطق ملامحه بأنه شخص عادى جداً بسيط مثل باقى أهالي مدينة الصدر .

يقول من عايشه أن له مواقف طيبة مع كثير من الناس ولكنه شديد التطرف فى جهة الطائفة حيث قاد العديد من العمليات ضد السنة إبان زمن المذبحة ..حيث روى لى شاب يعمل فى مجال الإعلام من سكان مدينة الصدر وكان مقربا من مكتب الصدر كيف كان أبو درع يقوم باصطياد الشبان السنة من الشوارع أو من مناطقهم تحت أى حجة أو ذريعة عقب كل تفجير تشهده مدينة الصدر ليقتل منهم أضعاف عدد الضحايا الذين سببهم الانفجار .

كنت قد وصلت فى اليوم الثالث لمجلس العزاء وهو اليوم الذى يقدم فيه العراقيون العشاء للمعزين وعلمت أن « أبو درع» نحر بعيره الخاص التى كانت منطلقة مثل «ناقة صالح» كما يقول أهالى المنطقة تضرب هنا وتؤذى هناك ولا يستطيع أحد أن يتحرش بها لأنها ملك أبو درع ..ومع تناول العشاء التقليدى فى مجلس العزاء بدت سعادة المعزين المكبوتة بنحر هذا البعير المثير للمشاكل مثل صاحبه إلا أن إظهار تلك السعادة كان من المستحيلات إلا بعد أن انفض العزاء وذهبنا إلى بيت أبو حيدر فى قطاع « ٣٤» ليروى لى قصة البعير الطائش المثيرة

للضحك مع قصص أخرى مثيرة للرعب والبكاء عن « أبو درع» وغيره من قيادات وعناصر جيش المهدى من الصف الأول وغيرهم من قيادات الصف الثانى والثالث ومن يقتل ويخطف ويسرق ويبتز مدعيًا انتماءه لجيش المهدى رغم عدم وجود أي صلة حقيقية باعتباره عنوانا لا يجرؤ كائنا من كان على الاقتراب منه .

بينما كنت أستعد لمغادرة العراق والعودة إلى مصر بعد انتهاء مهمتى الصحفية تواترت الأنباء عبر صحيفة الشرق الأوسط التى تصدر فى لندن عن عودة أبو درع مرة أخرى واستقراره فى مدينة الصدر بعد هروبه عام ٢٠٠٨ عندما اشتدت عصا حكومة نورى المالكى على عناصر جيش المهدى وتنفيذها عدة حملات عسكرية أكملت على ما تبقى من نفوذهم فى مختلف مناطق العراق حيث هرب القادة الكبار مثل أبو درع بينما تم اعتقال عدد لا بأس به من قيادات الصف الثانى والثالث .. حيث أكدت تلك الأنباء أن عودة « أبو درع» أو « زرقاوى الشيعة » كما يطلق عليه تتزامن مع توتر سياسى أعاق تشكيل الحكومة لمدة تجاوزت الخمسة اشهر بسبب رفض الإئتلاف الوطنى وعماده الأساسي التيار الصدرى تجديد ولاية رئيس الحكومة المتشبث بالسلطة نورى المالكى بسبب ما يعتبره الصدريون حربا شعواء شنها المالكى ضدهم أدت إلى اهتزاز هيبتهم فى الشارع العراقى وضياع نفوذهم غير المحدود وبعد فشل ضغوط مارسها التيار الصدرى لإطلاق سراح عدد كبير من معتقليه بينهم محكومون بالإعدام بسبب الجرائم التى إرتكبوها [1] .

وأشارت التقارير الصحفية إلى أن « أبو درع » وغيره من قادة الصف الأول تلقوا تدريبات عالية المستوى فى إيران تمهيدا لتنفيذ دور واسع خلال مرحلة ما بعد الانسحاب الأمريكي الذى استمر تدريجيا منذ منتصف عام ٢٠٠٩ ليكتمل وفقا للاتفاقية الأمنية بين بغداد وواشنطن نهاية العام ٢٠١١ .

٢٤ - عصا الزهراء

روى لى « أبو حيدر» الكثير من الحكايات عما يدور فى مدينة الصدر معقل جيش المهدى ومناطق أخرى فى ذروة زمن المذبحة وكيف يستغل من يعتبرون أنفسهم عناصر جيش المهدى العقائدى الحسينيات « المساجد الشيعية» فى إخفاء

(1) الغريب أن التيار الصدري الذي يقيم زعيمه مقتدى الصدر في إيران كان القوة الأساسية الراعية لتولي نوري المالكي رئاسة الحكومة فيما بعد وهو ما يؤشر لوجود صفقة كبيرة بين الطرفين ساهمت في تحول العداء إلى ولاء .

المختطفين وتعذيبهم قبل قتلهم وإلقائهم فى الشوارع أو مقالب القمامة أو ما يعرف باسم السدة التى رأيت أن مجيئى إلى تلك المنطقة المشتعلة شديدة الخطورة مناسبة جيدة لزيارتها لأن رجوعى إلى مدينة الصدر مرة أخرى ربما لن يتكرر باعتباره لحظة جنون صحفى لا تأتى كثيرا .

روى لى أبو حيدر عن طريقة ليست الأشد عنفا فى التعذيب إلا أن لها رمزيتها مع رمزية اسم جيش المهدى وهى ما يطلق عليها « عصا الزهراء » وهى قضيب حديد يستخدم بقسوة كوجبة أولى من التعذيب لانتزاع الاعترافات من الضحايا ومعرفة انتمائهم الطائفى حيث يتم به ضرب الضحايا لتكسير عظامهم خاصة الساقين والذراعين .. يبدأ التحقيق باستعمال الهاتف المحمول والأرقام والأسماء التي فيه، يسألون الضحية عن كل اسم وهل هو سني أم شيعي وفي أي منطقة يسكن، وإذا تبينت الهوية السنية يشتد التعذيب والضرب بعصا الزهراء .. بعد ذلك يتم تقييد اليدين إلى الخلف ثم رفع الجسد بربطه بعروة مثبتة في السقف،مع استمرار الضرب بالكبلات، والعصى السميكة وتبقى اليدان معلقتان في السقف خلف الظهر،حتى تنخلع الأكتاف .. تتعدد أساليب التعذيب من الكى بالنار والمثقاب الكهربائى « الدريل» وغير ذلك حتى الموت إما من التعذيب أو بطلقة أسفل الرأس .. يتم بعد ذلك جمع الجثث المشوهة بعد نزع كافة أوراقها الشخصية وإلقائها فى السدة .

٢٥ - السدة

اسم كان يتردد كثيراً بين أبناء مدينة الصدر كلما استقيظوا صباحا على أخبار الجثث معصوبة العينين والتى تبدو عليها آثار التعذيب حيث يتم إلقاؤها على السدة أو في خرائب «كسرة وعطش» وحتى مجاري الرستمية .

تكونت « السدة » نتيجة عمل مشروع قناة الجيش التى تقع شرق بغداد محاذية لمدينة الصدر من الناحية الشمالية الشرقية وذلك فى عهد الرئيس الراحل عبد الكريم قاسم/ الذى أسس مدينة الصدر لجمع شتات الفقراء من ابناء العراق وأهواره ليسهموا فى عمليات توسيع وإعمار العاصمة/ وذلك لتلطيف الجو وعمل منتزه وحدائق للعائلات إلا أن ركام الحفر تحول إلى جبل من النفايات طوله حوالى ١٠ كيلومترات يرتفع حوالى ستة أمتار بعرض أكثر من ثلاثة أمتار حتى أنه بات يحجب الرؤية عن بيوت مدينة الصدر وصارت المستقر الأخير للجثث مجهولة الهوية .. تبدأ السدة من منطقة الفحامة شمال بغداد حتى نهر ديالى

شرق العاصمة وكانت نموذجا لسد ترابى يمنع فورة نهر دجلة وقت الحاجة .

تنتشر أكداس القمامة والنفايات والخرائب فى تلك المنطقة المنسية من بغداد .. بينما تجد الكلاب السائبة والقوارض ضالتها فى بقايا تسد جوعها وهو ما يفسر وجود جثث غير مكتملة الأعضاء فى تلك المنطقة حيث تنهشها الكلاب الضالة أو القوارض أو تحترق أجزاء منها إذا أراد أحد أن يخفف من أكوام القمامة بحرقها .

اصطحبنى « أبو حيدر» إلى « السدة» رغم كل مخاطر الطريق حتى أرى بنفسي كيف تتحول جثث الضحايا إلى جزء من مقالب القمامة فى زمن المذبحة الذى لوث عرابوه مناطقه ورموزه وأحالوها إلى أماكن تثير القرف والاشمئزاز والرعب لمجرد ذكر اسمها رغم أنها كانت مناطق ورموز عادية تنبض بالحياة قبل أن يحولها حكام زمن المذبحة إلى رموز للقهر تشهد على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

٢٦ - انسبينا سباية الحسين

هذه العبارة « اللزمة» يمكن أن تقود صاحبها إلى المذبحة لتنتهى حياته بطلق نارى أسفل الرأس بعد وجبة تعذيب من النوع الثقيل .. هذه العبارة يقولها الشيعة عندما يتعرضون لما يسوء ويعكر الصفو لينتهى بخسارة كبيرة وهى تنسب إلى ما جرى للإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته الكرام فى عام ٦١ هجرية عندما خرج ليقود ثورة ضد الظلم والقهر وضياع الحقوق وجرى له ما جرى فى واقعة الطف التى جرت وقائعها فى كربلاء أيام الخليفة الأموى يزيد بن معاوية .. ويطلق الشيعة على من يناصبهم العداء من أهل السنة والجماعة لقب أتباع يزيد أو النواصب .. بينما يقولون انسبينا سباية الحسين عندما يتعرضون لظلم هذه الأيام .

يروى عادل « أبو مختار » وهو شيعى طيب من سكان مدينة الصدر عندما كان عائداً من العاصمة الأردنية عمان فى صيف عام ٢٠٠٦ برفقة زميلين أحدهما شيعى مثله والآخر سنى .. وعند الدخول إلى مركز محافظة الأنبار التى تقع غرب العراق وكانت معقل تنظيم «القاعدة فى بلاد الرافدين» كان النهار يقترب من نهايته وبدأت الشمس تستعد للمغيب وهذا الوقت وفقا لفرق الموت يعنى بداية سريان سلطتهم الكاملة على البلاد والعباد .. كان سائق السيارة التى تقلهم من إحدى القرى القريبة من الفلوجة وأبلغهم أنه لن يستطيع مواصلة السير إلى بغداد نظرا لخطورة الطريق وطلب منهم أن يكونوا ضيوفا عند أهله حتى الصباح

إيثارا للسلامة.. رفض الأصدقاء الثلاثة نظراً لارتباطاتهم العائلية والعملية في بغداد التي تملي عليهم العودة السريعة .. استأذنهم بالانصراف إلى أهله تاركا اياهم على الطريق السريع ربما يعثرون على من يغامر بالذهاب إلى بغداد في هذا الوقت وتلك الظروف .

لم يمض وقت طويل حتى مرت سيارة خاصة تعود لمهندس من أهالي الفلوجة عرض على الأصدقاء الثلاثة اصطحابهم إلى حدود بغداد عند منطقة أبو غريب التي تبعد حوالي ٢٠ كيلومترا غربي بغداد باعتبار أن تلك المنطقة تخضع لنفوذ تنظيم القاعدة الذي يكن لأهالي الفلوجة المجاهدين احتراما شديدا لأن تلك المدينة التي خاضت حربين ضد القوات الأمريكية وفرت ملاذات آمنة لعناصر القاعدة والمقاتلين العرب الذين جاءوا إلى العراق للحرب ضد الأمريكان المحتلين باعتبار ذلك جهادا ضد الكفار قبل أن تتبدل الأمور وينقلب المضيفون على الضيوف ودولتهم الإسلامية التي أشاعت الرعب والقتل .

دار حديث طويل بين صاحب السيارة والركاب حول الأوضاع والأحوال وما يدور من أحداث وبالطبع فإن السؤال الأول كان عن الأسماء ومناطق السكن وأسماء العشائر التي يتبعها العابرون .. راوغ « أبو مختار» في الحديث حتى لا تظهر طبيعة انتمائه للمذهب الشيعي الا أن صديقه الآخر الشيعي أفصح عن نسبه .. وتداركا للأمر قال كلمة الشيعة المعروفة « انسبينا سباية الحسين » .. إلا أن صاحب السيارة السني الطيب طمأنه وطلب منهم عدم الحديث عند الاقتراب من أي نقطة تفتيش تابعة للمجموعات المسلحة باعتباره من أهل الفلوجة الذين يحترمهم الجميع خاصة تنظيم القاعدة باعتبارهم مجاهدين .

ودار الحوار بين ركاب السيارة ليؤكد الجميع للجميع أنهم إخوة وشركاء في وطن واحد لا يفرق على أساس المذهب أو القومية وأن ما يجرى ما هو إلا مؤامرة كاملة الأركان لتدمير البلاد والعباد .

يقول « أبو مختار» أن صاحب السيارة أصر على إكمال مسيرته إلى بغداد رغم مخاطر الطريق واتفق مع ضيوفه بالسيارة على تبادل الأدوار إذا فاجأتهم نقطة تفتيش تعود للميليشيات الشيعية .. فيصمت هو ويتحدث الصديقان الشيعيان حتى وصلت السيارة إلى منطقة العلاوي التي تقع خلف وزارة الخارجية وهي منطقة تتوسط بغداد وذهب كل من ركاب السيارة إلى طريقه بعد تبادل أرقام الهواتف ووعود بمواصلة العلاقة وأن يزور ابن الفلوجة المجاهدة ابن مدينة الصدر عندما تهدأ الأمور .

٢٧ - أنا وطريق الموت

عندما كان « أبو مختار يروى قصته وتفاصيل طريق الموت فى الأنبار تذكرت موقفا كاد أن يقودنى إلى السير فى هذا الطريق عندما تم تكليفى بمهمتى فى العراق منتصف العام ٢٠٠٦ .. حيث أصرت إدارة الوكالة على أن أسافر إلى العاصمة الأردنية عمان جوا وأكمل طريقى إلى بغداد براً نظراً لارتفاع تكاغة السفر على الخطوط الأردنية [1] .. ولم تكن إدارة الوكالة فى هذا الوقت تدرى أنها سوف تبعث بى كهدية لعناصر تنظيم القاعدة والعصابات الإجرامية المنظمة التى تمارس الخطف والقتل تحت مسميات وعناوين شتى والذين يسيطرون على هذا الطريق المؤدى من الحدود الأردنية العراقية إلى العاصمة بغداد عبر محافظة الأنبار كبرى المحافظات العراقية من حيث المساحة والتى كانت الملاذ الآمن الأول لتنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين بعد أن اتخذها التنظيم منطلقا لعملياته سواء ضد القوات الأمريكية أو ضد العراقيين أنفسهم وخاصة المرتبطين بأجهزة الدولة ودوائرها الرسمية وقواتها الأمنية من جيش وشرطة وبعد ذلك وجههوا أسلحتهم وأحقادهم إلى أئمة المساجد وشيوخ العشائر الذين رفضوا طريقتهم فى التعامل مع المجتمع العراقى العشائرى الذى تحكمه قيم نبيلة كانت دستورا لاستقبالهم ومنحهم [illegible] الآمنة باعتبارهم مجاهدين وليسوا قتلة خارجين عن القانون يمارسون جرائم منظمة استنادا إلى مبدأ تكفير المجتمع .. كما أننى كنت غير مدرك لمخاطر هذا الطريق الذي استحق لقب « طريق الموت» بامتياز وكان اعتراضي على السفر براً نظراً لطول المسافة التي تحتاج من ١٠ إلى ١٢ ساعة فى أيام يوليو الحارقة .. كما أن السفر براً عبر هذا الطريق سوف يجدد ذكريات ومواقف مرت بى أيام مهمتى الأولى بالعراق والتي سوف أفرد لها كتابا خاصا يفضح خيبة الإعلام المصرى فى هذه الفترة وكيف ضحت وكالة أنباء الشرق الأوسط بتواجدها ممثلا فى مراسلها هناك لتوفر حفنة دولارات رأت أنها ثمنا باهظا لتغطية الحرب التاريخية التى سقطت فيها بغداد فى قبضة القوات الأمريكية عام ٢٠٠٣ .

لجأت إلى رئيس الوكالة الأستاذ عبد الله حسن طالبا استثنائي من شرط ارتفاع تكاليف السفر حتى أتمكن من بدء مهمتى فى بغداد بشكل أكثر راحة بسفرى عبر

(١) كان السفر إلى بغداد جوًا يتم عبر الأردن لعدم وجود خط جوي مباشر بين القاهرة وبغداد في تلك الفترة .

الجو وليس بالسيارة برا .. والحقيقة أن الرجل تفهم الموقف واستجاب لطلبى ووقع قراراً باستثنائي من بند التكاليف العالية لا تمكن من السفر جواً إلى العراق عبر الأردن وكان بهذا القرار ينقذ رقبتى دون أن يدرى من ذبح مؤكد اذا ما ساقتنى الأقدار إلى براثن إحدى نقاط التفتيش التابعة لتنظيم القاعدة أو أحد الكمائن التى كانت تنصبها عصابات السطو المسلح على هذا الطريق المهجور الذى يمتد مئات الكيلومترات بدون أي حماية وتسير فيه السيارات والحافلات تحت رحمة فرق الموت والعصابات .

٢٨ - العبور إلى الموت

كان التوقيف « الحبس» فى معظم الأحوال أول الطريق إلى الموت فى أيام المذبحة عبر سلسلة من الأحداث تبدأ بالتعرف على هوية الشخص محل التوقيف سواء فى نقطة التفتيش الرسمية التابعة للدولة أو الوهمية التابعة للميلشيات وفرق الموت .. وبعد التعرف على هوية الضحية تتواصل الخطوات لزجه فى أحد سجون أقسام الشرطة حتى يتم النظر فى أمره أو بيعه لإحدى الجهات أو العصابات ما لم ينقذه القدر وتتدخل الجهة التى يتبعها سواء أهله أو مكان عمله أو أى شخص يقدم له المساعدة .. وكان أكثر المستهدفين فى تلك الأثناء هم أهل السنة والغرباء خاصة العرب وفئات بعينها على رأسها الصحفيون طبعًا .. ولأننى صحفى ومصري فقد كنت أعلم أن بداية طريق الموت هو أن يتم توقيفى فى إحدى نقاط التفتيش لأتحول إلى سلعة يتم بيعها لإحدى الجهات حتى تجرى المساومة على دفع مبالغ مالية تصل إلى عشرات الآلاف من الدولارات أو يتم تحويلى إلى جثة مجهولة الهوية بعد وجبات التعذيب المدعومة بتهم جاهزة كونى أعمل فى الصحافة وعربى الجنسية .

ولأننى كنت أدرك ذلك جيداً من خلال العراقيين الطيبيين الذين كنت لهم أخا وابنا تجب رعايته وحمايته وقت اللزوم فقد كنت أتحاشى العبور خاصة أيام ذروة المذبحة فى مناطق يمكن الوقوع خلالها فى براثن إحدى نقاط التفتيش سواء الرسمية أو الوهمية .. وان تطلب الأمر فلابد من مرافق أو أكثر للتصرف وقت اللزوم مع قائمة طويلة من أرقام الهواتف التى يمكن اللجوء إليها إذا ما جرى المحظور .

إلا أن ما كنت أخشاه حدث ذات يوم فى منطقة تقع فى قلب العاصمة بغداد نهاية العام ٢٠٠٦ حيث كانت الأجواء مشحونة لدرجة أن الموت يزحف فى الطرقات باحثا عن زبائن .. حيث اضطرتنى ظروف المرض إلى الذهاب لمستشفى

الراهبات الواقع فى منطقة الكرادة وسط بغداد عصر أحد أيام الجمعة التى لم أجد فيها من يصحبنى إلى المستشفى بعد ارتفاع الضغط الذى أعانى منه منذ سنوات وخوفى من حدوث مكروه .. اوقفتنى إحدى نقاط التفتيش الرسمية وطلبت أوراقي الشخصية التى كانت فى حد ذاتها اتهاما حيث أننى مخالف لشروط الإقامة بسبب عدم وجود موافقات لمنح الإقامة للعرب باستثناء فريق الدفاع عن صدام حسين والدبلوماسيين وموظفى المنظمات الدولية ومنظمات المجتمع المدنى رغم أننى أعمل فى جهة رسمية وجئت إلى بغداد موفدا من وكالة الأنباء الرسمية المصرية إلا أن تعليمات منح الاقامة كانت فى هذا الوقت تنص على عدم منحها الا بموافقة شخصية من وزير الداخلية ويطلب شخصى حالت الظروف دون الحصول عليها عدة أشهر كون الدخول إلى مقر وزارة الداخلية فى حد ذاته كان أحد طرق الموت للغرباء ونصحنى الأصدقاء بعدم الإقدام عليه تحت أى ظرف أو تحت أي مسمى .

وبعد جدل عقيم مع مسئول نقطة التفتيش أصر على توقيفى تمهيدا لإرسالى إلى السجن ثم ترحيلى إلى مديرية الاقامة لتقول كلمتها بعد عدة ايام وفقا لما أبلغني رغم أنه أكد لى أنه يصدقنى وأننى لا ذنب لى فى عدم الحصول على إقامة رسمية لكنه القانون «الذى لا مكان له فى أى بقعة بالعراق» إلا أنه سيطبقه معى كمخالف للتعليمات وربما أكون خطرا على الأمن .. وقال لى « اعرف أنت صادق .. لكن الإقامة مو خوش أوادم [1] .. هم لا يعطون الإقامة .. لكن شسوى لابد أطبق القانون وأدبك بالتوقيف » [2] .. شعرت أنها النهاية وارتعدت فرائضى وعجزت عن التفكير للحظات بعد أن جف الدم فى عروقى عندما تصورت مصيرى المحتوم ما لم ينقذنى منقذ .

وبعد لحظات فارقة بين النجاة والعبور إلى طريق الموت تذكرت سلسلة النصائح التى كان يرددها على مسامعى الأصدقاء وأخرجت قائمة الهواتف التى يمكن الاتصال بها وقت الخطر وبعد عدة محاولات للوصول إلى منقذ بسبب سوء شبكة الاتصالات الهاتفية تمكنت من الاتصال بشخص يدعى « سيد على » وهو شيعى طيب من سكان مدينة الصدر يعمل أخوه ضمن تنظيمات جيش المهدى إلا أنه كان يحب مصر والمصريين مثل كثيرين ممن فرضت عليهم قوانين المذبحة أن يقتلوا ويمارسوا

(1) وتعني ناس غير جيدين أو محترمين .

(2) أضعك بالسجن .

أبشع الجرائم حتى مع من يحبون من البشر .. وطلبت من سيد على أن ينقذنى مما أنا فيه قبل أن يتم ترحيلى إلى أحد السجون تمهيداً لعرضي على مديرية الإقامة وهو طريق محفوف بالمخاطر ربما ينتهى بالموت أو فى أفضل الأحوال المساومة على دفع فدية أو الاثنين معا كما كانت تجرى الأمور حيث يتم قتل الضحية بعد الحصول على الفدية .

طمأننى « سيد على» وطلب منى أن أبلغ الضابط المسئول عن نقطة التفتيش أن «سيد .....» سوف يأتى لاصطحابي وإنهاء الموقف .. وبالفعل استجاب الضابط عندما سمع الاسم وتغيرت طريقة التعامل معى بينما أنا بين اليأس من النجاة والرجاء الذى توجهت به إلى الله لينقذنى من هذه الأزمة حتى جاء «السيد» واصطحبنى بعد أن جف الدم فى عروقى وتقاطعت أنفاس الحياة مع اختناقات الموت وجفت شفتاى حتى أصبحت شبه عاجز عن الكلام ونصحني الرجل بمعالجة الأمر لأنه من الممكن أن تجرى الأمور بعد ذلك على غير ما جرت هذه المرة .. ونبهنى أن دخولى إلى أى سجن سواء لقسم الشرطة أو السجون العامة أو حتى سجن الإقامة معناه النهاية فى معظم الأحوال .. وكانت الرسالة واضحة تماما بالنسبة لى .. إما تنتين وجودى بالعراق مع عدم التحرك إلا بمرافق أو مرافقين أو الرحيل والعودة إلى مصر سالما .

ودلنى الرجل على طريق معتاد للحصول على موافقة وزير الداخلية وهو دفع مبلغ من المال لأشخاص معروفين يقدمون مثل هذه الخدمات وتأكدت من الأمر بعدما اتصلت بزميلى مراسل جريدة الأهرام فى العراق الذى أبلغنى أنه يعرف مثل هذا الطريق وسوف يقوم باللازم بعد دفع المبلغ المطلوب وهو بضع مئات من الدولارات .. حيث سبق وحصل على الإقامة بنفس الطريقة فى وقت سابق وهو فى طور التحضير لتجديدها من خلال دفع مبلغ مطلوب للحصول على موافقة وزير الداخلية .

بعد أن عدت إلى مقر عملى وإقامتي المهجور فى شارع خلف المريديان الواصل بين شارعى السعدون وأبو نواس سارعت بالاتصال بالأستاذ عبد الله حسن رئيس الوكالة وأبلغته بما جرى .. وللتاريخ فان الرجل أبدى قلقا شديدا وطلب منى العودة حفاظا على حياتى إلا أننى كنت قد بدأت الطريق إلى داخل المذبحة التى كانت بمثابة كنز لى كصحفى لا يمكن تركه بسهولة وتحت أى تهديد أو ضغوط لأن ما يحدث أعتقد أنه لن يتكرر أبداً فى تاريخ العراق .. وشكرت رئيس الوكالة ووعدته بأننى سوف أعود إلى مصر وأنهى مهمتى فى العراق ما لم أتمكن من توفيق أوضاعى .. فوافق وعرض توفير أى مبلغ يضمن ذلك ..وبعد حوالى شهرين من المساومات

والمفاوضات تمكنت أنا وزميلى مراسل الأهرام من الحصول على إقامة رسمية بعد دفع المبالغ المطلوبة كرشاوى عرفت أنها صارت عرفا وتقليدا لإنهاء أى أمر بالعراق فى زمن المذبحة (وثيقة) [1].

ورغم نجاتى من براثن الاعتقال أو التوقيف إلا أن شعورى بالقلق والخوف لم يفارقنى بعد أن اقتربت كثيرا من بداية طريق الموت خاصة بعد أن علمت الكثير من التفاصيل عن وقائع ما يجرى بالسجون والمعتقلات العراقية فيما بعد من أهالى ضحايا تحولوا إلى جثث مجهولة الهوية أو لقوا مصرعهم بعد وجبات التعذيب أو استمروا كمعتقلين دون توجيه اتهامات محددة لعدة سنوات أو من ناجين ساعدتهم الظروف على الخروج من طريق الموت الذى يبدأ بالاعتقال بعد أن دخلوه [2].

٢٩ - تبيعه ؟؟

فى رائعة المخرج عاطف سالم، وتأليف على الزرقانى، « صراع فى النيل» يسأل أحد الممثلين المنتمين إلى عصابة السرقة فى المولد زميله عندما شاهد النجم عمر الشريف « محسب» منتفخ الصدر بفعل محفظة نقوده الممتلئة بالبنكنوت ثمن « الصندل» ويقول له « تبيعه ؟؟ » وهى تعنى شراء الضحية واعتباره حصة يفوز بها اللص حتى يستولى على ما معه من نقود .. كان هذا السيناريو يجرى بحذافيره فى بعض شوارع أيام المذبحة أو داخل السجون والمعتقلات .. حيث يطلب لص الأرواح من مرافق الضحية أن يبيعه له ومن ثم يبيعه هو الآخر لمن يدفع الثمن ويفوز بالضحية ليقتلها أو يساوم عليها مقابل فدية .

يروى لى زميلى فى مهنة المتاعب « عدنان» الذى كان يعمل مصوراً لحساب وكالة الإخلاص التركية « فرع بغداد» أنه تم اعتقاله مع صحفى تركى عندما كان يقوم بتصوير مشاهد فيديو لما بعد التفجير فى ساحة الطيران وسط بغداد وكان تفجيرا انتحاريا مروعا أدى إلى مقتل أكثر من ٢٠٠ شخص .. وكانت

(1) صورة للإقرار والتعهد الذي وقعته مع مراسل الأهرام لدفع المال والحصول على الإقامة بعد توقيع وزير الداخلية .

(2) أكدت الوثائق التي نشرها موقع ويكيليكس عمليات تعذيب المعتقلين تم جانب الأمريكان والعراقيين على حد سواء .

الوكالة ترسل صحفيا أو اثنين من الأتراك ليتابعوا سير الأمور مع فريق العمل العراقى الذى كان يقوده « الحاج أحمد» .. وتم توقيف الاثنين فى سجن ملحق بقسم شرطة لم يجد عدنان من الكلمات ما يصف به حالته المزرية اللا إنسانية .

وفى أول ليلة قضاها عدنان يكفكف دموع الصحفى التركى الذى لم يعتاد تلك الحياة الخشنة المصحوبة بتحرشات من كل نوع يتناوبها زملاء عنبر الاحتجاز .. حتى اقترب منه أحدهم وسأله نفس السؤال « تبيعه ؟؟ » « هذا التركى خوش صفقة» أى أنه صفقة جيدة رابحة وسوف تربح معنا وتضمن سلامتك أيضا .

ويقول عدنان « داهمنى السؤال وشعرت بالغثيان مما يحدث .. نعم كنت اسمع عن مثل هذه الأمور ولكن أن تكون بطلا لأحد سيناريوهات بيع الضحايا فهذا أمر غير معقول ولا يمكن احتماله .. المهم أننى تظاهرت بالرضا وطلبت منهم الوقت لأرتب الأمر وأرسلت رسالة بهذا المعنى إلى الحاج أحمد لينقذ ما يمكن انقاذه »

واستقبل الحاج أحمد الرسالة ومنذ الصباح الباكر تحرك مستخدما كل ما أوتى من قوة ونفوذ وعلاقات وأموال وأوراق ضغط واستعطاف لكل الجهات المعنية حتى لا تتم صفقة البيع سواء وافق عدنان أو رفض .. وبعد محاولات استمرت عدة ساعات كان عدنان يحاول خلالها مجاراة عراب الصفقة التى يعلم نهايتها نجح الحاج أحمد فى نقل عدنان والصحفى التركى إلى عنبر آخر واستصدار قرار بتحويلهم إلى قاضى تحقيق حتى يكونوا فى مأمن باعتبارهم حصلوا على أرقام ومواعيد تمنع سلخهم وإخفاء آثارهم داخل سجن القسم .. وبعد عدة وساطات كان السفير التركى فى العراق طرفا فى إحداها تم إطلاق سراح عدنان والصحفى التركى الذى جرى إخراجه من العراق بعد ذلك بأيام وهو غير مصدق لما يجرى داخل السجن رغم أنهم لم يبلغوه بالصفقة التى كان يمكن أن تقوده إلى طريق الموت .

فيما خرج عدنان ليواصل الركض داخل دوامة الحياة كأى عراقى اعتاد على تلك المواقف التى يحاول التعايش معها والخروج منها بأقل الخسائر قدر الإمكان حتى يحين القدر المحتوم ليأخذ دوره فى مواكب الموت التى كانت أحد علامات زمن المذبحة التى استقرت حتى انتهاء مهمتى بالعراق وانخفاض وتيرة العنف لفترات متقطعة .

٣٠ - كشف المستور

نشرت منظمة تعرف باسم « المعلومات والرصد الذراع الاستخباري للمقاومة العراقية» تقريراً حول ما أثارته صحيفة أمريكية عن فضيحة إنشاء سجن سري في بغداد

يعتقل فيه نحو ٤٥٠ مواطنا عراقيا وتمارس فيه أبشع جرائم التعذيب حيث أكدت المنظمة أن هذا السجن يعد واحداً من أصل نحو ٥٣ سجناً معظمهم سجوناً سرية..

وقالت المنظمة فى تقريرها :

«إن تلك السجون هي معتقل الجادرية السري الكائن في ملجأ الجادرية الذى تم الكشف عنه عام ٢٠٠٦ من جانب القوات الأمريكية ووجه الاتهام في إنشائه إلى إبراهيم الجعفري رئيس الوزراء السبق ورجل حزب الدعوة القوى ووزير داخليته بيان جبر صولاغ الذى تولى وزارة المالية فى حكومة نورى المالكى منتصف عام ٢٠٠٦ باسم باقر جبر الزبيدى ومقر الفوج الثاني للحرس الجمهوري قرب ساحة النور وسجن النساء في الكاظمية وبناية مركز التدريب الأمني في صدر القناة وسقيفة من سقائف المواد الاحتياطية للسيارات في كسرة وعطش، وأربعة ادوار في قطاع ٣٩ مفتوحة علي بعضها مقر أبو درع إسماعيل حافظ ودارين في قطاع ٤١ مقر المخابرات الإيرانية وطابقين من بناية وزارة الداخلية يعمل فيها ٧٠ ضابط تحقيق إيراني ودارين في حي أور قرب ساحة صباح الخياط»..

إضافة إلى مهاجع المنتسبين في بناية الاستخبارات العسكرية في الكاظمية قرب محطة الوقود بناية مستشارية الأمن القومي وسقيفة في بناية مخازن المواد الغذائية في العطيفية وثلاثة غرف في بناية حسينية الصادق في حي أور وغرفة كبيرة في بناية مركز شرطة القناة ودارين في الكمالية قرب دار حمدية صالح سابقا في الكمالية ودارين في الكرادة قرب مستشفي الإمام وعدة دور قديمة في محلة التل في الكاظمية وغرفتين في مركز شرطة تل محمد وقاعة في معمل الشخاط وسقيفة كبيرة في معمل الشركة العامة لصناعة السجائر في الأورفلي ومقر جريدة العدالة قرب ساحة القضاء ومسجد براثا الذى يديره عضو مجلس النواب السابق والقيادى فى المجلس الاعلى الاسلامى الشيخ جلال الصغير ودار سرية لحزب الله العراقي بزعامة كريم ماهود في قطاع ٣٩ ..وعدة مقرات سرية في الوحدات العسكرية للتحقق والاستجواب وللحصول علي اعترافات كاذبة..

هذا يضاف إليه مقرات عدة لأجهزة الشرطة..

ومقرات الأحزاب الطائفية .

ومقرات الحزبيين الكرديين.

ومقر الحزب الشيوعي العراقي «الفرع الموالي للاحتلال» .

وثلاثة دور في أبو دشير قرب النهر .

ودار في حي الفرات «أبو كرار» .

ودار في حل العامل «أبو حيدر» .

ومقر استخبارات الداخلية .

وغرفة في الجمعية التعاونية في حي القاهرة .

وردهة في مستشفي الصدر العام في مدينة الصدر .

ومقرات مغاوير وزارة الداخلية .

وغرفة في بناية مطار بغداد .

وغرفة في مركز شرطة الدورة .

وبيت في حي طارق خلف السدة.

وغرفة في نادي المنصور .

ومخزن كبير وسط بستان الجلبي مقابل معمل الطحين.

ودار في المنصور مقابل البيت الصيني .

ومقر المجلس الأعلى في الجادرية .

ودارين كبيرين مقابل مقر عبد العزيز الحكيم .

ومقر حزب الدعوة في مطار المثني.

ومقر أركان الحسناوي وباقر البهادلي من المجموعات الخاصة في الحبيبية .

وعدة معتقلات سرية خاصة بالنساء.

ومقر استخبارات الشرطة .

ودار أخ موفق الربيعي في الطوبجي حي السلام قرب البريد والسوق .

ودارين في الشعب قرب محطة الوقود مجاورة للحسينية .

ومقر كبير في الحسينية الثالثة .

ومقر كبير في الشعلة .

وداران منها محل لتأجير القدور وأدوات الطبخ في الرحمانية الجديدة .

وبناية وزارة الصحة .

وكشفت المنظمة عن أهم أسماء الضباط الذين يقومون بعمليات تعذيب بشعة ضد المعتقلين ومنهم:

المقدم « دمج »/ وهى كلمة تطلق على الضباط الذين كانوا قادة فى الميليشيات وتم منحهم رتبا عسكرية كبيرة باعتبارهم مناضلين ضد النظام السابق دون أن يدرسوا فى أى كلية عسكرية / «صادق» مدير سجن مطار المثني من عناصر حزب

الدعوة وهو من منتسبي مديرية الاستخبارات العسكرية وتم تعينه من قبل مكتب «نوري المالكي» وهو يقوم باستخدام وسائل تعذيب بشعة منها استخدام شواية الهامبورجر حيث يجبر المعتقل الجلوس عاريا عليها فتشوي مؤخرته ويلتصق لحم جسمه بالشواية.

ويأتي اللواء الركن حاتم المكصوصي الذي شغل منصب معاون مدير جهاز مكافحة الإرهاب المرتبط بمكتب نوري المالكي ثم تم تعينه رئيسا للجنة دمج المليشيات ومنحهم رتبا عسكرية ثم شغل منصب مدير الاستخبارات العسكرية ومقرها في المنطقة الخضراء وقد أنيطت له مهمة إقصاء الضباط السابقين في الجيش العراقي الوطني وإحلال ضباط «الدمج» محلهم حيث أقصى أكثر من ٥٠ ضابط.

ويقوم بتعذيب المعتقلين في السجون السرية منها سجن الحارثية السري وسجن في معسكر الشرف خلف مديرية حقوق الإنسان داخل المنطقة الخضراء والسجون السرية في مقرات الألوية ومنها لواء ٥٤ الذي يقوده العقيد علي فاضل العبيدي وسجون لواء ٢٤ الذي يقوده آمر لواء المثنى رحيم رسن البيضاني وأيضا اللواء الركن غسان قائد الفرقه الحادية عشر الذي يرتبط بالفريق فاروق الأعرجي مدير مكتب نوري المالكي ويشرف على مجموعة من ضباط الدمج التابعين لحزب الدعوة ويصدر توجيهاته بتصفية المعتقلين في السجون السرية ورمي جثثهم في المناطق النائية من العاصمة بغداد ويتم نقل الجثث ليلا بواسطة سيارات تابعه للواء ٥٦ المسمي « لواء بغداد » ومقره داخل المنطقة الخضراء ..

ثم النقيب حيدر وهو ضابط استخبارات فوج الأول لواء ٥٤ الفرقة السادسة ويقوم بعمليات اعتقال عشوائية في منطقة المنصور والحارثية وبدون مذكرات قبض وبعد أن يجري تعذيب المعتقلين في سجن مطار المثني يجري اتصالات مع عوائلهم لغرض دفع مبالغ مالية ومن يمتنع عن الدفع نتيجة لعدم قدرة العائلات علي تأمين المبالغ الكبيرة التي يطلبها المجرم يتم تصفية المعتقل ورمي جثته في الشارع والمجرم المذكور من عناصر حزب الدعوة ومن مجموعة العقيد فاضل العبيدي.

ونشرت المنظمة ما قالت أنه توثيق تاريخي لنماذج من الجرائم التي ارتكبت ضد العراقيين وبدون رتوش وإضافات كما وردت من مصادرها الدولية والمحلية والتي تم إعلانها في الصحافة العالمية والفضائيات وبيانات صادرة عن لجنة العفو الدولية ولجنة حقوق الإنسان الدولية ومنظمة الشفافية الدولية والصليب الأحمر الدولي والصحافة العالمية ولجنة حقوق الإنسان في مجلس النواب ولجان حقوق الإنسان المتعددة في العراق وجمعيات المجتمع المدني ومنظمة الشفافية العراقية ونقابة

المحامين العراقيين وشخصيات وطنية وفيها :

تقرير لجنة حقوق الإنسان في مجلس النواب ٢٠٠٩/٥/٨ لجان التحقيقات تقوم بتعذيب المعتقلين وتجبرهم علي الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها وان أوضاعا إنسانية وصحية سيئة وخروقات تتم في سجون النساء وسجون وزارة الداخلية والعدل والدفاع وممارسة شتي أنواع التعذيب والاغتصاب بشكل واسع. «من فمك أدينك» ..

التايمز اللندنية ٢٠٠٩/٤/٢٤ تكشف عن وجود جرائم وانتهاكات لحقوق الإنسان واغتصاب المعتقلين في سجون وزارة الداخلية وإساءة وتعذيب ورشوة لإطلاق سراح الأبرياء.

لجنة حقوق الإنسان في مجلس النواب ٢٠٠٩/١١/٥م عمليات اغتصاب واسعة وتعذيب في سجن النساء التابع لوزارة العدل ويتم الاغتصاب أمام أولادهن المعتقلين لإجبارهن علي الاعتراف وأخرى أصيبت بالعمي خلال التحقيق وتم اغتصابها عدة مرات.

لجنة العفو الدولية – قوات الأمن العراقية تختطف المواطنين الأبرياء وتطلب منهم بعد فترة الندية لإطلاق سراحهم، وعمليات التعذيب والاغتصاب مستمرة وقطع أصابع بعض المعتقلين وأظافرهم خلال التحقيق وآثار الانتهاكات ظاهرة علي أجسام المعتقلين المطلق سراحهم.

جمعيات حقوق الإنسان الدولية – معتقلون مفقودون داخل بلدهم العراق وهم لم يرتكبوا مخالفة ولم نجد لهم أثر في سجون وزارة الداخلية ولم تسجل أسماؤهم في السجلات لقد تم تغيبهم عائلاتهم تبحث عنهم من سنوات وهذا دليل علي عمليات القتل الجماعي ودفنهم في مقابر جماعية، إن المعتقلين أموات خلف القضبان «الداخل مفقود والخارج مولود».

الجارديان البريطانية – المعلومات المتوفرة من عدة مصادر ومقابلات لمعتقلين سابقين أنه يجري في المعتقلات العراقية انتهاك كبير لحقوق الإنسان من تعذيب بالجلد والماء الحار والبارد والتعليق بالمراوح السقفية وقطع الأصابع وقلع الأظافر وكي بالسجائر والصعقات الكهربائية واغتصاب بالجملة ويتناوب عدة أشخاص علي المعتقل أمام المحققين وتشويه وتعذيب وتغييب لا أحد يعرف عن مصير المعتقل وعمليات إعدام ليلية ودفن الجثث بالشفلات / اللودر.

التايمز البريطانية –في المعتقلات السرية لوزارة الداخلية وللأحزاب الحاكمة يجري قتل مبرمج عن طريق التعذيب علي جهة القلب إلى أن يموت المعتقل بعد فترة وهو اغتيال سياسي مبرمج للأبرياء لمجرد الاختلاف معهم مذهبيا وسياسيا

ولم يكونوا مع الاحتلال.

صحف أمريكية – السجون العراقية السرية لاتخضع لإشراف لجنة الصليب الأحمر الدولي ولا لجمعيات حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية والانتهاكات ضد حقوق الإنسان بإشراف أعلى المستويات السياسية وكبار الضباط.

جمعية الصليب الأحمر الدولي – لم يسمح لنا لزيارة أغلب السجون العراقية ولم نجد أسماء كثيرة من المعتقلين في السجلات وتغيب الكثير في السجون تجري كثير من حالات التعذيب والاغتصاب والانتهاكات لحقوق الإنسان مستمرة.

منظمة الشفافية العراقية – اللواء قاسم عطا الناطق الرسمي باسم قيادة عمليات بغداد يسوق لاعترافات كاذبة علي أساس أنها اعترافات المعتقلين في كيل الاتهامات لحزب البعث والمقاومة الوطنية العراقية ولم يستطيع إثبات دليل واحد مع العلم أنه كان «رائد» في الجيش الوطني وأصبح فورا برتبة «لواء» وأخوه عضو في المجاميع الخاصة الإيرانية.

تقرير لجنة العفو الدولية – الانتهاكات لحقوق الإنسان مستمرة في سجون ومعتقلات وزارة الداخلية فالتعذيب بأنواعه والاغتصاب وازدحام المعتقلات وطلب الرشوة والفدية من المعتقلين الأبرياء والمحجوزين بدون تهمة أو تحقيق.

لجنة حقوق الإنسان العراقية – التعذيب والاغتصاب مستمر في المعتقلات والاختطاف مستمر كذلك من أجل الحصول علي الفدية.

لجنة حقوق الإنسان العراقية – تسقيط المعتقل العراقي بالاغتصاب هو بأمر من دولة جارة بسبب حرب الثمان سنوات وانتصار العراق عليهم.

لجنة حقوق الإنسان العراقية – في سجن التسفيرات تم اغتصاب أكثر من ١٥٠ معتقل تناوب علي اغتصابهم ٤٥ شرطي وتم تشكيل لجنة تحقيق بالأمر والنتيجة تم غلق التحقيق مع الشرطة بأوامر من الأحزاب الطائفية....

لجنة حقوق الإنسان – تطالب التحقيق في مسالة انتحار موقوف نتيجة عدم تحمله التعذيب وتهديده بالاغتصاب.

النائب عن التيار الصدرى أحمد المسعودي من الكتلة الصدرية – في سجن الحلة اغتصب المحققون معتقلين وقد اعترفا له بذلك «تصريح للفضائيات»...

النائب أحمد المسعودي – تعرضت زوجة معتقل للاغتصاب في سجن الرمادي لإجباره علي الاعتراف.

النائب أحمد المسعودي – معتقل في الديوانية ونتيجة التعذيب تم قطع أصابع

يده اليمني في التحقيق.

النائب أحمد المسعودي – أثر المعلومات الخطيرة والمرعبة وامتهان كرامة الإنسان المعتقل باغتصابه وقابلت علي أثرها رئيس مجلس القضاء الأعلى وأخبرته بالانتهاكات لحقوق الإنسان في المعتقلات وممارسة التعذيب البشع وخاصة الاغتصاب الجنسي وقد وعدني بإجراء التحقيق الفوري ولكنه لم يحرك ساكنا ولم يتخذ أي إجراء «فمن أمن العقاب ساء الأدب».

محمد رضا المياحي – معتقل في استخبارات البصرة من جيش المهدي موقوف ومنعوه من النوم ثلاثة أيام لعدم وجود مكان له لازدحام القاعة وفيها أكثر من ١٥٠٠ معتقل دفع فلوس وخرج من المعتقل بدون تحقيق.

سجن ميناء البصرة – صدر أمر قضائي منذ سنتين لإطلاق سراح بعض المعتقلين لعدم توجيه تهمه لهم ولم يتم تنفيذ الأمر بإطلاق سراحهم ولا يزالون متحفظين عليهم.

معتقل من القادسية – ٤ شرطة تناوبوا علي اغتصابه وهو يصيح ولم ينجده أحد وتحت سمع وبصر المحققين وأُطلق سراحه بعد أسبوع من اعتقاله.

لجنة حقوق الإنسان – سجن النساء في الكاظمية يتحول إلي مبغي عام ويجري اغتصاب المسجونات من قبل كبار ضباط الداخلية ويجري اعتقال بعض الساقطات لتشويه سمعة بقية المعتقلات.

مركز شرطة الحامضية في الأنبار – اعتقالات عشوائية دون الرجوع إلي أي جهة قضائية وتجري إعدامات بدون حكم قضائي.

المثني – ظهرت كتابات علي جدران البيوت معادية للاحتلال وإيران علي أثرها جرت حملة اعتقالات عشوائية لعشرات الشباب عسى أن يكونوا من بينهم من كتب الشعارات وتم تعذيبهم بالكهرباء والخراطيم والماء الحار والبارد والكي بأعقاب السجائر والتعليق بالمراوح السقفية والتهديد بالاغتصاب.

نضال شبيب – توجد عدة سجون سرية للنساء يجري فيها أنواع الاغتصاب.

كركوك – الآسايش والبشمركة[1] يمارسون ضد المعتقلين الاهانات

(1) الأسايش : هي قوات الأمن الكردية، والبيشمركة : هي قوات حرس إقليم كرستان ورغم تبعية التشكيلين لإقليم كردستان إلا أن عناصرهما تتواجد في المناطق التي يعتبرها الأكراد جزءًا من إقليمهم وما تسمى «المتنازع عليها».

والتعذيب والتجويع والحرمان من النوم وازدحام المهاجع والاغتصاب الجماعي.

في القادسية مخبر سري لكثرة التقارير التي كتبها وسببت اعتقال العشرات تم منحه رتبة «رائد» وأصبح هو الذي يعذب المعتقلين الذين سبب في اعتقالهم نتيجة تقاريره وللحفاظ علي رتبته.

في كربلاء معتقل عمره ١٦سنة اعتقل لمجرد أنه واقف عند باب داره وشاهد كيف يسحلون المعتقلين ليصعدوهم إلي السيارات وأصيب بالهستيريا لمشاهدته تعذيب الآخرين بشكل رهيب.

الكتلة الصدرية – يجري تعذيب المعتقلين في كربلاء داخل مهاجعهم واغتصابهم وتم تصوير ذلك وهم يعانون من تكسير العظام وأمراض مختلفة.

أما الأمريكان – في اعتقالهم للنساء وإطلاق سراحهن بعد يومين في بعض الأحيان ليثار الشك حولهن بأنهم قد اغتصبوهن ولذلك يتم قتلهن بدون التأكد من قبل الأهالي غسلا للعار ولمجرد الشك.

القادسية – في سجونها تعذيب لا يطاق من أجل الحصول علي اعترافات كاذبة وإعدامات بالجملة والاعتقالات تتم بناء علي تقارير المخبرين السريين.

أطباء بلا حدود – لم يسمح لنا بزيارة السجون السرية التي ينتشر فيها الجرب والسل والصرع والسرطان وتلف خلايا الدماغ نتيجة التعذيب.

الاتجاه الأخر – أبشع أنواع التعذيب في سجون الموصل وإجبار أحد شيوخ المساجد للاعتراف أنه يمارس اللواط في المحراب وعمره ٧٥ سنة بعد تهديده باغتصاب بناته أمامه وعرض اعترافاته علي شاشات العراقية وأطلق سراحه بعد تسقيطه وأخري اعترفت أنها ساقطة وأهل الموصل يعرفون نزاهتها وعفتها وأطلق سراحها بعد عرض اعترافها.

زيارة نائبي رئيس الجمهورية[1] – عرضت الزيارات علي شاشات الفضائيات وشاهدا ازدحام أقفاص المعتقلين وكأنهم حيوانات وانتشار الأمراض خاصة السل والجرب وبعضهم معوقين وقد بين المعتقلون أنواع التعذيب التي تعرضوا لها وأغلبهم لم يجري تحقيق معهم منذ سنتين وهاجم المالكي الزيارة واعتبرها مدخلاً بشؤون الدولة. «إنها زيارة خطابات استعراضية ودعاية انتخابية».

مصادر مختلفة – يجري ليلا وخلال ساعات منع التجول وفي كل المعتقلات

(1) السني: طارق الهاشمي، والشيعي: عادل عبد المهدي.

السرية إعدام العشرات وترمي جثثهم أما علي النفايات وتقرير الشرطة صباح اليوم التالي العثور علي جثث لمجهولي الهوية أو يتم الدفن في مقابر جماعية في حفر مهيأة مسبقا.

انتشار مرض الاكتئاب بين الأطفال الذين تم إطلاق سراحهم من المعتقلات نتيجة مشاهدتهم لعمليات التعذيب والاغتصاب.

مقرر مجلس حقوق الإنسان للأمم المتحدة في جنيف – العراق أكثر بلد يجري فيه اضطهاد الصحفيين واعتقالهم وتعذيبهم لمنعهم من متابعة الأحداث التي تجري.

جمعيات حقوق الإنسان العراقية – في السجون والمعتقلات والمواقع السرية لوزارة الداخلية وللميليشيات والأحزاب جرت فيها تصفية الآلاف من العراقيين خلال السنوات الماضية قسم منهم خلال التعذيب والقسم الأخر من الذين أطلق سراحهم قضائيا وبدلاً من ذهابهم إلي أهاليهم كانوا يعدمون بإطلاقة علي الرأس ويرمون علي النفايات أو في أحواض المياه الثقيلة أو يرمون في الطب العدلي.

حقوقيون عراقيون – أساليب التعذيب في سجون وزارة الداخلية العلنية والسرية بطرق مستحدثة منها التثقيب بالدريل الكهربائي/ الشنيور/ ثم التقطيع بالمنشار الكهربائي وتقطيع أوصال المعتقل وتوزيعها في عدة مناطق ثم الحقن بالمواد الكيماوية إلي إن يموت الضحية وحرق المعتقل حيا ويترك ليموت ثم الصعقات الكهربائية بالتيار الكهربائي العالي ويتفحم المعتقل وكذلك قلع العيون وصب الحامض«الأسيد» في المحاجر.

جهات صحية – انتشار حالات الصرع والجنون وفقدان الذاكرة واختلال التوازن بين بعض المعتقلين الذين أطلق سراحهم.

جهات صحية – كثير من المعتقلين المرضي لم يتم عرضهم علي الأطباء أو إرسالهم للمستشفيات للعلاج ولذلك تحولت إلي أمراض مزمنة وأمراض سرطانية وتوفي الكثير بعد إطلاق سراحهم.

منظمة الدفاع عن حقوق الإنسان «هيومن رايتس ووتش « نشرت يوم، الثلاثاء، ٢٧ / ٤ / ٢٠١٠ تقريرا أكدت فيه أن المحتجزين في مركز احتجاز سرّي في بغداد، وأحدهم بريطاني الجنسية، تعرضوا إلى «فظائع» تعذيب منهجية وعمليات اغتصاب، وأجبروا على التوقيع على اعترافات كاذبة، مطالبة السلطات العراقية بضرورة التحقق بشكل مستفيض بالأمر ومقاضاة جميع المسؤولين الحكوميين والأمنيين الضالعين في هذه القضية.

وقالت المنظمة في تقريرها ، إنها قابلت «٤٢ سجيناً بمركز احتجاز الرصافة في ٢٦ إبريل ٢٠١٠، وكانوا من بين ٣٠٠ محتجز نُقلوا من مركز احتجاز سري في مطار مثنى القديم غرب بغداد»، وكشفت أن «السجناء أكدوا أنهم تعرضوا لعمليات تعذيب منهجية كتعليقهم من أرجلهم وتعرضهم للركل والضرب بالسياط والأيدي، والصعق بالكهرباء والاغتصاب، وإجبارهم على ممارسة الشذوذ».

وأضافت المنظمة في تقريرها أن «جميع المحتجزين الذين تمت مقابلتهم وصفوا نفس أساليب التعذيب المستخدمة من قبل المحققين العراقيين، إذ قام السجانون بتعليق السجناء المقيدين بالأصفاد بأعين معصوبة من أرجلهم باستخدام قضيبين من الحديد، أحدهما يوضع وراء باطن الساق، والآخر على الذقن. وكانوا جميعاً مصابين بندب وكدمات حديثة مروعة في سيقانهم».

ولفت التقرير على لسان عدد من المعتقلين إلى أن «التعذيب كان كثيفاً أثناء الأسبوع الأول في المثنى، حيث قام المحققون بركلهم وضربهم بالسياط والأيدي، كما وضع المحققون حقائب بلاستيكية على رأس المحتجزين وأغلقوا عنهم منافذ الهواء، وعندما يفقد المحتجز وعيه جراء ما يتعرض له، يقومون بإفاقته عبر صدمة كهربية»، بحسب التقرير.

وأشار التقرير إلى أن المعتقلين ذكروا أن «مسؤولي الأمن أثناء الاستجواب، سخروا منهم، ووصفوهم بأنهم «إرهابيون» و«بعثيون»، ولوقف التعذيب، على حد قول المحتجزين، كانوا يضطرون إما للإدلاء باعترافات كاذبة أو يوقعون أو يبصمون على اعترافات جاهزة دون أن يطالعوها».

وأظهر التقرير أن المحتجزين «حتى بعد الاعتراف، على حد قول الكثيرين من المعتقلين، كانت تستمر ممارسات التعذيب بحقهم».

كما لفتت منظمة «هيومن رايتس ووتش» في تقريرها إلى «وجود أساليب تعذيب أخرى تعرض لها السجناء، كقيام بعض المحققين ومسؤولي الأمن باغتصابهم بمقشات خشبية ومسدسات، على حد قول المحتجزين».

ونقل التقرير عن السجناء قولهم «إن المحققين اغتصبوا المحتجزين الأحدث سناً، الذين تم نقلهم بعد ذلك إلى مواقع احتجاز مختلفة»، كما ذكر أن «بعض الشبان قالوا إنهم أُجبروا على ممارسة الجنس مع المحققين والحراس، فضلا عن إرغام بعض المحتجزين على الاعتداء جنسياً على أحدهم الآخر».

وبين تقرير المنظمة الدولية أن «مسؤولي الأمن قاموا بجلد المحتجزين بأسلاك كهربية غليظة، ونزعوا عنهم أظافر اليدين والقدمين، وحرقوهم بالأحماض

والسجائر، وكسروا أسنانهم، أما إذا استمر المحتجز في رفض الاعتراف، فأنهم يهددونه باغتصاب زوجته وأمه وشقيقاته وبناته»، ونقل عن السجناء تأكيدهم أن «جلسات الاستجواب كانت تستغرق عادة ما بين ثلاث إلى أربع ساعات، ولكل ثلاثة أو أربعة أيام».

وأوضحت المنظمة أن «السجناء الـ ٤٢ الذين تمت مقابلتهم قالوا إن الجيش العراقي احتجزهم بين أيلول « سبتمبر » وكانون الأول « ديسمبر » ٢٠٠٩ بعد مداهمات واعتقالات في الموصل وحولها، وهي معقل للجماعات العربية السنية المسلحة، ومنها القاعدة في بلاد الرافدين»، مضيفة أنهم «نقلوا بعدها ضمن ٣٠٠ سجين آخرين إلى سجن الرصافة، الذي يتكون من مجموعة من ١٩ زنزانة كبيرة على هيئة أقفاص حديدية، على مدار الأسابيع القليلة الماضية، بعد أن انكشف وجود السجن السري في مطار المثنى القديم.

وأورد التقرير بعضا من شهادات المعتقلين وتاريخ اعتقالهم وطرق التعذيب التي مورست ضدهم، ومن بينهم محتجز بريطاني الجنسية وكان برتبة لواء في الجيش العراقي السابق، ويتحرك على كرسي متحرك، وتم اعتقاله في ٧ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٩، بعد أن عاد إلى الموصل من لندن للبحث عن ابنه الذي كان محتجزاً، حيث رفض سجانوه منحه دواء السكري وارتفاع ضغط الدم، وروى على حد قوله لـ«هيومن رايتس ووتش» ما حدث معه قائلا «تعرضت للضرب المبرح، لاسيما على رأسي وكسروا أحد أسناني أثناء الضرب، وعذبني عشرة أشخاص، أربعة من لجنة التحقيق وستة جنود، واغتصبوني بعصا، ثم أُجبرت على توقيع اعتراف لم يدعني أحد منهم أقرأه».

واعتبر تقرير المنظمة أن «روايات الرجال كانت تتمتع بالمصداقية ومتسقة فيما بينها، فضلا عن أن نسبة كبيرة من الثلاثمائة رجل محتجز كشفت عن ندبات وكدمات وإصابات جديدة، جراء التعذيب المنهجي والمتكرر الذي تعرضوا له على أيدي المحققين في المثنى الذين كانوا يتهمونهم بالمساعدة على الإرهاب والتحريض عليه»، وفق قولهم.

ونقل التقرير عن نائب المدير التنفيذي لقسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في المنظمة، جو ستورك، قوله إن «الفظائع التي اطلعنا عليها توحي بأن التعذيب كان هو المنهج السائد في المثنى، وعلى الحكومة أن تقاضي جميع المسؤولين عن هذه الوحشية الممنهجة»، بحسب التقرير.

وطالب ستورك في التقرير السلطات العراقية بـ«تشكيل هيئة تحقيق مستقلة ونزيهة للتحقيق في أحداث سجن المثنى، وأن تحدد المسؤولين عنها وتقاضيهم، ومن

بينهم أي شخص مسؤول في السلطة أخفق في منع وقوع التعذيب، مع ضمان أن المحاكم لن تأخذ بأي اعترافات يتم استخلاصها عبر التعذيب».

وأكدت المنظمة أن عدة مصادر مطلعة أبلغتها بأن «مركز الاحتجاز السري المذكور يخضع لإشراف المكتب العسكري لرئيس الوزراء نوري المالكي».

وكان سجن المثنى يضم أكثر من ٤٣٠ سجيناً قبل نقلهم إلى مراكز احتجاز أخرى في وقت مبكر من هذا الشهر، وعلى مدار شهور، لم يكن أحد يعرف بأماكنهم، ولم يكن متاحاً لهم الاتصال بأسرهم أو محاميهم، كما لم تصدر بحقهم وثائق رسمية أو حتى أرقام احتجاز أو أرقام قضايا، فيما كان قاضي تحقيق ينظر في القضايا من حجرة قريبة من إحدى حجرات التعذيب في مركز الاحتجاز، بحسب أقوال المعتقلين.

وكانت صحيفة لوس أنجلس تايمز، وبعد أن كشفت لأول مرة عن الانتهاكات في سجن المثنى في ١٩ أبريل/نيسان، بادرت الحكومة العراقية للقول بأنها ستحقق في مزاعم التعذيب، وأعلنت قيامها بالقبض على ثلاثة ضباط بالجيش على صلة بهذه الإساءات، فيما أصدر رئيس الوزراء المنتهية ولايته نوري المالكي قرارا بإلغاء السجن، ومحاسبة كل المسؤولين عن هذه الأعمال قضائيا».

وعلق رئيس الوزراء المنتهية ولايته نوري المالكي بأنه لم يكن على علم بالانتهاكات التي تمارس في السجن السري في مطار المثنى القديم، غرب العاصمة العراقية بغداد، الذي تديره قوات تابعة لقادته الأمنيين مباشرة، مبرراً أن نقل السجناء إلى بغداد بأنه جاء «بسبب مخاوف متعلقة بالفساد الذي تشهده مدينة الموصل»، مؤكداً أنه «ستتم محاسبة كل من تثبت إدانته بالقيام بأعمال التعذيب ضد السجناء».

ولكن منتقدي المالكي تساءلوا كيف يمكن له أن لا يعرف ما كان يجري في السجن والإفصاح عن ذلك بغض النظر عما إذا كان مسؤولاً أم لا.

ويشير التقرير الذى نشرته منظمة « المعلومات والرصد الذراع الاستخباري للمقاومة العراقية» إلى أنه في زمن حكومة السيد «إبراهيم الجعفري» بدأت مرحلة تأسيس السجون الملونة والخاصة وكذلك السجون السرية وتم تغيير تسمية الغاية من السجون والتي هي الإصلاح والتهذيب وتحويلها الي سجون الحقد الطائفي !! فتم تأسيس السجون الملونة في ما يسمي بقوات حفظ النظام فتوجد هناك القاعات الحمراء والصفراء والسوداء والبيضاء . وكانت هذه المعتقلات يشرف عليها شخصيا قائد فرق الموت اللواء الركن «مهدي صبيح الغراوي» ويتم

تعذيب المعتقلين علي يد الإيراني العقيد الركن ثائر « أبي تراب » وهو كان برتبة نائب ضابط في إيران !! وكان هناك سجن أخر تم تأسيسه داخل ما يسمي بلواء الذئب التابع إلى وزارة الداخلية ومن ثم تم استلام اللواء من قبل السفاح الأصفر وكما كان يلقب حينها العميد «سلام أكرم شهوان» وكانوا معه مشرفين علي تعذيب المعتقلين كل من العقيد علي والمقدم فلاح والرائد علي أبو فهد والنقيب محمد قمصلة والنقيب شاكر .

بالإضافة إلى هذه المعتقلات كانت هناك معتقلات أخرى كمعتقل لواء البركان والذي بأمرة اللواء الركن باسم الغراوي ولواء الكرار الذي بأمرة اللواء الركن « دمج » حامد الطويل ولواء الأسد الذي بأمرة العقيد أمن بشار عبدالله وغيرها من ألوية الداخلية وقد اعتقل محمود المشهداني الذى تولى رئاسة البرلمان عام ٢٠٠٦ في إحدى هذه المعتقلات وقد شاهد بأم عينيه التعذيب والإهانات وغيرها من الأساليب القذرة الأخرى..!!

بعدها تم الكشف عن سجن سري وهو سجن الجادرية والمعروف بالانتهاكات التي ظهرت من خلال شاشات التلفاز والتي كان يشرف عليها الإيراني أحمد المهندس .

بالإضافة إلى ما تم ذكره فهناك معتقلات مراكز الشرطة أيضا وكذلك معتقلات الأحزاب كافة والمرتبطة بالدولة كمعتقل الحزب الكردستاني في منطقة العلاوي ومعتقل جامع براثا ومعتقلات المجلس الأعلى قرب مطار المثني وساحة وهران في منطقة الثورة ومعتقل كراج عجلات الوفود التابع إلى وزارة النقل وغيرها من معتقلات أخرى ومعتقل حزب الله تنظيم العراق في منطقة الحاكمية بالإضافة إلى المعتقلات الموجودة داخل الحسينيات والجوامع.

وقد يتساءل الجميع أين معتقلات وزارة الدفاع؟ في حينها لم تكن وزارة الدفاع قد تلطخت بما يسمي التسييس الطائفي حيث كانت وزارة الدفاع رغم بعض الانتهاكات والتي قد تكون ليست بالكبيرة ولكن لم تكن بقدر ما كانت تقوم به ميليشيات وزارة الداخلية ..

أما في زمن نوري المالكي .. فقد قام بتحويل وزارة الدفاع إلى الوزارة المسيسة طائفيا وإخراج مجموعة من الضباط السنة بعد أن قام بتعميم كتاب إلى جميع الوحدات التابعة إلي وزارة الدفاع والذي كان عنوانه « التوازن الطائفي » تم من خلاله معرفة عدد الضباط السنة الموجودين داخل وزارة الدفاع .. وبعد ذلك قام بإصدار أمر ديواني تحت الرقم ١٣٤ لعام ٢٠٠٩ بدمج أفراد حزب الدعوة والمجلس الأعلى والذين كان عددهم ١٦٠٠ شخص ومنحهم رتب عسكرية مابين ملازم إلى عقيد وتوزيعهم علي

جميع وحدات الجيش وحصرا في قسم الاستخبارات . وكذلك قام بتأسيس لواء خاص يسمي بلواء بغداد والذي أشرف علي تأسيسه كل من الدكتورة باسمة الساعدي واللواء عدنان المكصوصي وبأشراف مباشر وشخصي من قبل الفريق الأول فاروق الأعرجي مدير مكتب القائد العام للقوات المسلحة والذي كان بأمرة العميد الركن عماد ... أبو شوارب . وكانت مهام هذا اللواء هي الاعتقال العشوائي وكذلك ترهيب وتخويف التجار والمتعاقدين مع الوزارات العراقية

وبعد تأسيس هذا اللواء تم تأسيس معتقل خاص بهذا اللواء تم وضعه داخل مقر الفرقة السادسة وكان المعتقل بأشراف مباشر من قبل مدير استخبارات مكتب القائد العام اللواء حسن كوكز وبأمر من الفريق الأول فاروق الأعرجي ..ولا يتم مراجعة هذا المعتقل من قبل أي شخص وحتى امر (قائد) موقع مطار المثني نفسه

ومن السجون السرية الأخرى هو سجن أمن واستخبارات وزارة الدفاع بإشراف اللواء جمال الفيلي هو داخل المنطقة الخضراء وغير معلن لأي جهة ولا حتى قوات الاحتلال وهذا المعتقل تحت الأرض وكل المعتقلين بداخله من هم مدد اعتقالهم لا تقل عن السنة !!

٣١ - قصاصة الورق القاتلة

لا يكتمل الحديث عن فظائع المعتقلات بالعراق دون الحديث عن بيت القصيد المرعب وهو ما يعرف ب « المخبر السرى » حيث كانت قصاصة ورق أو اتصال هاتفي من مخبر سري تفقد المواطن البريء حياته أو حريته

ويطالب معتقلون عراقيون أفرج عنهم بمحاكمة مخبرين سرّيين أخذ بأقوالهم وتقاريرهم فزج بهم خلف القضبان بناء عليها .. وتدلل الاستعانة بالمخبر السري على هذا النطاق الواسع إلى وجود خلل أمني كبير فى زمن المذبحة .

حقيقة الأمر أنه لا توجد إحصائية رسمية أو شبه رسمية عن أعداد من يزاولون هذه المهنة القذرة والمريبة فى آن واحد إلا أن تأثيرهم على المجتمع العراقى فى زمن المذبحة يعادل أو يزيد على تأثير عصابات القتل وفرق الموت التى عاثت فى البلاد فسادا تحت غطاء غامض من الشرعية المزيفة .. وكما أن فرق الموت لا دين لها ولا طائفة كذلك فإن المخبر السرى مجهول الهوية ومجهول الانتماء .. ويكفى أن نعلم أن أكبر عملية عسكرية خاضتها القوات الأمريكية بعد الإعلان رسميا عن انتهاء العمليات العسكرية الخاصة بغزو العراق عام ٢٠٠٣ وهى عملية «

شبه الجزيرة» التى تم تنفيذها لاعتقال عدد من رموز النظام السابق وجرى خلالها اعتقال المئات من الأبرياء بعد مقتل عدد كبير من المواطنين تمت بسبب معلومة من مخبر سرى عن وجود وزير الدفاع سلطان هاشم أحمد ومدير مكتب صدام راكان والمطلوب الأهم على حسن المجيد فى منطقة الضلوعية / ٩٠ كم شمال بغداد / .. كما أن عمليات قصف وقتل واعتقالات جرت فى مختلف مناطق العراق من جانب القوات الأمريكية والعراقية على حد سواء تمت بناء على معلومة سربها « المخبر السرى » الذى لا يتورع أبدا عن التسبب فى مقتل وإصابة وتشريد واعتقال العشرات لأتفه الأسباب وطمعاً فى مكافأة ممن يعتبرهم أولياءه .

وكما أن المخبر السرى بلا أخلاق فانه يكون غالبا بلا مهنة ويعيش على ما يجنيه من تقاريره الوهمية ضد الأبرياء أو عمليات الابتزاز التى يمارسها ضدهم حتى لا يجتنبوا شره متساءلين عن هذه السلطة الوهمية التى يتمتع بها صاحب المهنة القذرة التى تجعل سلطان الخوف الذى يجيد استخدامه أقوى من سلطان السلطة نفسها .

وكما يستغل المخبر السرى سلطان الخوف لدى المواطنين الأبرياء لابتزازهم فانه يستمد قوته الخارقة من استغلال سلطان الخوف لدى الحكام أنفسهم سواء كانوا أمريكيين أو عراقيين حيث تكفى قصاصة ورقية قذرة من مخبر سرى للقيام بعملية عسكرية يذهب ضحيتها أبرياء سواء موتا أو اعتقالاً دون أن يكلف الحاكم نفسه مشقة التأكد من صحة المعلومة .. فلا مجال للشك فى زمن المذبحة.. وإذا سقط ضحايا فإنهم وقود المعركة التى فرضت عليهم .. فالقوات الأمريكية عملت منذ البداية على مبدأ راح ضحيته العشرات وربما المئات وهو أن الخطأ ولو كان نتيجته قتل برىء لا يشكل خطراً حقيقياً أفضل من الانتظار الذى يمكن أن يحمل خطراً حقيقيا .. ومن هنا استمد المخبر السرى قوته وسطوته التى يكون ضحيتها القاتل والقتيل فى وقت واحد .

٣٢ - وشاية العشيقة

تثير قصة أحمد « أبو شهاب» الضحك إلى درجة البكاء حيث نال مصيراً محفوفا بالمخاطر كاد أن يودى به إلى الموت داخل أحد المعتقلات التى كانت تضم المئات من العرب السنة بعد وشاية من عاشقة غاضبة بعد أن هجرها وفقدت سخاءه وهداياه .. وكانت النتيجة عملية عسكرية واسعة مدعومة بإسناد جوى لاعتقاله بتهمة الانتماء إلى إحدى الجماعات المسلحة وقت ذروة العنف الطائفى

نهاية العام ٢٠٠٦ وبداية ٢٠٠٧ وقد دعم انتماؤه إلى الطائفة السنية تقرير المخبر السرى باعتباره إرهابياً حيث كان يقيم فى منطقة ذات أغلبية شيعية وتخضع لنفوذ جيش المهدى لأنه متزوج من شيعية من أهل الناصرية . (مركز محافظة ذي قار وتبعد حوالي ٣٧٥كم جنوب بغداد) .

ويروى أحد كيف فرضت القوات الأمنية طوقا واسعا على الشارع الذى يقع فيه محل « الجزارة» الذى يمتلكه مع تحليق للطيران الأمريكى واقتادته عناصر أمنية مكبلا بالحديد معصوب العينين مع وجبة دسمة من الضرب والشتائم باعتباره إرهابياً وسط دهشة الجيران سواء من أصحاب المحال أو السكان الذين يعرفونه جيدا باعتباره رجل بعيد كل البعد عن السياسة وغيرها من الأمور الثقيلة على نفسه فهو يقضى يومه بين محل الجزارة والبيت وتتبع الجميلات حتى يفوز بصداقة إحداهن لبعض الوقت وهى الهواية التى كادت أن تكلفه حياته .

كان صوت أحمد وهو يروى قصته يحمل مشاعر متناقضة فهو يضحك أحيانا بشكل هستيرى ثم يعلو الحزن وجهه عندما يتحدث عما لاقاه من أهوال يعتبرها قصاصا سماويا عادلا لهواية العشق التى لا يتورع عنها أبداً .. قال لى: أن رجال الأمن ساقوه إلى المعتقل كما يسوق هو الشاه ليذبحها وربما يعامل الشاة بشكل أقل حدة من الطريقة التى عاملوه بها قبل أن يزجوه فى عنبر الاعتقال الذى تحكى حوائطه بالقهر والموت وتعلوها اثار الدماء المخلوطة بعرق الضحايا بعد وجبات التعذيب « التمام» .

يقول « أبو شهاب» أنه يتم جمع الضحايا من كل حدب وصوب وغالبهم لا يعرفون التهم التى جاءوا بسببها إلى عنابر الاعتقال التى يجرى تقسيمها وفقا لاسم العشيرة التى ينتمى إليها الضحية .. فهذا عنبر « الجبور» وهذا عنبر « المشاهدة» وهذا عنبر « الجنابات» وهى أسماء لعشائر سنية .. ويتم زج الضحية إلى داخل العنبر دون مراعاة لمساحته وإذا كان يحتمل المزيد من النزلاء أم لا ويتم توزيع أسوأ أنواع الخبز كطعام مع زجاجة مياه صغيرة لكل ثلاثة معتقلين فى اليوم .. بينما تجرى عمليات الاستجواب المصحوبة دائما بتعذيب أمام أعين المعتقلين ولا يتوقف التعذيب حتى الحصول على اعتراف مكتوب .. وغالبا ما يجرى كتابة الاعتراف ليقوم المعتقل بتلاوته أمام كاميرا أعدت خصيصا لغرض عرض تلك الاعترافات وقت الحاجة على شاشة التلفاز .

ويقول « أبو شهاب» أن أى معتقل يتمنى الخلاص بأى طريقة من فرط التعذيب وهو ما يفسر هذا الكم من الاعترافات المنظمة التى كنا نشاهدها بشكل

يومى على شاشة القناة الرسمية العراقية وان كنا نعتقد أن جزءا منها حقيقى وأن بعض من يتم عرض اعترافاتهم هم بالفعل مجرمون حقيقيون وليسوا على شاكلة « أبو شهاب» ضحية المخبر السرى .

أما كيف انتهت مأساة « أبو شهاب» على خير دون أن تتطور إلى حد الاعتقال المفتوح أو الموت من التعذيب أو القتل المباشر .. يقول أن زوجته الشيعية الطيبة كانت السبب المباشر فى إنهاء الأزمة بأسرع وقت وبأقل خسائر حيث تنتمى لعائلة تضم عددا من القيادات الأمنية وتمكنت من خلال علاقات ذويها فى الوصول إلى المكان المحدد لاعتقاله وهو أمر لا يتم بسهولة بسبب عدم وجود بيانات واضحة أو غياب سجلات المعتقلين فى أحيان كثيرة .. وبعد حوالى شهرين تم إطلاق سراح « أبو شهاب» وانتهت مأساته دون أن تنتهى من ذاكرته المشاهد المروعة التى اختزنها رغم مرور حوالى ثلاثة أعوام ويؤكد أنها لا يمكن أن تذهب إلى زوايا النسيان .. كما أن جريمة المخبر السرى سوف تظل ماثلة أمامه لتؤرخ أياما قاسية عاشها فى زمن المذبحة .

٣٣ - دم البرىء.. Sorrry Madam

رغم أن وقائع تلك القصة لا تشمل المرحلة الزمنية التى حاولت تغطيتها فى هذا الكتاب والتى امتدت خلالها مهمتى الصحفية منذ منتصف يوليو عام ٢٠٠٦ إلا أننى تحمست لمعرفة تفاصيلها المرعبة والفاجعة فى نفس الوقت لارتباطها بشكل مباشر بقضايا المخبر السرى والجرائم التى تسبب فيها عناصر هذا النظام المريب الذى أقره حكام العراق الجدد من الأمريكيين والعراقيين على حد سواء .

جرت وقائع تلك القصة ليلة الجمعة والسبت يوم ١٧ – ١٨ أكتوبر عام ٢٠٠٤ فى تمام الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل عندما داهمت قوات أمريكية منزل العقيد الركن «عامر محمود فرحان العبيدى» الذى كان قد استقال من الجيش العراقى قبل حوالى خمسة أشهر من بدء الغزو الأمريكى .. حيث قامت القوة الأمريكية المهاجمة بكسر أقفال المنزل مترافقة مع عملية إنزال جوى فوق سطح المنزل وعند خروج العبيدى من غرفة نومه على وقع الأصوات التى أيقظت أهله فتح الجنود الأمريكيون نيران أسلحتهم عليه بشكل كثيف وأردوه قتيلا وأصابوا نجله الطفل واعتقلوه ثم واصلوا المهمة المريبة لينهالوا بالضرب على الزوجة حتى نزف الدم من جسمها ونزفت الدموع من عينها هلعا على مشهد الزوج الذى سقط مضرجا بدمائه بعد أن ثقب الرصاص جسده .

روت لى الزوجة التى لم تجف دموعها حتى الآن وتدعى سندس حميد اللامى

وهى الشيعية التى تزوجت من سنى وأقامت فى منطقة سنية أيام الخير عندما كان الحديث عن الطائفة سنية كانت أو شيعية أمراً غير مقبول كيف انتهك الأمريكيون رافعوا راية الحرية والعدل ستر بيتهم البسيط ومنعوها من وضع غطاء على رأسها وهى العراقية المحافظة وكيف هرع الجنود « المحررون» ليسطوا على خزائن المنزل ويأخذوا كل ما تطال أياديهم الملوثة بدماء الزوج الذى رحل دون أن يعرف بأى ذنب قتل / حلى ذهبية .. أموال عراقية .. دولارات أمريكية .. عطور .. ملابس حتى حصالات الأطفال الخمسة حيث كانوا يحتفظون ببعض نقودهم الصغيرة.

صرخت الزوجة الملكومة وحاولت أن ترتمى فى أحضان زوجها القتيل لآخر مرة ربما تحتفظ ببعض الدفىء الذى يعوضها عن فقدانه بعد أن يغيب إلى الأبد وهى الزوجة الشابة التى لم يلامس عمرها بعد نهاية العشرينات إلا أن أحد عناصر القوة المهاجمة ضربها بإخمص البندقية وداسها بحذائه الغليظ وحال بينها وبين الضحية المضرجة بدمائها رغم أن المسافة بين الزوجين لم تكن تزيد على المترين وذلك إمعانا فى تعذيب من بقى على قيد الحياة من هذه الأسرة المنكوبة الذى استحال هدوء أيامها إلى عاصفة هوجاء اقتلعت رب الأسرة من أحضان الزوجة الشابة والأبناء الخمسة .

تقول سندس أنه بعد حوالى ساعتين من الأهوال التى بدأت بقتل الزوج البرىء جاء مترجم أدار الحوار بين أسرة الشهيد وقائد المجموعة المهاجمة حيث أكدت لهم أن زوجها لا علاقة له الآن بنظام صدام حسين وأنه ذهب بنفسه إلى مقر القوات الأمريكية المتواجد بالمنطقة وحصل على كتاب «شهادة» تثبت عدم مشاركته فى عمليات المقاومة وأحضرت صورة تلك الشهادة التى قرأها قائد المجموعة الأمريكية وتأكد من صحتها ولهذا ترك الجثة ولم يأخذها عند انسحاب القوة وقال لها بأعصاب باردة ، يبدو أن المعلومات التى قمنا على أساها بتنفيذ العملية كانت خاطئة ونعتذر عن قتل الضحية !! « Sorry Madam»

فسرت لى الزوجة المكلومة الأمر « لقد كانت وشاية من شخص ساقط يقوم بدور المخبر السرى للأمريكان يدعى «فارس عزاوى زعيتر» بعد أن منحوه محلا صغيرا يمارس فيه مهنته الأصلية وهى إصلاح كاوتشوك السيارات أو ما يسميه العراقيون « بنجرجى» ، قالت سندس أن هذا المجرم الذى لقى جزاءه العادل على أيدى اسياده من الأمريكان بعد أن تعددت وشاياته الكاذبة كان يحصل على ٤٠ دولاراً فقط نظير كل قصاصة ورق قاتلة يكتب عليها وشايته التى غالبا ما تؤدى إلى قتل أحد الأبرياء » .

بعد أن استعادت سندس عافيتها بعض الشيء مما أصابها من أمراض جراء حملة الرعب والترويع التى تلقتها مع أسرتها الصغيرة من القوة الأمريكية المهاجمة التى نفذت جريمتها بدعوى شكوك حول دور لزوجها فى عمليات المقاومة دون التأكد من تلك المعلومات احتضنت الأرملة المكلومة أطفالها الخمسة لترتسم لديها صورة عما يعانيه الأيتام وعرفت معنى أن تمس يدها الحانية طفلا بريئا فقد أبا بريئا وأن تدغدغ مشاعر أطفال فى عمر الزهور لتعوضهم بعض الشيء عن فقدان عائلاتهم بلا سبب معقول .

أسست سندس دارا للأيتام تضم ٧٥ طفلا ويتردد عليها حوالى ٤٥٠ طفل ممن فقدوا آبائهم على أيدى قوات الاحتلال الذين تتراوح فئتهم العمرية بين الصف الأول إلى السادس الابتدائى إلا أن مشروعها مازال يحتاج المزيد من العون شعبيا ورسميا حتى يكتمل وتعم فائدته النفسية والعلمية على منتسبيه من أيتام زمن المذبحة .

مازالت سندس الزوجة الشابة المكلومة تتساءل عن حقها وحق أطفالها الخمسة ومن يعوضها عن كل ما جرى ؟؟ تتساءل «حتى وإن حصلت على تعويض عادل وفقا لما تسوقه الولايات المتحدة عن أنها دولة راعية لحقوق الإنسان وأنها جيشت الجيوش لتنهى حكم صدام الديكتاتور وتنشر الديمقراطية فمن يعوضنا عن دم البرىء .. حينها سوف أعتذر عن شكوكى فى العدالة الأمريكية وأرد كلمة الجنرال الأمريكى الذى اعتذر عن قتل زوجى لإساءتى الظن به وأقول له « Sorry General» .

٣٤ - الشبح

ذات مرة تعرفت على شخصين حضرا لتأجير شقة فى العمارة التى كان يقع بها مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط قدما نفسيهما على أنهما ضابطان فى وزارة شئون الأمن الوطنى وهى وزارة ليس لها هوية توازى ما تقوم به أجهزة المخابرات وكان كل منهما يحمل هوية تشير إلى أن رتبته مقدم وكان يبدو عليهما علامات الثراء وينتميان إلى عشيرتين كبيرتين ويستقلان سيارات فارهة .. وعندما أصبحا جيرانا لى علقا اسما وهميا لشركة وهمية على باب المكتب الذى كان وكراً للملذات والسهرات الحمراء .. فى إحدى المرات وجها الدعوة لى لعشاء يحضره أشخاص مهمون يريدون أن أتعرف عليهم كان بينهم رجل مسن يدعى دكتور نورى قالوا أنه كان سكرتيرا شخصيا للدكتور إياد علاوى رئيس الوزراء الأسبق ومسئول بوزارة التجارة يدعى باسم صدام وبعض كبار التجار والغريب أن بين الحاضرين شخصا قدموه لى على أنه شقيق مشعان الجبورى النائب السنى

البارز صاحب قناة الزوراء التى أجبر على إغلاقها بعد تدخل ذوى النفوذ من حكام العراق الجديد وخاصة قيادات التيار الصدرى والمجلس الا على باعتبارها قناة تحريضية تفضح جرائم فرق الموت والميليشيات وتروج للمقاومة السنية ولم تكن هناك وسيلة متاحة للتأكد من هوية الأشخاص الذين حضروا ذلك العشاء إلا من خلال تأكيدات شخص كان يقيم بالمكتب يحمل هوية نقابة الصحفيين العراقيين ويصدر جريدة « تابلويد» اكتشفت فيما بعد أنه مصور أفراح وإن كانت هوية نقابة الصحفيين التى يحملها حقيقية وصادرة من النقابة التى يحمل صورتها المئات وربما الآلاف ممن لا ينتمون إلى المهنة العريقة والنقابة العريقة كصورة واضحة للخلل الذى أصاب شتى مناحى الحياة بالعراق الجديد خاصة فى زمن المذبحة .

ومن خلال الحوارات التى دارت أثناء العشاء وبعده اكتشفت حقيقة الرجلين وما هما الا مخبرين سريين مدعومين بأسماء عشائرية كبيرة ويمارسان الابتزاز فى أفظع صوره ويديران صفقات مشبوهة من خلال وكر الملذات الموجود تحت عنوان وهمى فى العمارة التى أعمل وأقيم بها .. ويبدو أن توجيه الدعوة لى الذى كان يهدف إلى كسب ثقتى كان بداية كشف خطوط كثيرة فى عالم المخبر السرى بطريقتى الصحفية البسيطة التى لا تعطى أى انطباع بالاهتمام أو القلق مما أعرف من معلومات .. وهو ما جعلهم يكررون دعوتى لعزائمهم وأكرر أنا الموافقة والحضور حتى لا يظهر القلق كحجر عثرة فى سبيل علاقة ناشئة بفعل الجوار والرغبة الحصول على فيزا إلى مصر وهى الحلم الذى يراود آلاف العراقيين باعتبارى الصحفى المصرى الوحيد المتواجد بالعراق فى تلك الفترة من زمن المذبحة بعد أن قطع مراسل الأهرام مهمته لمدة عام تقريبا.

وبسبب عامل الثقة الذى تمكنت من زرعه فى قلب « رعد» و« وجاسم» كانا يرويان لى الكثير خاصة فى لحظات الصفاء التى تتبع نشوة الوصول إلى مرحلة السكر بفعل الويسكى الذى كان يأتى إليهم بالجملة وليس مفردا من خاطبين للود وراغبين فى الستر وخائفين من الغدر وطامعين فى قضاء أمر خاصة إذا كان غير شرعى .

قال لى « رعد » ذات مرة وقد غلبته نشوة الخمر « إن المتهم الذى يكون محل التقرير لا يستطيع إثبات براءته لأن الشخص الذي وجه له الاتهام عبارة عن شبح » .

سألته من أين يستمد قوته قال « أن الجميع يحتاجون إلى خدماتنا بما فيهم قادة جيش المهدى نفسه وسوف أثبت لك هذا عندما أصحبك غداً إلى التظاهرة المليونية التى دعا إليها السيد مقتدى فى ساحة الفردوس فنحن من يقول كيف

كانت ومن الذى غاب أو حضر وكيف كان أداؤه » .

ويبدو أن حالة القلق كانت تنتاب « جاسم» الذى شعر بأننى عرفت أكثر مما ينبغى رغم تظاهرى بالعكس وهو ما جعل بوادر شر تلوح فى أفق تلك العلاقة بعد مرور عدة أشهر وتسلل الرعب إلى نفسى مما دفعنى إلى البحث عن مخرج من تلك العلاقة وتلك المنطقة بالكامل وهو ما تحقق لى عندما قرر مالك العمارة الجديد رفع أسعار الإيجارات وهو مبرر كاف لأن توافق الوكالة على الانتقال إلى مقر آخر أقل تكلفة بالنسبة لهم وأكثر أمنا بالنسبة لى بعيدا عن سطوة المخبر السرى قبل أن تنالنى بعض من شروره .

وتروي «أم علي» قصة ابنها (١٩ عاما) عندما خضع لاستجواب مطول حول تجارته بالأسلحة .. وتقول إنه اعتقل بعد مشاجرة مع أحد الطلاب الذي يعمل والده ضابطا في الشرطة، إذ هدده بشكل علني بإيداعه السجن. وفي الليلة ذاتها دهمت قوة من الشرطة مسكنها واقتادت أيمن من فراشه وسط ذهول العائلة.

وتؤكد أنها اضطرت إلى الذهاب إلى منزل الواشي والاعتذار من والده والتعهد بنقل ابنها إلى مدرسة أخرى فتم الإفراج عنه.

أما زهراء عبد الرضا فعاشت تجربة مريرة عندما اكتشفت أن أحد تلاميذ زوجها المدرس في منطقة بغداد الجديدة هو الذي قدم تقريرا عن مدرسه واتهمه بإيواء الإرهابيين.. وتقول إن عائلة الصبي كانت على خلافات عائلية معها وأن التلميذ اتهم زوجها في تقرير سري بإيواء العناصر الإرهابية فكانت النتيجة اختفاء الزوج منذ أربع سنوات وتؤكد أنها اكتشفت هذا الأمر صدفة عندما بدأت البحث عن زوجها في المعتقلات.

وتقول إن المخبرين السريين يعملون بطريقة مشابهة لتلك التي كان يعمل بها البعثيون السابقون، عندما كانوا يقدمون تقارير كيدية للحصول على ترفيع وظيفي أو مكافأة نقدية.

وتضيف أن عدداً كبيراً من المواطنين تعرضوا للاعتداء والتجاوز والاعتقال والحبس بسبب وشايات كاذبة ومغرضة قام بها المخبر السري وعاشوا معاناة لا يمكن تصورها جراء تبليغات كاذبة وردت الدوائر الأمنية من مخبرين سريين وهناك مواطنون تعرضوا للتسليب المالي وبعضهم يشعر بالإحباط لأن اسمه وسمعته اهتزت جراء وشاية كيدية.

وتقول «إن الجريمة تبحث عن أي منفذ لتحقيق أغراضها في استلاب الناس حقوقهم وراحتهم والكثير من المواطنين من أصحاب المال والمهن الحرة يكونون هدفاً

لمثل هذه المؤامرات والاتفاقات التي ينجر لها ذوو النفوس المريضة والمجرمون المنخرطون في صنوف القوى الأمنية، ويتعرضون للإهانة والاعتقال من جراء المخبر السري، ولا تنتهي القضية حتى يتم امتصاص مبالغ كبيرة من(المتهم) زوراً وبهتاناً.

وقد أشار تقرير أصدره مرصد الحقوق والحريات الدستورية الذى يرعاه عضو مجلس النواب السابق حسين الفلوجى أن حوالي عشرين ألف حالة اعتقال جرت خلال عام واحد اغلبها كانت عن طريق معلومات يقدمها المخبر السري.

وأكد المرصد في تقريره ضرورة الالتزام بمحاسبة كل من يقدم معلومات إلى الأجهزة الأمنية تثبت التحقيقات أنها كيدية والالتزام بالتعويض (المادي والمعنوي) للمتضررين الأبرياء، سواء من جرى اعتقاله وثبتت براءته، أو من لقي حتفه أثناء تنفيذ الاعتقال أو في السجن ثم ثبت أنه كان بريئاً .

وأشار مرصد الحقوق والحريات الدستورية إلى أن الحكومة شنت عمليات عسكرية أسهمت في استتباب الأمن والقضاء على أوكار الإرهابيين، لكن تلك العمليات العسكرية رافقتها انتهاكات شديدة لافتة للنظر، متمثلة بالعديد من عمليات الاعتقال العشوائي حيث استندت الحكومة في أغلب اعتقالاتها إلى تقارير استخبارية تعتمد بدورها على تقارير مخبرين سريين وأن كثيراً من الأبرياء جرى اعتقالهم استناداً إلى هذه التقارير التي تشوبها الأخطاء وعدم الدقة والكيدية .

وذكر المرصد في تقريره أنه لاحظ ووفق معطيات وقرائن عدة، أن الحكومة لم تجر مراجعة تقويمية لظاهرة المخبر السري، ولم تأخذ بنظر الاعتبار أهلية هذا المخبر وصدقه، ولم تتشدد في فرض معايير رصينة يتم الاحتكام إليها في اختيار المخبر السري (السمعة الحسنة والسجل الجنائي النظيف والصدق والأمانة والالتزام الديني والاجتماعي، والولاء الوطني غير المشوب بشبهة التحزب والطائفية والعنصرية)، نظراً لأهمية الدور الذي يقوم به وتأثيره (سلباً أو إيجاباً) على الأفراد والمجتمع وانعكاسه على أداء الأجهزة الأمنية ومسارات تحقيق العدالة .

ولاحظ المرصد، أيضاً، أن الأجهزة الأمنية لم تتخذ السبل الكفيلة في التحري عن حقيقة المعلومات الواردة لها، مكتفية بإلقاء القبض على ماتسميهم (المشتبه بهم تبعا لتلك التقارير) ووضعهم في السجون لشهور انتظارا لعرضهم على قضاة التحقيق .

وجاء في التقرير أن المرصد، يأخذ على الحكومة والأجهزة الأمنية والجهات المعنية الأخرى، لاسيما وزارتي حقوق الإنسان والعدل واللجان المختصة في مجلس النواب، عدم تعاطيها بمسؤولية مع كثير من تقارير المرصد السابقة التي أشارت بفصاحة إلى زجّ العديد من المواطنين الأبرياء في السجون جراء وشايات كاذبة وتهم كيدية وإخبارات

ملفقة قام بها مخبرون سريون بهدف تصفية حسابات شخصية أو عائلية أو انخراطاً في إملاءات ترمي إلى تكريس الاحتقان الطائفي والعرقي وزرع البغضاء والأحقاد بين أبناء المدينة الواحدة أو المنطقة أو الحي أو بين العشائر أو أبناء العشيرة الواحدة .

٣٥ - ضباط « الحواسم»

فى عراق ما بعد ٢٠٠٣ صار كل شيء ممكناً .. حلقات متوالية من الإجراءات والممارسات شكلت سلسلة طويلة من الأخطاء الاستراتيجية القاتلة تبعتها أخطاء بمثابة النتيجة الطبيعية الا أن عملية حل الجيش العراقى وتسريح كافة عناصر الأجهزة الأمنية كان الضربة القاسمة والمعول الرئيسي لهدم منظومة إدارة الدولة التى استقرت رغم تقلب الحاكمين .. وكان ضروريا تشكيل قوات من الجيش والشرطة والأجهزة الاستخبارية من عناصر النظام الجديد وهو الأمر الذى شهد ممارسات لا يصدقها عقل وإن كانت تبدو طبيعية فى زمن المذبحة .. كان من تلك الممارسات التى أدت إلى تسهيل الانهيار الأمنى هو ما بات يعرف بقرار دمج الميليشيات مع أجهزة الأمن، الذي أصدره مجلس الوزراء إبان فترة حكم رئيس الوزراء إبراهيم الجعفرى الذى كان يتزعم حزب الدعوة الإسلامية قبل أن يزيحه نورى المالكى من مقعديه رئاسة الوزراء والحزب أخيراً .. وأسهم هذا القرار فى ضم غالبية من عناصر الشرطة والمدنيين الذين ينتمون إلى قوات «بدر» الجناح العسكرى للمجلس الأعلى الإسلامى وحزب الله – تنظيم العراق بزعامة الشيخ عبدالكريم ماهود و المؤتمر الوطني بزعامة الدكتور أحمد الجلبي.

فتح هذا القرار الباب واسعا إلى عمليات إدخال رفاق السلاح ومن يواليهم من عصابات إلى أجهزة الأمن الرسمية من شرطة وجيش واستخبارات ليعملوا بغطاء رسمى من الدولة العراقية بينما يكون ولاؤهم لمن ولاهم تلك المناصب بعد منحهم الرتب التى تصل إلى لواء بمن فيهم رجل وزارة الداخلية القوى « الوكيل الأقدم ع.أ.

وإذا كان القرار كما يقول أصحابه بمثابة درء خطر الميليشيات ودمجها فى القوات الرسمية حتى تتوجه أسلحتها إلى صدر الجريمة إلا أن الأمور سارت على الأرض على عكس ذلك تماما وأصبح الحصول على رتبة ملازم فما فوق وتولى منصب رفيع فى الأجهزة الأمنية مرتبط بالولاء وليس فقط الانتماء إلى أحد الأجنحة العسكرية التى يقول قادتها أنها حملت عبىء الجهاد ضد الديكتاتورية وهو الأمر الذى خلق حالة من عدم التوازن داخل تلك الأجهزة وجعل مرجعيتها لا تعود إلى الوزير أو حتى رئيس الوزراء خاصة خلال أعوام ٢٠٠٥ وحتى أوائل ٢٠٠٨

وهو ما أظهرته الحملات الأمنية التى أمر بتنفيذها رئيس الوزراء نورى المالكى والتى فوجىء قادتها من المهنيين أنهم يحاربون بظهر مكشوف ولا يستطيعون إصدار أمر بالقتال ضد الميليشيات التى كانت تحكم محافظات بالكامل مثل البصرة التى كاد وزير الداخلية أن يلقى مصرعه فيها عندما ذهب للأشراف على عملية صولة الفرسان .. فيما تمت محاصرة رئيس الوزراء نفسه وقتل أحد مستشاريه لولا تدخل القوات الأمريكية التى قلبت المعادلة وتمكنت من فرض سيطرتها لتحل القوات العراقية فيما بعد محلها منتصف العام ٢٠٠٨ .

وقد تسبب من يسمون في قوات الشرطة والجيش بضباط الدمج فى كثير من المشاكل وحالات ارتباك في صفوف قوات الأمن، لا سيما في محافظات تسلمت فيها القوات العراقية الملف الأمني مبكراً لأن افتقار هؤلاء الضباط إلى العلوم العسكرية بسبب عدم انتسابهم إلى الكليات العسكرية جعل منهم عبئاً على قوات يفترض بها أن تبسط الأمن في محافظات تتنازعها تيارات إسلامية تحاول الاستئثار بالسلطة والنفوذ والثروات.

وتشير التقارير إلى أن رئيس الوزراء السابق الدكتور «إبراهيم الجعفرى» دمج حوالي ١٥ ألفاً من عناصر الأحزاب والميليشيات في شرطة بغداد ومحافظات الفرات الأوسط والجنوب الذين لا تنطبق على الغالبية العظمى منهم شروط اللياقة البدنية التي تفرضها المؤسسات العسكرية في العالم، فضلاً عن أنهم لا يجيدون القراءة والكتابة ومُنحوا رتباً عسكرية كبيرة.

وتسبب دمج هؤلاء الضباط فى خلق أجواء من التوتر بينهم وبين ضباط حصلوا على شهادات عسكرية

ويروى لى ضابط شرطة فى إحدى المحافظات أنه تم تبليغه بانتقال ضابط أعلى رتبة منه ليتولى قيادة مديرية الشرطة وفوجىء بأن هذا القائد هو الساعي العامل في خدمته، الذى كان يقف دائماً أمام باب مكتبه يقدم الشاي إلى الضيوف، وينظف حذاءه وغير ذلك من الأمور الخدمية لكنه أصبح يحمل رتبة مقدم فقط لانتمائه إلى أحد الأحزاب المتنفذة في الدولة.

وهذه الحال لم تحصل مع صديقى فقط بل مع عشرات الضباط الذين يحملون شهادات عسكرية وفوجئوا بقرار دمج الميليشيات الذى جاء بمئات بل آلاف الضباط فى الشرطة والجيش لا يحملون شهادات دراسية ويفتقرون إلى العلوم العسكرية بسبب عدم انتسابهم إلى الكليات العسكرية والشرطة.

وتشير تقارير إعلامية وتصريحات منسوبة إلى أعضاء برلمان أن هناك مناصب

حكومية وإدارية ومهنية حُجزت بأسماء موجودة خارج العراق، وجرى انتظارهم حتى أنهوا أعمالهم هناك، ومن ثم جاءوا كي يتسلموا مناصب حُجزت بأسمائهم ومنهم شخص كان يمارس مهنة البقالة في الدنمارك، تولى مهمات منصب وكيل إداري أو المسؤول الإداري في وزارة الداخلية.

وكانت لي عدة تجارب مع ضباط الدمج خلال مهمتي بالعراق بدءاً من ضابط يقف في إحدى نقاط التفتيش حار في قراءة هويتي التي تمنحها القوات الأمريكية للإعلاميين بهدف تسهيل دخولهم إلى المنطقة الخضراء حيث مقر الحكم والسفارات الهامة وهي مكتوبة باللغة الإنجليزية وبادرني بسؤال عرفت من خلاله أنه لا يجيد حتى القراءة والكتابة « هل هذه هوية مجلس وزراء؟» قلت له نعم فابتسم وسمح لي بالمرور .

أما الحكاية المثيرة كانت مع شخص من ذوي السطوة والنفوذ في إدارة الجنسية يدعى المقدم ماهر اصطحبني إليه شخص كنت قد تعرفت عليه في احد المؤتمرات داخل فندق الرشيد وقدم نفسه على أنه رئيس تحرير وصاحب امتياز لجريدة تدعى « أخبار اليوم» وكنت وقتها أعاني من مشكلة عدم تجديد إقامتي الرسمية رغم انفراج الأوضاع بعض الشيء على المستوى الأمني .. قال لي أن الأمر لا يتطلب أكثر من ٥٠٠ دولار وتحصل على الإقامة عن طريق « المقدم ماهر» .

رغم خطورة الدخول إلى المصالح الأمنية وافقت على الذهاب معه بعد أخذ الاحتياطيات اللازمة ومنها إبلاغ أصدقاء لي بمكان تواجدي بصحبته .. كان يحمل ملفا كبيرا به عدد من المستندات والوثائق الرسمية والمزورة تعود لأشخاص عرفت فيما بعد يريدون استخراج جواز السفر الجديد الذي أصبح معتمدا ومع كل ملف ٥٠٠ دولار تسلم إلى المقدم ماهر وكان دور هذا الشخص « صاحب جريدة أخبار اليوم» هو تزكية الطلب بخطاب عليه رمز الجريدة وخاتمها باعتبار أن صاحب جواز السفر يعمل في تلك الجريدة ويقتصر دور المقدم ماهر على تمرير تلك المستندات بدون الحاجة إلى هوية نقابة الصحفيين العراقيين التي من المفترض أن تكون مستندا رئيسيا لاستخراج مثل هذه الجوازات التي كان أصحابها يتنوعون ما بين سائقين وسيدات بلا مهنة وغير ذلك من النماذج التي لا يفترض أن تستخرج جواز سفر بهذه السهولة وفي خلال يوم واحد .. لكن هذه بركات المقدم ماهر.

اصطحبني المقدم ماهر لتفتح له أبوب كثيرة لا تقل رتبة من يجلس خلفها عن عقيد إلا أنهم جميعا يؤدون التحية لسيادة المقدم الذي دفعني الفضول

للتساؤل عن ماهيته لأكتشف أنه أحد عناصر قوات بدر وهو أكثر نفوذا من أى شخص آخر مهما كانت رتبته.

وبعد عدة حوارات مع مسئولين بمديرية الجنسية العامة خاطبنى المقدم ماهر قائلا ،، موضوعك يم حاجى أبو دعاء ، بمديرية الإقامة وعندما توجهت إلى مديرية الإقامة اكتشفت أن «حاجى أبو دعاء ، لا يحمل أى رتبة عسكرية واضحة إنما هو الكل فى الكل بمديرية الإقامة حتى أن مدير قسم العرب المقدم هادر العنبكى الذى تمت تصفيته فيما بعد بعبوة ناسفة من النوع اللاصق بسيارته لابد أن يقدم التحية لهذا الحاجى قبل دخوله إلى مكتبه .

دفعنى الخوف والقلق من ملابسات الموضوع لأننى صحفى ومصرى ومازالت المخاطر تحيط بى مثل أى صحفى يعمل بالعراق إلى الانسحاب فورا من مديرية الإقامة لأظل بلا إقامة رسمية عدة اشهر أخرى حتى حصلت عليها بشكل رسمى مع صدور أوامر بضبط الإجراءات للمواطنين العرب تزامنا مع هدوء نسبى امتازت به الأشهر الأخيرة من العام ٢٠٠٨ وبدايات العام ٢٠٠٩ .

ورغم انتهاء الولاية القانونية للحكومة الثالثة فى عراق ما بعد الاحتلال الأمريكى إلا أن عمليات الدمج مازالت تجرى على قدم وساق مع تأكيدات من القائمين عليها أنها تتم فى إطار قانونى يبتعد عن المجاملات المبالغ فيها خاصة بعد عمليات التطهير التى طالت أكثر من ٢٠ ألفا من منتسبى وزارة الداخلية خلال السنوات الماضية وبإعلان رسمى من قبل الحكومة العراقية باعتبار أن أخطاء ارتكبها هؤلاء الضباط والمنتسبون بدءاً من تزوير الشهادات الدراسية مرورا بعمليات الفساد وتسهيل مهام المجموعات المسلحة لارتكاب أعمال إرهابية.

٣٦ - سوق مريدى

لا يكتمل الحديث عن ضباط الدمج وتصرفاتهم المشينة فى كثير من الأحيان ونشاطات التزوير خاصة فى الوثائق الرسمية والدراسية بل والشهادات العلمية دون الحديث عن المكان الأشهر والسوق الأكبر لهذه الممارسات .. فى هذا المكان يمكنك أن تنشىء جامعة بأكملها بخريجيها وأساتذتها وطلابها .. يمكنك أن تنشىء أى إدارة بموظفيها ورؤسائها ومديريها من خلال الوثائق المزورة باتقان مذهل .

وقد عرف «سوق مريدي» وسط مدينة الصدر فى السابق وطوال سنوات مديدة، بتسويق السلع المستعملة أو صناديق الخضروات والفواكه واللوازم البيتية وغالبا تلك المسروقة .. وعند زيارتى الأولى للعراق نهاية عام ٢٠٠٢ أخبرنى زميل لى أن

أى شيء مسروق يمكن لصاحبه أن يشتريه بقليل من المال إذا أعطى أوصافه لعرابى سوق مريدى .

في «سوق مريدي» كان الزبائن ولا يزالون يجدون كل ما لا يستطيعون الحصول عليه من الدوائر الحكومية.. شهادات تخرج جامعية وهمية، .. وثائق ملكية لمساكن وعمارات لا وجود لها، .. قرارات محاكم، ..وثائق تعيين، ..وثائق إعفاء، ..وثائق نقل، .. وثائق فصل / الأحكام العشائرية/ .. جوازات سفر ..عقود زواج ..مضابط بيع وشراء،.. أوراق تعريف من سفارات ومن مراكز شرطة ومن شركات ووكالات ..مراجع ومعاهد لا ترصدها العين ولا تكتشفها سجلات ..وثائق ناجزة لأموات مستعدين للإدلاء بأصواتهم، .. أسماء أفراد عائلات تتناسل بطريقة شيطانية .. بطاقات تموينية لأسماء وهمية، ..أوراق تصويت تدخل إلى قلب صناديق الاقتراع بدون استئذان،.. سجلات حية لسكان بلدات وقرى غمرتها المياه منذ زمن بعيد .

عندما تتجول في «سوق مريدي» ، وسط مدينة الصدر، وتسأل بعض التجار حتى تعرف سهولة الحصول على وثائق رسمية، إذ لا يحتاج الأمر إلى أكثر من ساعات معدودة وبعضها جاهز للتداول وبأسعار تناسب الجميع.

ورغم أن شهرة سوق مريدي فاقت شهرة غالبية أسواق التزوير في العراق، إلا أنها الوحيدة التي تلبي حاجة «المستهلكين» بسرعة حيث يمتلك من يمارسون هذه المهنة الأختام الخاصة بجميع الدوائر في بغداد وباقي المحافظات، ولا يستغرق استخراج الوثائق الرسمية البسيطة، مثل «الجنسية وشهادة الجنسية» / وهى تعادل البطاقة الشخصية فى مصر / أكثر من نصف ساعة وبتسعيرات ملائمة للجميع، تتراوح بين ٧ و٢٠ دولاراً، أما الجوازات الرسمية فتختلف باختلاف الفئة، فالجواز من الفئة (سي C) لا يكلف أكثر من ١٠٠ دولار، أما الجواز من فئة (جي G) فتسعيرته تصل إلى ٣٠٠ دولار ويعود ارتفاع سعر الأخير إلى صعوبة الحصول على نماذج منه من الدوائر الرسمية على عكس جوازات الفئة(ايه A) التي يسهل الحصول عليها وباتت غير معتمدة فى كثير من الدول لأنه يحتوي على لغة كردية.

ولا يقتصر نشاط السوق على تزوير الأوراق والوثائق الرسمية، بل يمتد ليشمل الشهادات والوثائق الرسمية الجامعية ولطالما خرج السوق طلاباً وأساتذة يفوق عددهم بكثير أولئك الذين خرجتهم الجامعات الرسمية في العراق .. حيث يلجأ غالبية الشباب إلى استخراج الشهادات المزورة قبل سفرهم بحثاً عن العمل، فيما يستخرجها آخرون للحصول على فرص التوظيف في دوائر ومؤسسات الدولة

بتزكية بسيطة من أى كادر فى أى حزب من حكام العراق الجدد .

وتختلف أسعار الشهادات بين جامعة وأخرى، كما تختلف من درجة إلى درجة. فشهادة البكالوريوس تنحصر أسعارها بين ٧٠ و١٠٠ دولار، أما شهادة الماجستير فتراوح أسعارها بين ٣٥٠ و٥٠٠ دولار، فيما تصل أسعار شهادة الدكتوراه إلى ٧٠٠ دولار ولا تختلف تلك الشهادات عن مثيلاتها الرسمية بأى شيء، لكنها ليست مسجلة في الدوائر واكتشافها يتم بسهولة كبيرة في حال الاستفسار عن صحة صدورها من تلك الدوائر وهناك صعوبات كبيرة في كشف الوثائق والشهادات التي يتم استخراجها للسفر أما تلك الشهادات التى تستخدم فى الداخل للحصول على وظائف فقد وجد المزورون المرتبطون بجهات رسمية وسيلة جيدة لطمس معالم التزوير إلا أنها تكلف الكثير من المال وهى الاتفاق مع موظفين فى إدارات المعلومات التكنولوجية « الحاسبة» فى الجهة أو الجامعة المقصودة ومن ثم يتم إدخال بيانات المزور بشكل رسمى فى جهاز الكومبيوتر الخاص بتلك الدائرة أو الجامعة وهو ما يجعلها رسمية تماما ولا يمكن إثبات تزويرها إلا عبر سلسلة طويلة من الإجراءات لا تتم غالبا لأن من يملك إدخال بيانات مزورة إلى الحاسبة خاصة حاسبة دائرة الجنسية مثل المقدم ماهر الذى ورد ذكره سابقا يمكنه بسهولة الحفاظ على سرية هذه المعلومات ومنع أى يد يمكن أن تصل إليها لاحقا سواء بالتهديد أو الوعيد .

وفي زيارة لي إلى « سوق مريدي» عرفت بوجود مكاتب خلفية يديرها رجال يملكون مهارات مذهلة في التزوير كما يملكون سجلات أسماء خطيرة عن أهم مسؤولي الدولة ورؤساء المحاكم ومدراء الشرطة والوزراء الجدد وعمداء الجامعات وزعماء الأحزاب وأئمة المساجد ونماذج من تواقيعهم، وقد شهدت بنفسي صفقة بين صاحب أحد المكاتب وزبون كان يريد الحصول على أطروحة مكتوبة يقدمها إلى احد المعاهد لينال بها شهادة عالية تؤهله لاحتلال وظيفة مرموقة.

قال لى مرافقى الطيب « أستاذ أبو أياد» .. لو تريد تصير طبيب عراقى وفى أى تخصص وبشهادات رسمية وجواز سفر عراقى أنا حاضر .. لكن عليك أن تجيد اللهجة العراقية حتى لا ينكشف أمرك».

٣٧ - الاختطاف

فى أول أيام مهمتى المقدسة فى العاصمة المشتعلة بغداد زارنى صديقان عراقيان كنت قد تعرفت بهم خلال مهمتى الأولى قبل الاحتلال الأمريكى للعراق

عام ٢٠٠٣ .. جاء الصديقان الطيبان رغم مخاطر الطريق ومشاعر الخوف التى كانت تغلف المشهد العراقى فى تلك الأيام من عام ٢٠٠٦ .. حمل الشابان هدية غريبة ترحيبا بى كنت أعتبرها سلوكا مريبا منهما إلا أننى تبينت بعد ذلك أنها الهدية الضرورية فى زمن المذبحة .. أهدانى وسام مسدس نوع « كلوك» ومجموعة طلقات .. فيما أهدانى سلام سكينا كبيرا « خنجر» مع عصا كهربائية / عصا تصدر شحنة كهربائية تصيب بالشلل المؤقت / .. تعجبت من طريقة الترحيب وكيف لى أن أحتفظ بتلك الأشياء فى مكتبى وهو مكتب رسمى يجب ألا تشوبه أى شائبة أو تثار حوله الشكوك كما أننى لا أحب استخدام السلاح مهما كانت الظروف بعد أن استقرت فى عقلى الباطن مقولة أمى رحمها الله: « أن السلاح به شيطان يزيد الغضب ويقوى عزيمة الشر » .. قال لى وسام: هذا السلاح لن تستخدمة لقتل أحد. وإنما لقتل نفسك .

زادت دهشتى وقلقى وقبل أن أسأله كيف ولماذا ؟ بادرنى قائلا « إذا لا قدر الله هاجمك أحد من أى جهة سواء لكونك مطلوبا أو لكونك موجودا بالعراق لا تدعه يأخذك حيا .. أطلق ما استطعت من رصاص حتى يقتلك المهاجمون ولا يأخذونك حيا » !

زادت دهشتى وفغرت فمى ... استمر وسام فى الكلام « من الأفضل أن تموت قبل أن تأخذك أى جهة حيا فالموت السريع أفضل بكثير من الموت تحت وطأة التعذيب .. ثم أنك إذا مت وتركوك يمكن دفن جثتك .. أما إذا أخذوك فإنه يمكن ألا تعود أبدا لا أنت ولا جثتك .. ويصير مصيرك جثة مجهولة الهوية تدفن فى مقبرة جماعية .. وقبل أن يقتلوك سوف تتعرض لتعذيب لا يمكن تخيله فهم مدربون على التعذيب بل ويتلذذون بآلام الضحية ويشجيهم صراخه .. أنهم فاقوا المغول فى الإجرام والوحشية » .

كانت هذه نصائح أصدقاء يخافون علىَّ قصوها على مسامعى مع مجموعة من قصص الاختطاف والتعذيب التى يعقبها قتل بعد الحصول على الفدية المطلوبة .. شردت لبعض الوقت أفكر كيف يمكن أن يعيش الإنسان فى زمن يكون أمله فيه ليس الحياة وإنما الموت سريعا بدون تعذيب .. وكيف يحتفظ الإنسان بسلاح لا ليدافع عن نفسه بل ليكون استخدامه سببا لإنهاء الحياة والدفن بكرامة .. إلا أننى كنت قد بدأت أدرك بعض معالم تلك الأيام المأساوية وأن ما أسمعه وأعرفه كل يوم سيكون وسيلة ومنهاجا لى للعيش فى زمن المذبحة .

تذكرت ما قاله أحمد « العراقى الطيب » عندما شرح لى طريقة الهروب من

المبنى إذا تمكنت من ذلك قبل أن يصل المهاجمون ووجدت الوقت الكافى للمراوغة .. كانت أولى نصائحه لى بعد أن هيأت مقر عملى وإقامتى هى معرفة طريق السلم الخلفى للبناية الذى يوصل إلى سرداب المبنى المجاور لأصعد سوراً خلفيًا يلتى بى إلى الشارع الخلفى .. ربما أتمكن من الحصول على مخبأ أو مساعدة لبعض الوقت .

كانت تلك النصائح ضرورية لمعرفة بعض تفاصيل عمليات الاختطاف التى تجرى من داخل البنايات وتكون مخططة وتستهدف شخصا بعينه أما ما عرفته فيما بعد عن عمليات الاختطاف الأخرى فكان أكثر غرابة خاصة عمليات الاختطاف الجماعى التى شاعت فى تلك الفترة من زمن المذبحة .

خلال الفترة من منتصف العام ٢٠٠٦ وحتى بداية العام ٢٠٠٨ كانت شوارع بغداد تتميز عن غيرها من مدن العالم بظاهرة غريبة هى المواكب الممتدة من سيارات الدفع الرباعى ذات الزجاج المظلل باللون الأسود حتى لا يكشف من بداخل تلك السيارات وغالبا ما يتقدم الموكب سيارة شبه عسكرية أو أكثر يصوب من يعلوها من مسلحين ملثمين فوهات أسلحتهم نحو المارة مع إطلاق زخات تحذيرية لفتح الطريق أمام الموكب ويتكرر نفس المشهد بعد آخر سيارة مظللة حيث يقف عدة ملثمين يعتلون ظهر سيارة أو أكثر مزودة بمدافع ورشاشات من كافة الأنواع والطلقات أقلها / بى كى سى/ يطلقون زخات تحذيرية لمن تسول له نفسه من العابرين للطريق سيرا أو داخل سيارة الاقتراب من الموكب المهيب الذى لا يعرف أحد من بداخله الذى غالبا ما يكون قائدا فى إحدى المجموعات المسلحة أو مسئولا من أى درجة فى العراق الجديد حتى بات المشهد المزعج معتادا لدى العراقيين الذين يعلمون أن هذا الموكب وراءه أمر جلل سواء عملية اختطاف أو قتل فردى أو جماعى .

وذات مرة كنت أستقل سيارة لأحد سائقى وكالة أجنبية تطوع زميل لى يعمل بها أن يقوم بتوصيلى إلى مقر مديرية الإقامة فى محاولة لإنهاء حالتى غير القانونية والتى باءت كغيرها من المحاولات بالفشل لأظل مقيما غير شرعى لعدة أشهر وهو ما ورد تفصيلا فى موضع سابق .. وعند مرور أحد المواكب السيارة المهيبة فى تقاطع ميدان « كهرمانة » وسط بغداد بنفس السيناريو السابق وصفه حتى صاح السائق الطيب وكان يدعى « أبو حنين » غاضبا عندما طلبت منه الحذر وعدم الاقتراب حتى لا ننال جزاءنا الحتمى / القتل طبعا / وقال الرجل الطيب « هذوله حرامية .. سلابة .. قطاع طريق » وهو ما جعلنى أتساءل ماذا يعنى أليس من بداخل إحدى سيارات الموكب هو أحد المسئولين قال « لا أستاذ ..

مو بالضرورة مسئول ، وأخذ يتلو على مسامعى حكايات فى غاية الغرابة عن قيام مثل هذه المواكب المهيبة بعمليات اختطاف أو قتل لحساب إحدى الميليشيات أو فرق الموت وكان أبرزها عملية الاختطاف الجماعى لرئيس وأعضاء اللجنة الأوليمبية العراقية عندما كانوا يعقدون اجتماعا يوم١٥ يوليو من عام ٢٠٠٦ في النادي الثقافي النفطي بالقرب من ساحة الأندلس وهى تقع فى قلب العاصمة بغداد عندما هاجم حوالي خمسين مسلحا المركز الثقافي النفطي واقتادوا السامرائي وعدد من معاونيه بعد أن أوثقوا أيديهم وعصبوا أعينهم وكان ذلك قبل وصولى إلى بغداد بيوم واحد .. كما قص أبو حنين تفاصيل عمليتين متشابهتين وقعتا قبل أشهر حيث خطف في منطقة شارع فلسطين ما يقارب من ٥٠ من أفراد شركة حماية خاصة على أيدى مسلحين يرتدون ملابس قوات الأمن العراقية ويستقلون عربات حكومية .. ووقع الحادث الثاني في منطقة الصالحية وسط بغداد فى شهر يونيو ٢٠٠٦ عندما داهم مسلحون يستقلون عربات حكومية يرتدي أفرادها ملابس قوات الأمن الحكومية مقار لشركات نقل أهلية وخطفوا نحو ٣٥ فردا أغلبهم من العاملين في هذه الشركات.

ومن خلال الحوار الذى دار مع « أبو حنين» وما عرفته بعد ذلك من زملاء فى وكالات وفضائيات تبين لى أن جميع العمليات تمت بواسطة أشخاص يرتدون زي وزارة الداخلية أو زي القوات الأمريكية ويتنقلون بسيارات دفع رباعي تشبه السيارات التي تستخدمها مؤسسات الحكومة الأمنية وفي كل عملية اختطاف اشترك بها ما بين ٣٠ إلى ٤٠ مسلحا.

وكان منفذو عمليات الاختطاف يتمتعون بتسليح وتجهيز ممتاز مضافا إليها تميز عملياتهم بالسرعة والدقة في الهجوم والانسحاب مما يعكس الإمكانيات العالية في القيادة والتنظيم لمنفذي هذه العمليات الإجرامية ففي جميع عمليات الاختطاف التي ارتكبتها هذه الجماعات الإرهابية تمكن منفذو العمليات من التغلب على قوة الحراسة بدون أية خسائر بين المهاجمين بضمنها اختطاف الجنود الأمريكيين من مبنى محافظة كربلاء والذي كانت تحرسه القوات الأمريكية.

كما أن منفذى عمليات الاختطاف الجماعى يتحركون في قافلة من السيارات لا تقل عن خمس عشرة سيارة.

وقد نفذت جميع العمليات في وسط النهار وأمام مرأى ومسمع القوات الحكومية التي تسيطر عليها مليشيات أحزاب الإسلام السياسي.

وكان منفذو العمليات يجتازون كل نقاط التفتيش بدون أي مشكلة.

ولا تظهر أي جماعة لتتبنى العملية اللهم إلا عمليتين فقط تبنتهما جماعة عصائب أهل الحق المنشقة عن التيار الصدرى وهى عملية اختطاف البريطانيين الخمسة من مقر وزارة المالية بشارع فلسطين واختطاف الجنود الأمريكيين والغريب أن تلك الجماعة مارست أقصى درجات المساومة مع السلطات العراقية والأمريكية والبريطانية عبر وسيط كان يتولى وزارة المواصلات فى حكومة الدكتور إبراهيم الجعفرى وهو سلام المالكى وذلك لإطلاق سراح معتقلين من قادتها على رأسهم قيس الخزعلى وهو أحد أشد المقربين من زعيم التيار الصدرى وجيش المهدى مقتدى الصدر قبل أن ينشق عنه ويتزعم جماعة العصائب المتهمة عراقيا وأمريكيا بارتكاب أعمال عنف ذات درجة عالية من التقنية والتخطيط والتنفيذ الذى يرقى إلى عمليات كبرى أجهزة المخابرات فى العالم وهو ما عزز الشكوك فى اتصالها بفيلق القدس والحرس الثورى الإيرانى .

كما أن جميع عمليات الاختطاف حدثت في مناطق شيعية او قريبة منها.

ولم يعقبها اعتقال أي ممن ارتكب تلك الجرائم وإهمال التحقيق في هذه القضايا وإغلاق ملفاتها وهو ما جعل مصير المختطفين مجهولا حتى الآن رغم مرور حوالى أربع سنوات كما لم يتم العثور على جثثهم .

وفي أغلب العمليات التي نفذت في بغداد، أكد شهود عيان دخول موكب المختطفين مدينة الصدر أو مشاهدة الموكب يتجه باتجاه المدينة .

٣٨ - اختطاف البعثات

في عملية اختطاف هي الأكبر من نوعها من حيث عدد المختطفين منذ سقوط العاصمة العراقية بغداد في يد القوات الأمريكية والتي استهدفت أكثر من ١٠٠ من موظفي وزارة التعليم العالي .

ففى الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ١٤ / ١١ / ٢٠٠٦ دخلت إلى منطقة الكرادة وسط العاصمة بغداد أكثر من ٥٠ سيارة من نوعي «مونيكا» و«لاندروفر» وعشر سيارات نقل صغير واتجهت نحو شارع «سلمان فائق» ومرت من جوار فندق طليطلة، وتوقفت لمدة دقائق قام خلالها أفراد القوة بإطلاق نار لغرض إجبار رجال المرور على فتح الشارع لهم حيث كانت السيارات تنتظر الإشارة الخضراء.

بعد ذلك توجهت تلك السيارات بسرعة يمينًا، حيث ساحة الـ ٥٢، وتقع هناك كل من دائرة البعثات العلمية ودائرة الجوازات العراقية ومقر بناية الجرائم الكبرى التابعة للحكومة العراقية ، ثم قام ركاب السيارات الأولى بالترجل من

السيارات ورفع العارضة الحديدية المتحركة ثم إطلاق النار تحت أقدام الحراس وهم شيعة أيضاً، في مسرحية مكشوفة، وقام الآخرون بالدخول بسرعة إلى المبنى فيما قامت سيارات النقل بالاقتراب من الباب ووضع خلفية السيارات عند الباب الرئيسي، وكان يوم الثلاثاء هو اليوم المخصص لمراجعة مدرسي وموظفي محافظات/الأنبار وصلاح الدين ونينوى/، حيث أعلنت كل من روسيا وفرنسا والصين عن بعثات دراسية للكوادر العلمية العراقية وكان كل المتقدمين يقفون في طابور طويل جداً.

في البداية أطلق النار على الطابور للتخويف فقط إلا إن فتاة، وهي السيدة ذكرى فؤاد أحمد الدكتورة في كلية العلوم جامعة الموصل أصيبت بساقها بعدها قامت العصابة بعمليات ركل ودفع لكل من كان يقف في الطابور وكان عددهم أكثر من ٩٠ شخصاً، وتم وضعهم في تلك السيارات فيما قامت قوة أخرى بالدخول إلى أروقة الدائرة وسحب كل من كانوا يشاهدونه أمامهم من رجال ودامت العملية زهاء ربع ساعة، وبعد أن امتلأت سيارات النقل بالمختطفين حتى وصل عددهم أكثر من ١٤٠ شخصاً، وبعد عمليات السب والشتم على مقتدى الصدر وعلى السيستاني لكي يوهموا الناس أنهم من المقاومة، قاموا بوضع البقية الزائدة في السيارات التي يستقلونها ذات الدفع الرباعي مع استمرار إطلاق النار.

ثم اتجهوا نحو جسر ملعب الشعب أو جسر زيونة، وبعد خروجهم باتجاه الجسر قامت سيارة شرطة النجدة باللحاق بهم، ونجحت في معرفة وجهتهم الرئيسية قبل أن يتم إطلاق النار على الدورية من السيارة الأخيرة لتلك العصابة؛ مما أجبرها على الوقوف وأكدت سيارة النجدة أن السيارات اتجهت إلى شارع فلسطين الذي ينتهي إلى جسر القناة حيث منطقة مدينة الصدر معقل جيش المهدي.

ويروى أحد المختطفين المفرج عنهم وهو علي عبد الرضا وهو شيعي يعمل مدير الأفراد في دائرة البعثات العلمية إن الخاطفين أطلقوا سراحي في شارع فلسطين مع تسعة آخرين، وكانت نقاط التفتيش التي نمر منها التابعة للجيش العراقي والمغاوير نسمعهم يخاطبون سيارات العصابة التي تزيد على الخمسين وهي أكثر من سيارات موكب حماية رئيس الجمهورية، ويقولون لهم (ها عمي خوش صيده لا تنسون أخوتكم بالخير)، في إشارة إلى من يتم أخذ مال فدية منهم لإطلاق سراحه.

وأضاف « في الطريق كان أحدهم يسأل كل واحد عن مذهبه بقوله» سني أنت أو شيعي» ثم يتم التأكد من الهوية بعد ذلك، ولما وصل الدور إلي ونحن في الطريق قلت له: أنا شيعي، فقال لي: «هويتك وينها »، فأعطيته هويتي، ولما تأكد

من ذلك وكان معي آخرين من الشيعة تكلم مع السائق وطلب منه أن يخفف حركة السيارة قليلاً ثم طلب منا النزول بسرعة والقفز من السيارة وهي تتحرك.

وبالفعل قفزنا من السيارة مقابل مأكولات الطارق في شارع فلسطين، بينما اتجهوا هم إلى طريق جسر القناة وهو الطريق الموصل إلى مدينة الصدر .

وأوضح أن الخاطفين كانوا من جيش المهدي لأن أحدهم خاطبني عندما تأكد من كوني شيعي بقوله: نحن جيش الإمام (عج) وهو / الإمام الغائب المهدى المنتظر عجل الله فرجه / لا نؤذي شيعة أهل البيت؛ فنحن نحميكم أما الـ***** فهذا قليل بحقهم.

لوحات أرقام ثلاث سيارات من سيارات الخاطفين وهي:

- «لاندكروز» بيضاء اللون تحمل رقم ٤٤٤ داخلية.
- «مونيكا» بيضاء اللون تحمل رقم ٢٥٧٨ مواصلات.
- «بيك آب» بيضاء اللون طراز تويتا تحمل رقم ٧٨٣٥ داخلية.

ولم تكن هذه العملية هى الوحيدة التى يجرى فيها اختطاف مجموعة بالكامل من منطقة واحدة ولكنها كانت الأكبر والأعلى ضجيجا خاصة وأن عددا كبيرا ممن تم اختطافهم مجهولى المصير حتى الآن مثل رئيس اللجنة الأوليمبية العراقية أحمد الحجيه السامرائى وأعضاء مجلس إدارة اللجنة الذين تم اختطافهم من قاعة معهد النفط فى قلب العاصمة بغداد ولم يعثر لهم على أى اثر حتى الآن وذلك ردا على اختطاف فريق التايكوندو الذى ينتمى إلى الطائفة الشيعية فى إحدى مناطق محافظة الأنبار السنية على أيدى عناصر تنظيم القاعدة إلا أنه تم العثور على جثث الفريق الذى كانت أعماره دون العشرين بعد حوالى عامين من عملية الاختطاف .

وتؤشر تلك العمليات النظمة التى كانت تجرى تحت سمع وبصر عناصر القوات الأمنية الرسمية وفى وضح النهار إلى مدى الخلل الذى كان يميز أيام المذبحة ويسمح باستباحة أى شيء بما فيها جثث الضحايا التى كانت تختفى فى أحيان كثيرة وبالتأكيد يجرى دفنها كجثث مجهولة الهوية فى مقابر جماعية أو مقابر منفردة فى صحراوات العراق الشاسعة.

٣٩ - أساتذة الجامعات

منذ احتلال بغداد يتعرض العلماء والأكاديميون والمهندسون العراقيون إلى

عمليات اغتيال وتصفيات خطيرة وفق مخطط يبدو منظما لتفريغ العراق من كوادره ومحو عقوله العلمية والفكرية وبشكل إجرامي انتقامي منظم لإخضاع العراق بتجريده من باحثيه وأكاديميه وعلمائه وتدمير هويته الثقافية والعلمية لوقف عجلة التطور فيه ولإعادته عشرات السنين إلى الوراء ،، وتشير التقارير إلى أنه تم تصفية وقتل مئات العلماء والأكاديميين واختفاء مئات آخرين وهروب الآلاف إلى خارج العراق خوفا على حياتهم .

وتشير تقديرات جامعة الأمم المتحدة إلى أن ٨٤٪ من مؤسسات التعليم العالي قد أحرقت أو نهبت أو دمرت ويتضح أن هذا المخطط موجه ضد العراق الدولة بالدرجة الأولى حيث يتبين من هويات العلماء المقتولين أن الأمر لا يدخل ضمن الانتماء الطائفي أو الحزبي الداخلي كما أنه يتجاوز التخصص الأكاديمي حيث استهدفت عمليات القتل والتصفية الانتقامية أيضا كبار ضباط الجيش العراقي والطيارين الذين شاركوا في حرب إيران.

من يقوم بهذا المشروع الإجرامي الكبير وبهذه الالية المنظمة بارتكاب اكثر من ٣٠٠ عملية مداهمة ثم خطف وتعذيب ثم تصفية وقتل وتتنقل بين المحافظات وتمارس عملياتها في وضح النهار وبعض تلك العمليات يختطف الاكاديمي من داخل الجامعة ويصفى بالشارع أمام طلابه لابد أن تكون جهات تسيطر على مقاليد الأمور بالعراق بشكل شبه عام والقوتان المسيطرتان في الساحة العراقية هما أمريكا بفعل الاحتلال المباشر وايران عن طريق التواجد المخابراتي على الأرض وعن طريق عملائها بالحكومة والقوى السياسية المسيطرة ومعروف التأييد المطلق من قبلهم لإيران من منطلقات طائفية بحتة منذ أيام إنشائهم منظماتهم وأحزابهم برعاية إيرانية كاملة .

ولا يخلو موقع مهتم بالشأن العراقى من قوائم بأسماء مجموعة من العلماء والأكاديميين الذين تمت تصفيته وهذا مجرد نموذج واقعى لعلماء وأكاديميين تمت تصفيتهم بطريقة شبة متطابقة :

١- الأستاذ الدكتور محمد عبدالله الراوي، رئيس جامعة بغداد،نقيب الأطباء العراقيين، زميل الكلية الملكية الطبية، اختصاص باطنية، اغتيل في عيادته الطبية بمنطقة المنصور عام ٢٠٠٣.

٢- أ.د.مكي حبيب المؤمن، خريج جامعة مشيغان الأميركية اختصاص في مادة التاريخ المعاصر، أستاذ سابق في جامعة البصرة وبغداد ومركز الدراسات الفلسطينية وجامعتي أربيل والسليمانية. بعد السقوط تعرض إلى حادث سيارة مفتعل وتوفي يوم ٢٠٠٣/٦/٢٠ بعد أن أقعده المرض.

٣- أ. د. محمد عبد المنعم الأزميرلي، جامعة بغداد،كلية العلوم، قسم الكيمياء،من مصر العروبة يحمل الجنسية العراقية، تمت تصفيته من قبل قوات الاحتلال في معتقل المطار منتصف عام ٢٠٠٣ لأنه يحمل دكتوراه كيمياء وهو عالم متميز وعمل في مراكز بحثية متخصصة.

٤- أ. د. عصام شريف محمد التكريتي،جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم التاريخ، عمل سفيراً للعراق في تونس منتصف التسعينات، اغتيل في منطقة العامرية يوم ٢٠٠٣/١٠/٢٢ مع خمسة أشخاص من أصدقائه.

٥- أ. د. مجيد حسين علي، جامعة بغداد، كلية العلوم، متخصص في مجال بحوث الفيزياء النووية، تمت تصفيته مطلع عام ٢٠٠٤ لأنه عالم ذرة.

٦- أ. د. عماد سرسم، أستاذ جراحة العظام والكسور، زميل كلية الجراحين الملكية عميد كلية الطب في جامعة بغداد سابقاً، عضو الهيئة الإدارية لنقابة الأطباء العراقيين، عضو اتحاد الأطباء العرب.

٧- أ. د.صبري مصطفى البياتي، رئيس قسم الجغرافية، كلية الآداب، جامعة بغداد، اغتيل في حزيران ٢٠٠٤.

٨- أ. د. أحمد الراوي، أستاذ سابق في كلية الزراعة، جامعة بغداد/قسم التربة، نسب للعمل في مركز (إباء) التخصصي. قتل مع زوجته عام ٢٠٠٤ على الطريق السريع في منطقة الغزالية.

٩- أ. د. عدنان عباس خضيرالسلماني، مدير في وزارة الري، أستاذ في كلية المأمون، اختصاص تربة استشهد في الفلوجة عام ٢٠٠٤.

١٠- أ. د. وجيه محجوب الطائي، اختصاص تربية رياضية، مدير عام التربية الرياضية في وزارة التربية.

١١- أ. د. علي حسين كامل، جامعة بغداد، كليةالعلوم، قسم الفيزياء.

١٢- أ. د. مروان مظهر الهيتي، جامعة بغداد، كلية الهندسة،اختصاص هندسة كيميائية.

١٣- أ. د. مصطفى المشهداني، جامعة بغداد، كلية الآداب،اختصاص علوم إسلامية.

١٤- أ. د. خالد محمد الجنابي، جامعة بابل،كلية الآداب،اختصاص تاريخ إسلامي.

١٥- أ. د. شاكر الخفاجي، جامعة بغداد،شغل منصب مدير عام الجهاز

المركزي للتقييس والسيطرة النوعية، اختصاص إدارة أعمال.

١٦- أ. د. عبدالجبار مصطفى، عميد كلية العلوم السياسية، جامعة الموصل، اختصاص علوم سياسية.

١٧-أ. د. صباح محمود الربيعي، عميد كلية التربية، الجامعة المستنصرية.

١٨- أ. د. أسعد سالم شريدة، عميد كلية الهندسة، جامعة البصرة،دكتوراه هندسة.

١٩- أ. د. ليلى عبدالله سعيد، عميد كلية القانون، جامعة الموصل،دكتوراه قانون، اغتيلت مع زوجها.

٢٠- أ. د. منير الخيرو، زوج د. ليلى عبد الله،كلية القانون، جامعة الموصل، دكتوراه قانون.

٢١- أ. د. سالم عبد الحميد، عميد كلية الطب، الجامعة المستنصرية، اختصاص طب وقائي.

٢٢- أ. د. علاء داود، مساعد رئيس الجامعة للشؤون العلمية، جامعة البصرة.

٢٣- أ. د. حسان عبد علي داود الربيعي، مساعد عميد كلية الطب، جامعة بغداد.

٢٤- أ. د. مروان رشيد، مساعد عميد كلية الهندسة، جامعة بغداد.

٢٥- أ. د. فلاح علي حسين، عميد كلية العلوم / الجامعة المستنصرية.

٢٦- مصطفى محمد الهيتي، عميد كلية الصيدلة، جامعة بغداد،اختصاص علوم الصيدلة.

٢٧- أ. د. كاظم مشحوط عوض، عميد كلية الزراعة، جامعة البصرة.

٢٨- أ. د. جاسم محمد الشمري، عميد كلية الآداب / جامعة بغداد.

٢٩- أ. د. موفق يحيى حمدون، معاون عميد كلية الزراعة، جامعة الموصل.

٣٠- أ. د. عقيل عبدالجبار البهادلي، معاون عميد كلية الطب، جامعة النهرين.

٣١- أ. د. إبراهيم طلال حسين، معاون عميد كلية التربية، الجامعة المستنصرية.

٣٢- أ. د. رعد شلاش، رئيس قسم البايولوجي، كلية العلوم، جامعة بغداد.

٣٣- أ. د. فؤاد إبراهيم محمد البياتي، رئيس قسم اللغة الألمانية، كلية اللغات، جامعة بغداد، اغتيل أمام منزله فيحي الغزالية في بغداد يوم ٢٠٠٥/٤/١٩.

٣٤- أ. د. حسام الدين أحمد محمود، رئيس قسم التربية، كلية التربية،

الجامعة المستنصرية.

٣٥- أ. د. عبد اللطيف علي المياح، معاون مدير مركز دراسات الوطن العربي، جامعة بغداد، اغتيل أوائل عام ٢٠٠٤ بعد يوم واحد من ظهوره على شاشة إحدى الفضائيات العربية وهو يطالب بإجراء انتخابات نيابية.

٣٦- أ. د. هشام شريف، رئيس قسم التاريخ، جامعة بغداد.

٣٧- أ. د. إيمان يونس، رئيس قسم الترجمة، جامعة الموصل.

٣٨- أ. د. محمد كمال الجراح،اختصاص لغة إنكليزية، جامعة بغداد، نسب للعمل في المملكة المغربية، آخر موقع له مدير عام في وزارة التربية، اغتيل في منطقة العامرية يوم ٢٠٠٤/٦/١٠.

٣٩- أ. د. وسام الهاشمي، رئيس جمعية الجيولوجيين العراقية.

٤٠- أ. د. رعد عبد اللطيف السعدي، مستشار في اللغة العربية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، اغتيل يوم٢٠٠٥/٥/٢٨ في منطقة البياع ببغداد.

٤١- أ. د. موسى سلوم أمير الربيعي، معاون عميد كلية التربية، الجامعة المستنصرية، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٥/٢٨ في منطقة البياع ببغداد.

٤٢- أ. د. حسين ناصر خلف، باحث في كلية الزراعة، مركز بحوث النخيل،جامعة البصرة، بتاريخ ٢٠٠٥/٥/٢٢ عثر على جثته في منطقة الفيحاء بعد اختطافه يوم٢٠٠٥/٥/١٨.

٤٣- أ. د. محمد تقي حسين الطالقاني، دكتوراه فيزياء نووية.

٤٤- أ. د. طالب إبراهيم الظاهر، جامعة ديالى، كلية العلوم، اختصاص فيزياء نووية، اغتيل في بعقوبة شهر آذار ٢٠٠٥.

٤٥- أ. د. هيفاء علوان الحلي، جامعة بغداد، كلية العلوم للبنات، اختصاص فيزياء.

٤٦- أ. د. عمر فخري، جامعة البصرة، كلية العلوم، اختصاص في العلوم البيولوجية.

٤٧- أ. د. ليث عبد العزيز عباس، جامعة النهرين، كلية العلوم.

٤٨- أ. د. عبد الرزاق النعاس، جامعة بغداد، كلية الإعلام، اغتيل يوم ٢٠٠٦/١/٢٨.

٤٩- أ. د. محمد فلاح هويدي الجزائري، جامعة النهرين، كلية الطب،اختصاص جراحة تقويمية، اغتيل يوم عودته من أداء فريضة الحج مطلع عام

٢٠٠٦ وهو طبيب في مستشفى الكاظمية التعليمي.

٥٠- أ. د. خولة محمد تقي، جامعة الكوفة،كلية الطب.

٥١- أ. د. هيكل محمد الموسوي، جامعة بغداد، كلية الطب.

٥٢- أ. د. رعد أوخسن البينو، جامعة الأنبار، كلية الطب، اختصاص جراحة.

٥٣- أ. د. أحمد عبدالرحمن حميد الكبيسي، جامعة الأنبار، كلية الطب، عضو هيئة التدريس.

٥٤- أ. د. نؤيل بطرس ماثيو، المعهد الطبي، الموصل.

٥٥- أ. د. حازم عبد الهادي، جامعة بغداد، كلية الطب، دكتوراه طب.

٥٦- أ. د. عبد السميع الجنابي، الجامعة المستنصرية، عميد كلية العلوم، اغتيل طعناً بالسكين عندما بدأ بتطبيق قرار وزارةالتعليم العالي بمنع استخدام الجامعات منابر للمظاهر الطائفية.

٥٧- أ. د. عباس العطار، جامعة بغداد، دكتوراه علوم إنسانية.

٥٨- أ. د. باسم المدرس، جامعة بغداد، دكتوراه علوم إنسانية.

٥٩- أ. د. محيي حسين، الجامعة التكنولوجية،دكتوراه هندسة ديناميكية.

٦٠- أ. د. مهند عباس خضير، الجامعة التكنولوجية،اختصاص هندسة ميكانيك.

٦١- أ. د. خالد شريدة، جامعة البصرة، كلية الهندسة،دكتوراه هندسة.

٦٢- أ. د. عبد الله الفضل، جامعة البصرة، كلية العلوم، اختصاص كيمياء.

٦٣- أ. د. محمد فلاح الدليمي، الجامعة المستنصرية، معاون عميد كلية العلوم، دكتوراه فيزياء.

٦٤- أ. د. باسل الكرخي، جامعة بغداد، كلية العلوم،اختصاص كيمياء.

٦٥- أ. د. جمهوركريم خماس الزرغني، رئيس قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة البصرة، وهو أحد النقاد المعروفين على الصعيد الثقافي في البصرة، خطف يوم ٢٠٠٥/٧/٧، وجدت جثته في منطقة القبلة الواقعة على بعد ٣ كلم جنوب مركز البصرة.

٦٦- أ. د. زكي ذاكر العاني، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، اغتيل أمام بوابة الجامعة المستنصرية يوم ٢٠٠٥/٨/٢٦.

٦٧- أ. د. هاشم عبد الكريم، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، اغتيل أمام بوابة الجامعة المستنصرية يوم ٢٠٠٥/٨/٢٦.

٦٨- أ. د. ناصر أمير العبيدي، جامعة بغداد.

٦٩- أ. د. نافع عبود، اختصاص أدب عربي، جامعة بغداد.

٧٠- أ. د. مروان الراوي، اختصاص هندسة، جامعة بغداد.

٧١- أ. د. أمير مزهر الدايني، اختصاص هندسة الاتصالات.

٧٢- أ. د. عصام سعيد عبد الكريم، خبير جيولوجي، في وزارة الإسكان، يعمل في المركز الوطني للمختبرات الإنشائية، خطف يوم ٢٠٠٤/٩/٢٨ واغتيل يوم ٢٠٠٤/١٠/١.

٧٣- أ. د. حكيم مالك الزيدي، جامعة القادسية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

٧٤-أ. رافي سركسيان فانكان، ماجستير لغة إنكليزية، مدرس في كلية التربية للبنات، جامعة بغداد.

٧٥- أ. د. نافعة حمود خلف، جامعة بغداد، كلية الآداب، اختصاص لغة عربية.

٧٦- أ. د. سعدي أحمد زيدان الفهداوي، جامعة بغداد،كلية العلوم الإسلامية.

٧٧- أ. د. سعدي داغر مرعب، جامعة بغداد، كلية الآداب.

٧٨- أ. د. زكي جابر لفتة السعدي، جامعة بغداد، كلية الطب البيطري.

٧٩-ا.خليل إسماعيل عبد الداهري، جامعة بغداد، كلية التربية الرياضية.

٨٠- أ. د. محمد نجيب القيسي، الجامعة المستنصرية، قسم البحوث.

٨١- أ. د. سمير يلدا جرجيس، الجامعة المستنصرية، معاون عميد كلية الإدارة والاقتصاد،خطف من أمام بوابة الجامعة المستنصرية في آب ٢٠٠٥ ووجدت جثته ملقية في أحد الشوارع يوم ٢٠٠٥/٨/٢٥.

٨٢- أ. د. قحطان كاظم حاتم، الجامعة التكنولوجية، كليةالهندسة.

٨٣- أ. د. محمد الدليمي، جامعة الموصل، كلية الهندسة، اختصاص هندسة ميكانيكية.

٨٤- أ. د. خالد فيصل حامد شيخو، جامعة الموصل، كلية التربية الرياضية.

٨٥- أ. د. محمد يونس ذنون، جامعة الموصل، كلية التربية الرياضية.

٨٦- أ. د. إيمان عبد المنعم يونس، جامعة الموصل، كلية الآداب.

٨٧- أ. د. غضب جابر عطار، جامعة البصرة، كلية الهندسة.

٨٨- أ. د. كفاية حسين صالح،جامعة البصرة، مدرسة في كلية التربية.

٨٩- أ. د. علي غالب عبد علي، جامعة البصرة، كلية الهندسة.

٩٠- أ. د. محفوظ محمد حسن القزاز، كلية التربية / قسم العلوم التربوية والنفسية / جامعة الموصل، بتاريخ ٢٠٠٤/١٢/٢٥، لقي مصرعه إثر إطلاق نار عشوائي من قبل القوات المحتلة الأمريكية قرب جامع الدكتور أسامة كشمولة في محافظة نينوى.

٩١- أ. د. فضل موسى حسين، جامعة تكريت، كلية التربية الرياضية.

٩٢- أ. د. محمود إبراهيم حسين، جامعة تكريت، كلية التربية.

٩٣- أ. د. أحمد عبد الهادي الراوي، جامعة الأنبار، كلية الزراعة.

٩٤- أ. د. شاكر محمود جاسم، جامعة الأنبار، كلية الزراعة.

٩٥- أ. د. عبد الكريم مخلف صالح، جامعة الأنبار، كلية الآداب/ قسم اللغة العربية.

٩٦- أ. د. محمد عبد الحسين واحد، معهد الإدارة الفني - بغداد.

٩٧- أ. د. أمير إبراهيم حمزة، معهد بحوث السرطان، هيئة المعاهد الفنية.

٩٨- أ. د. محمد صالح مهدي، معهد بحوث السرطان، هيئة المعاهد الفنية.

٩٩- أ. د. سعد ياسين الأنصاري، جامعة بغداد.

١٠٠- أ. د. سعد الربيعي،جامعة البصرة، كلية العلوم، اختصاص علوم بيولوجية.

١٠١- أ. د. نوفل أحمد، جامعة بغداد، كلية الفنون الجميلة.

١٠٢- أ. د. محسن سليمان العجيلي، جامعة بابل، كلية الزراعة.

١٠٣- أ. د. ناصر عبد الكريم مخلف الدليمي، جامعة الأنبار.

١٠٤- أ. د. حامد فيصل عنتر، جامعة الأنبار، كلية التربية الرياضية.

١٠٥- أ. د. عبد المجيد حامد الكربولي، جامعة الأنبار.

١٠٦- أ. د. غائب الهيتي، جامعة بغداد،أستاذ في الهندسة الكيمياوية، اغتيل في آذار ٢٠٠٤.

١٠٧- الدكتور اللواء سنان عبدالجبار أبوكلل، جامعة البكر للدراسات العليا، استشهد في سجن أبو غريب عام ٢٠٠٤.

١٠٨- د. علي جابك المالكي، اختصاص محاسبة، منتسب إلى وزارة المالية، مديرية الضريبة العامة، اغتيل عام ٢٠٠٤.

١٠٩- أ. عاشور عودة الربيعي، ماجستير جغرافية بشرية-جامعة مشيغان الأمريكية، شغل موقع مدير مركز الدراسات والبحوث / المنصور،اغتيل في منطقة العامرية عام ٢٠٠٤.

١١٠- أ. د. كاظم طلال حسين، معاون عميد كليةالتربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، اغتيل يوم الجمعة ٢٠٠٥/١١/٢٥ في منطقة الصليخ مع ٣ من مرافقيه.

١١١- أ. د. مجبل الشيخ عيسى الجبوري، عضو لجنة كتابة الدستور، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٧/١٩ في بغداد.

١١٢- أ. د. ضامن حسين عليوي العبيدي،عميد كلية الحقوق، جامعة صلاح الدين، عضو لجنة كتابة الدستور، قتل يوم ٢٠٠٥/٧/١٩ في بغداد.

١١٣- أ. د. أسامة يوسف كشمولة، جامعة الموصل، كلية الزراعة، دكتوراه زراعة، عين محافظاً للموصل يوم ٢٠٠٥/٤/٥ وجرى تشييعه يوم ٢٠٠٥/٧/١٤.

١١٤- أ. د. علي مهاوش، عميد كلية الهندسة-الجامعة المستنصرية، اغتيل يوم ٢٠٠٦/٣/١٣.

١١٥- د.كاظم بطين الحياني، أستاذ علم النفس، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، اقتيد من قبل عناصر تابعة لأحد الأحزاب الدينية، بتاريخ ٢٠٠٦/٣/٣ وجدت جثته في مشرحة الطب العدلي وعليها آثار التعذيب، سبق أن شغل منصب محافظ القادسية حتى عام ١٩٩١.

١١٦- أ. د. صلاح عزيز هاشم، المعهد الفني - محافظة البصرة، اغتيل أمام المعهد يوم ٢٠٠٦/٤/٥.

١١٧- أ. د. عبد الكريم حسين، جامعة البصرة، كلية الزراعة، اغتيل يوم٢٠٠٦/٤/١١.

١١٨- ا.المهندس حسين علي إبراهيم الكرياسي، الجامعة التقنية – بغداد – الزعفرانية، اختصاص قسم المساحة اغتيل يوم ٢٠٠٦/٤/١٦ في منطقة العامرية.

١١٩- أ. د. عبد الستار الأسدي، معاون عميد كلية التربية، جامعة ديالى، اغتيل يوم٢٠٠٦/٤/١٩مع (٣) من الأساتذة.

١٢٠- أ. د. سلام حسين المهداوي، كلية التربية،جامعة ديالى، اغتيل يوم ٢٠٠٦/٤/١٩.

١٢١- أ. د. مشحن حردان مظلوم العلواني، جامعة ديالى، اغتيل يوم ٢٠٠٦/٤/١٩.

١٢٢- أ. د. ميس غانم، قسم اللغة الإنكليزية، جامعة ديالى، زوجة الدكتور مشحن حردان العلواني، اغتيلت يوم ٢٠٠٦/٤/١٩.

١٢٣- أ. د. عبدالستار جبار، جامعة ديالى، كلية الطب البيطري، اغتيل يوم ٢٠٠٦/٤/٢٢.

١٢٤- أ. د. مهند الدليمي، جامعة بغداد- كلية الهندسة، اغتيل عام ٢٠٠٤.

١٢٥- أ. د. حسن الربيعي، عميد كلية طب الأسنان- جامعة بغداد، اغتيل يوم ٢٠٠٤/١٢/٢٥ عندما كان يقود سيارته وبصحبته زوجته.

١٢٦- أ. د. أنمار التك، كلية الطب / جامعة الموصل، أحد أشهر أطباء العيون في العراق، حاصل على درجة بروفيسور، اغتيل في شهر تشرين أول ٢٠٠٤.

١٢٧- أ. د. المهندس محيي حسين، اختصاص هندسة طائرات / جامعة بغداد، اغتيل منتصف عام ٢٠٠٤.

١٢٨- أ. د. فيضي محمد الفيضي، جامعة الموصل، عضو هيئة علماء المسلمين في الموصل، اغتيل أمام داره في منطقة المثنى بالموصل بتاريخ ٢٠٠٤/١١/٢٢،خريج كلية الشريعة عام ١٩٨٥، حاصل على الدكتوراه نهاية التسعينات.

١٢٩- الدكتورالعميد منذر البياتي، (طبيب) اغتيل أمام داره في السيدية يوم٢٠٠٥/٦/١٨.

١٣٠-الدكتور العميد صادق العبادي، (طبيب) اغتيل يوم ٢٠٠٤/٩/١ في منطقة الشعب في بغداد عند دخوله المجمع الطبي الذي شيده لتقديم الخدمات الطبية وبأسعار رمزية.

١٣١- الدكتور عامر محمد الملاح، رئيس قسم الجراحة في المستشفى الجمهوري التعليمي، اغتيل قرب داره يوم ٢٠٠٤/١٠/٣.

١٣٢- الدكتور رضا أمين، معاون فني في مستشفى كركوك التعليمي، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٨/١٥ في كركوك.

١٣٣- الدكتور عبدالله صاحب يونس، مدير مستشفى النعمان التعليمي في الأعظمية، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٥/١٨.

١٣٤- أ. إبراهيم إسماعيل، مدير عام تربية كركوك، اغتيل يوم ٢٠٠٤/٨/٣٠عندما كان متوجها إلى المعهد التكنولوجي جنوب كركوك.

١٣٥-أ.راجح الرمضاني، مشرف تربوي اختصاص، اغتيل بتاريخ ٢٠٠٤/٩/٢٩ عند خروجه من جامع (ذياب العراقي) في محافظة نينوى.

١٣٦- أ. د. جاسم محمد العيساوي، أستاذ في كلية العلوم السياسية /جامعةبغداد، عضو في هيئة تحرير صحيفة (السيادة) اليومية، أحد الأعضاء المفاوضين مع لجنة صياغة الدستور، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٦/٢٢ في مدينة الشعلة في بغداد وعمره (٦١) عاماً.

١٣٧- الدكتور المهندس عبد الستار صابر الخزرجي، كلية الهندسة /جامعة بغداد، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٦/٢١ وهو من سكنة مدينة الحرية في بغداد.

١٣٨- أ. د. حيدر البعاج، مدير المستشفى التعليمي في البصرة.

١٣٩- أ. د. عالم عبد الحميد، عميد كلية الطب، جامعة البصرة.

١٤٠- أ. د. محمد عبد الرحيم العاني، أستاذ في كلية القانون/الجامعة المستنصرية، وهو طالب دكتوراه في كلية العلوم الإسلامية / جامعة بغداد، عضو هيئة علماء المسلمين، اعتقل يوم ٢٠٠٦/٤/٢٧ من أمام جامع الفاروق القريب من شارع فلسطين في بغداد من قبل عناصر وزارة الداخلية، وجدت جثته في مشرحة الطب العدلي في بغداد يوم ٢٠٠٦/٥/٢.

عراقيون لحقوق الإنسان

أرقام مزعجة وحقائق دامية أثارتها الأرقام المخيفة التي أعلنتها منظمة «عراقيون لحقوق الإنسان» في بغداد حول أعداد الذين تمت تصفيتهم من العلماء العراقيين والإعلاميين وعلماء دين ورياضيين وضباط وتجار سنة، أسئلة كثيرة ومخاوف كبيرة من المشروع الطائفي في العراق في ظل الاحتلال الأمريكي. فقد أوردت تلك المنظمة في تقريرها السنوي لعام ٢٠٠٦م أن ٣٢٠٠ عالم عراقي بمختلف الاختصاصات والمجالات تمت تصفيتهم جسدياً على يد منظمة بدر وجيش المهدي، وأوضحت أنهم علماء في الطب والكيمياء والفيزياء والفلك والذرة والعلوم الحياة والآثار، وذلك منذ احتلال العراق وحتى الآن. فيما ذكرت أن ٨٧ عالماً لديه براءات اختراع عالمية تمت تصفيتهم أيضاً، وأوضحت أن ٧٠٠ عالم دين سني تمت تصفيتهم، من بينهم أكثر من ١٧٠ عالماً من هيئة علماء المسلمين، وكذلك حفظة للقرآن الكريم، وخطاطون احترفوا كتابة المصحف الشريف. فيما قالت إن ١٥٠ صحافياً قتلوا منذ الاحتلال وحتى الآن؛ ٣٠ منهم على يد الاحتلال و٨٠ منهم على يد جيش المهدي وفيلق بدر، كان آخرهم في قناة الشعبية السنية في بغداد بمنطقة زيونه، فيما سجل قتل البقية على يد مجهول، و٥٠ رياضياً سنياً قتلوا منذ الاحتلال وحتى الآن على يد تلك المليشيات الشيعية في كرة القدم والسلة والملاكمة والتايكوندو حسب تقرير المنظمة.

واحتل ضباط الجيش العراقي السابق المرتبة الأولى في تلك الأرقام، حيث قتل ١١ ألف ضابط منهم على اختلاف صنوفهم بين القوة الجوية والبحرية والمشاة والدروع، أغلبهم من أهل السنة، وعدد قليل جداً من الشيعة الذين كانوا يحتلون مناصب بعثية عالية، إضافة إلى رتبهم العسكرية.

فيما تم تصفية ٣٢٨ تاجراً من أهل السنة كانوا يعتبرون أهم التجار المتحكمين في بورصة السوق العراقية في منطقة الشورجة وجميلة والمنطقة الصناعية في جنوب شرق بغداد.

يقول أحد الضباط السابقين في وزارة الداخلية، تم طرده من قبل «هيئة اجتثاث البعث»: عندما تسلم بيان جبر صولاغ وزارة الداخلية في حكومة إبراهيم الجعفري، لم يعد لفيلق بدر حاجة لارتداء البدلات السود أو استخدام كواتم الصوت، فقد قام هو بالمهمة عوضاً عنهم بصورة رسمية، حيث غيبت سجونه ١٢٣ أستاذاً وعالماً وتدريسياً من أهل السنة قضى أغلبهم من شدة التعذيب، فيما لايزال آخرون حتى الآن مسجونين بتهمة التعاون مع المقاومة التي يسمونها «الإرهاب». ويشير ذلك الضابط إلى أن لديه قائمة بأسماء ٢٢ عالماًعراقياً لايزالون في السجن حتى الآن، ولا يعلم عن مصيرهم شيء.. هم:

١- الدكتور رافد محمد العمر «طبيب»

٢- الدكتور البروفيسور طارق المشهداني «عالم كيمياء عضوية»

٣- الدكتور ناصر التكريتي «طبيب»

٤- الدكتور سعد الحياني «عالم هندسة وراثية»

٥- الدكتور فهد عبد الكريم الدليمي «عالم فيزياء»

٦- الدكتور جاسم الخالدي «خبير آثار»

٧- الدكتور علي الناصري «عالم اجتماع»

٨- الدكتور صلاح خالد كاظم «خبير اقتصاد»

٩- الدكتور وليد الجبوري «طبيب تجميل»

١٠- الدكتور أنور العاني «عالم فيزياء»

١١- الدكتور نبيل محمد العبيدي «إخصائي بكتيريا هوائية»

١٢- الدكتور باسل رزيك «عالم كيمياء»

١٣- الدكتور توفيق سعدي «عالم هندسة صواريخ»

١٤- الدكتور جبار أمين الباوي «عالم هندسة صواريخ»

١٥- الدكتور سليمان عادل الدليمي «مهندس طائرات حربيه ميج ٢١»

١٦- الدكتور سلام مخلص الحيالي

١٧- الدكتور صبري القيسي

١٨- الدكتور البروفيسور عاصم المحمدي «عالم ذرة»

١٩- الدكتور يوسف الكبيسي

٢٠- الدكتورة إيمان عمز عبد العزيز «فيزياء، اختصاص وقود صواريخ، ورئيسة قسم في التصنيع العسكري»

٢١- الدكتور حسام الموصلي

٢٢- الدكتور شجاع الحشماوي

٤٠ - عذاب البطانية

تشير تقارير لمنظمات عراقية معنية بتتبع علميات الاختطاف والاعتقال والتعذيب والقتل خاصة تلك التي طالت الكوادر العلمية أن بعض المعتقلين من الأساتذة فقدوا ذاكرتهم جراء (فقرة البطانية).. وهي إحدى فنون التعذيب الحديثة ، وهي كالآتي «يؤتى بالشخص المراد تعذيبه ويوضع على بطانية مقيد اليدين والرجلين، ثم يأتي أربعة من جماعة مالك وهو اسم قائد التعذيب في سجن وزارة الداخلية، ويقومون برفعه مع البطانية ورميه على الحائط بقوة، ثم يعيدون الكرّة حتى تتكسر أضلاعه أو يحدث خلل في دماغه، وقد فقد الكثيرون ذاكرتهم بسبب هذه العملية.

٤١ - ذباح العلماء

«يوسف الموسوي» امتهن أحقر مهنة وأشدها إيذاءً للإنسانية؛ إذ تخصص بقتل وتعذيب العلماء وأساتذة الجامعات العراقية، وبعدها أضاف إليهم الطيارين والنساء، ثم أخذ يقتل على الاشتباه والانتماء الطائفي، فمجرد أن يتناه إلى سمعه أن فلاناً مثقف وأنه صديق لأحد أساتذة الجامعات أو طالب في الدراسات العليا يبادر إلى وضع اسمه على قائمة الاغتيالات التي تخصصت فيها هذه العصابة، كونها من عصابات جيش المهدي.

يوسف الموسوي الذي أثار الرعب بعصابته في المدن العراقية -وبخاصة في بغداد والبصرة والموصل والمدن التي تحتوي على جامعات- بدأ بوضع قائمة بأسماء أساتذة الجامعات العراقية بادئاً بالأسماء الكبيرة ذات الإنجازات العلمية المهمة، ولا فرق عنده أن يكون العالم سنياً أو شيعياً، المهم عنده أن يكون أستاذاً جامعياً ذا شهرة علمية كبيرة، وأن يكون عربياً، وبدأ بتنفيذ جرائمه في بغداد متصيداً أساتذة الطب، حيث شهدت العاصمة العراقية مقتل العشرات من الأطباء المتميزين من أساتذة الطب في كلية طب بغداد، وبعد أن أجبر الآلاف من الأطباء على الهرب من العراق اتجه إلى أساتذة الجامعات في التخصصات الأخرى، فشهدت شوارع بغداد -وبخاصة القريبة من جامعتي بغداد

والمستنصرية- مقتل المئات من الأساتذة وعدد من الطلبة وخصوصاً طلبة الدراسات العليا، حتى كادت الجامعات تغلق أبوابها لامتناع الأساتذة من الذهاب إليها.

وبعد بغداد انتقل إلى البصرة ليقود عصاباته لقتل أساتذة جامعة البصرة، وأخذت المدينة الجامعية في التنومة بالبصرة تشهد سقوط العشرات من الأساتذة قتلى، ليهرب جميع الأساتذة، وقد أنشئت جامعة كاملة في دمشق جميع أساتذتها الدكاترة من الذين كانوا يدرِّسون في البصرة..!!

وبعد أن أنجز يوسف الموسوي مهمة تفريغ العراق من العقول والعلماء بعد أن قتل ما قتل وهرب من هرب، اتجه إلى الطيارين العراقيين وبخاصة الذين شاركوا في الحرب العراقية الإيرانية، والذين تصدوا للهجمات التي كان يتعرض لها العراق من القوات الأمريكية، وكانت عصابات يوسف الموسوي تحمل قوائم بأسماء الطيارين لاعتقالهم وتعذيبهم ثم قتلهم.

وبعدها توجه لقتل النساء العراقيات المثقفات؛ إذ كانت النسوة العراقيات يُختطفن من الجامعات والوزارات وبعد تعذيبهن يجرى قتلهن وقذف جثثهن.

نهاية هذه السيرة الإجرامية لسفاح أساتذة الجامعات كانت شبيهة بما كان يرتكبه بحق ضحاياه، فقد قُبض عليه في معارك البصرة التى أطلق عليها « صولة الفرسان» ، كونه أحد قادة العصابات الإجرامية التابعة لجيش المهدي، ومثلما كان يعذب ضحاياه، عُذِّب هو الآخر على أيدي الفصيل الآخر من المليشيات الطائفية، ومثلما انتهى من كان يعذبهم، كانت نهاية هذا السفاح مقتولاً مذموماً حتى من جماعته..!

٤٢ - أئمة المساجد

يقول الدكتور أحمد عبد الغفور السامرائى رئيس ديوان الوقف السنى بالعراق أن عدد الأئمة الذين لقوا مصرعهم منذ بداية أحداث العنف الطائفى بلغ أكثر من ٤٠٠ إمام وخطيب مسجد نصفهم قتلته الميليشيات الشيعية المتشددة والنصف الآخر قتلهم تنظيم القاعدة باعتبارهم كفارا .. حيث كانت تهمة التكفير جاهزة دائما لإلصاقها بأى إمام أو خطيب يمتنع عن الترويج لأفكار تنظيم القاعدة .

وتبدو معظم القصص متشابه ترويها سيناريوهات تبدأ من المراقبة والتهديد ثم الاختطاف والتعذيب حتى الموت أو القتل بإحدى طريقتين رصاصات فى الصدر والرأس أو الذبح .. وكانت عمليات التعذيب والقتل يجرى تصويرها وتوزيعها على نطاق واسع عبر الهاتف المحمول أو السى .دى ربما لإشاعة أجواء من الرعب وتمجيد القتلة وبث الخوف فى النفوس التى قد يكون قد علق بها بقايا من

الشجاعة تدفع على الإصرار للاستمرار فى أداء مهمة الوعظ والإرشاد والإصلاح لما أفسدته أيام المذبحة أو التمسك بالبقاء فى الوطن .

٤٣ - شهيد المستنصرية

الوقت هو الثانية إلا الربع من بعد ظهر يوم الأربعاء فى ربيع ٢٠٠٦ مع انطلاق عمليات القتل الطائفى ..المكان هو حي المستنصرية أحد الأحياء القريبة من مدينة (الصدر) وتحديداً جامع الحاج حميد الجنابي المطل على أحد الشوارع الرئيسية شرق العاصمة بغداد.. الهدف إمام الجامع وخطيبه الشيخ عبد المجيد الابن الذكر البكر وأحد التوأمين لمؤسس ومشيد الجامع في أواسط السبعينيات المرحوم الحاج حميد الجنابي ، ذى الاثنين وأربعين عاما طويل القامة .. أبيض البشرة التقي الورع والذي اتخذ من نهج الرسول الكريم وسيرته وأخلاقه نهجاً لحياته وحياة عائلته.

الشيخ عبد المجيد هو ابن الأب السني والأم الشيعية من منطقة الصويرة بمحافظة واسط التى تبعد حوالى ٧٠ كم جنوب بغداد والمتزوج من امرأة شيعية من ناحية الإسكندرية التابعة لمحافظة بابل والتى تبعد ٥٠ كم جنوبى العاصمة .. كما عرفه كل من كان قريباً منه نأى بنفسه عن الدنيا وجند نفسه للدعوة إلى دين الله ونهج وتعاليم رسوله ..كان ممن لا يخافون من قول الحق .. يعرف بفطنته وعلمه وذكائه الحاد ما يمكن أن يحدث له في أيام المذبحة وأخبر عن ذلك كل محبيه مراراً .

في الوقت والزمان المحددين وخلال دقائق معدودة امتلأ الشارعان المحيطان بالجامع الصغير بحوالي ١٥ سيارة حديثة مليئة بأشخاص يرتدون الزي الأسود ومعظمهم يرتدي الستر الواقية ويحملون الرشاشات الحديثة وقاذفات الأر بي جي وفي نهاية الرتل كانت هناك إحدى سيارات الشرطة (تويوتا لاندكروز) .

كان الشيخ عبد المجيد يتوقع هذا اليوم ويحذر محيطيه دائما من يوم مشئوم ،.. خرج للمسلحين بدشداشته ناصعة البياض من بيته المجاور مع أخيه التوأم والأخ الأوسط رافعاً رشاشته وساحباً أقسامها عليهم ..انبطح المهاجمون وكانوا أكثر من ثلاثين على الأرض وتناثروا يميناً ويساراً استعدادا لمواجهة الرشاشة الوحيدة أمامهم ، .. تقدم حامل الأر بي جي موجهاً سلاحه إلى الشيخ وأخويه والمنزل ، وعندها أدرك الشيخ أن المواجهة غير متكافئة.. قال لهم ماذا تريدون، .. قالوا له تأتي معنا ، .. نظر إلى أخويه وردّ عليهم آتي معكم واتركوا الآخرين، .. تقربوا منه وقيدوه وكانوا كلهم ملتحين ولا تكاد تفرق لون بشرتهم عن لون ملابسهم السوداء.

أوفوا بوعدهم.. فقيدوا أخويه وغطوا رؤوسهم بأكياس كتلك التي نشاهدها في

الأخبار ، دخلوا المنزل وكان ابنه زيدون ابن الثالثة عشرة يشاهد ما يجري من سطح المنزل .. لمحه أحدهم فأطلق النار ..، فتشوا كل شيء وحملوا معهم كل ما وجدوه من مال وأجهزة ثمينة ، لم ينفع استنجاد أمهم الشيعية ولا صرخات زوجاتهم وبكاء أطفالهم.. حطموا السيارات بعد أن عجزوا عن تشغيلها عدا واحدة ، فأخذوها معهم.

اختفى الشيخ وأخواه وانسحبت السيارات إلى مكان آخر وكانت سيارة الشرطة في نهاية القافلة ..الهدف الآن آخرين يجمعهم الصلاة في الجامع والسكن في المنطقة ووجود أسمائهم في قائمة طويلة كانوا يحملونها معهم .

في هذه الأثناء اختفت وبشكل غريب عشرات السيارات من سيارات الشرطة التي كانت تجوب الشارع ذهاباً وإيابا طوال ساعات الليل والنهار بصفاراتها التي كانت تبعث الخوف والطمأنينة معاً، ..اختفت الشرطة ولم يعد أحد يسمع أي صفارة ..اختفت الشرطة ليبدأ فصل آخر .

حي المستنصرية الذي يتعايش فيه الشيعة والسنة والأكراد منذ نهاية الستينيات من العقد الماضي تزاوجوا وتآلفوا وتحابوا فيه .. كان وإلى وقت قريب أحد أجمل وأنظف أحياء بغداد وأكثرها حصولاً على الخدمات العامة، .. هذا الحي تملؤه الآن الأوساخ ودخان مولدات الكهرباء ووجوه كثيرة لم يألفها ولم يعرفها من قبل ..بعضهم حديثي النعمة ممن سلخ نفسه من الفقر المدقع إلى مصاف الأثرياء الكبار وبعد سقوط بغداد مباشرة فيما عرف بالفرهود وما بات يعرفون في العراق الجديد باسم « الحواسم» وهي كلمة تطلق على من شاهدهم العالم على شاشات التلفاز بعد سقوط بغداد في قبضة القوات الأمريكية وهم ينهبون القصور والبنوك والممتلكات العامة والخاصة .

انتشر الخبر وبدأت الأخبار الأخرى تتوالى بسرعة، ..خطفوا طارق ، ..يبحثون عن نادر ، ..قتلوا فلان ..يبحثون عن الأخوين فلان وفلان .. هجموا على المسجد القريب الأخر وفجروه بالقذائف ،.. يسبون ويشتمون الشباب الشيعة من سكان المنطقة ممن حاولوا التفاهم معهم ووقفهم ،.. أصوات الرشاشات والقاذفات بدأ يتصاعد والصراخ والاستنجاد يتعالى من البيوت التي يهجمون عليها ، ..أين هم ؟ أين الكلاب ؟ .. انضم إليهم البعض من الوافدين الجدد على الحي بعد أن ارتدوا الزي الأسود بسرعة وحاولوا وبغباء أخفاء وجوههم ولكن كل أهل الحي تعرفوا عليهم.

بعد أن اتضحت الصورة وتواردت الأخبار من المناطق الأخرى وبحلول الرابعة عصرا أقفرت الشوارع المحيطة بالحي وهي تؤدي إلى ساحات وشوارع رئيسية في بغداد بل لا يفصلها عن نصب التحرير الشهير سوى جسر واحد لكي تعبره عليك أن تمر من أمام واحد من أكبر قطاعات النجدة التي تتمركز فيه وتنطلق منه سيارات الشرطة وهو لا

يبعد عن الجامع أكثر من مئتي متر !! خلت الشوارع من السيارات ومن قوات الشرطة والجيش والذي بات يعرف بالحرس الوطني ومن الأمريكان أيضاً .. لا حراك سوى لأصحاب الزي الأسود بلحاهم وسياراتهم الحديثة ودروعهم التي يلبسونها .

تحرك البعض واشتغلت أجهزة الهواتف النقالة ، يتصل الصديق بصديقه والجار بجاره.. أين أخذوهم؟ هل تعرف أحد من مكتب الشهيد الصدر؟ .. تتوارد الإجابات . لا أعرف ، ربما فلان يعرف ، نعم أعرف .. دعني أتصل بفلان لأن له علاقة بفلان لعله يعرف .. مئات الاتصالات وسيل من الدموع والحسرة ،.. لقد تحركت الميليشيات السوداء بسرعة ،.. لقد أخذوا الجوامع وأئمتها ومن يصلي فيها على حين غرّة.

الأخ التوأم للشيخ ينظر إلى أخيه وهو يعذب في غرفة أمام عينيه .. بدأوا بكيه بالسجائر وبدأ الشيخ بقراءة القرآن ..لم يتوسل ولم يحني رأسه أبداً .

انتقلوا إلى الكهرباء وبدأوا يصعقونه حيث تطال يدهم من قامته الطويلة ، في صدره، ..بدأ صوت الشيخ يعلوا بقراءة سورة ياسين كانوا ..كلما زادوا بتعذيبهم كان الشيخ يعمد إلى رفع صوته في تلاوته للقرآن و كان ذلك يغيظهم أكثر ..انتقلوا إلى يديه ليشبعوها ضربا و تكسرت يداه ..ظل يقرأ القرآن ، ..شغلوا المثقاب الكهربائي « الشنيور» الذي يطلق عليه العراقيون «الدريل» .. الشيخ يقرأ ويتألم وحركة لا تهدأ في المنزل الذي يتواجد فيه .. نسوة تذهب وأطفال يجيئون ويذهبون ..يطلون برؤوسهم ليشاهدوا بعض المشاهد الحقيقية وهي تجري في يوم جديد من أيام المذبحة .. أخوه التوأم بدأ يبكي بصوت عال ويسترحمهم بأن كفى .. رد عليه الشيخ بأعلى صوته لا تبكي.. أخي .. لا تبكي .. يلتفت إليهم قائلاً : افعلوا ماتشاؤون .. استجاب ذوو الزى الأسود لنداء أخيه سريعاً بعد أن يأسوا من إيقاف الشيخ عن قراءة القرآن .. استجابوا له.. أطلقوا رصاصة الرحمة في رأسه.

المستغيثون عرفوا الخبر وجثته لم تصل بعد إلى الطب العدلي فهواتف «الحرية الجديدة» نقلت الخبر ،.. لا أمل في الشيخ لأن السيد أصدر حكمه ولكن تم قبول الاسترحامات التي وصلت بشأن أخويه .

بعد نصف ساعة من اختطافه تعود الفرقة السوداء إلى الجامع ، تدخله بدون مقاومة لتحرقه بكل ما فيه .

بعد ساعة أخرى قوات من الحرس الوطني تنتشر حول الجامع المحترق .. تعود فرقة سوداء أخرى .. يتهيأ لهم رجال الحرس بتوجيه أسلحتهم نحوهم، .. ينزل أحدهم مع رشاشته ، .. يطلب منه الضابط الابتعاد وإلا أطلق النار ، .. ينزل ذوو الملابس السوداء ولكن هذه المرة مع رشاشات البي كي سي وقاذفات الآر بي جي ، ..

يلين الضابط ويسأل ماذا تريدون ..الجواب حرق الجامع، .. يردّ الضابط الجامع محروق، .. تغادر الفرقة ولكن بعد أن دُخلوا وتأكدوا أن لا شيء آخر يمكن حرقه .

مع عمره الصغير إلاّ أنه كان يعد عدته لمواجهة ربه.. فأوصى قبل استشهاده عن تفاصيل غسله ودفنه .

من غسله شوهدت علامات الصعق الكهربائي في صدره ، ..شوهدت ذراعاه المحطمتان، ..شوهدت كيات السجائر، ..شوهدت علامات رصاصة الرحمة في رأسه.. لم يتسنى سوى لثلاثة أن يرافقوه من الطب العدلي « المشرحة» إلى مثواه الأخير فبغداد تخضع لحظر التجول.

في الطب العدلي شاهدوا مئات الجثث قبل أن يتعرفوا على عبد المجيد حميد الجنابي ،.. كل الجثث مشوهه والكثير منها محروقة وبينها عشرات الجثث لصبية بين العاشرة والخامسة عشرة.

٤٤ - ضباط الجيش السابق

ظهرت على الساحة العراقية وفي ظل الفوضى الأمنية عصابات إجرامية وفرق موت مرتبطة بجهات كثيرة قوى إقليمية تكن كل العداء لضباط الجيش العراقي السابق مهمتها قتل وتصفية ضباط الجيش العراقي السابق وخاصة الضباط الذين يحملون رتبا كبيرة بالإضافة إلى الطيارين الذين شاركوا في الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨ حيث استولت العناصر التابعة للحرس الثوري الإيراني بعد غزو العراق على قاعدة المعلومات الخاصة بضباط الجيش العراقي السابق عن طريق عملاء لهم داخل العراق علما إن جهاز المخابرات الإيراني (إطلاعات) لديه معلومات مفصلة ودقيقة عن كل ضابط شارك في الحرب ضد إيران.

ومنذ بداية الاحتلال الأمريكي للعراق فى إبريل عام ٢٠٠٣ قتل واعتقل مئات من الضباط العراقيين الذين شاركوا في الحرب العراقية الإيرانية واستمرت عملية استهداف ضباط الجيش العراقي السابق وتصفيتهم حيث تواري المئات منهم عن الأنظار خوفا من الوقوع بيد فرق الموت التي تعمل داخل العراق .

ورغم انتشار الخونة والعملاء الذين نفذوا مخططات تصفية الضباط المنتمين إلى الطائفة السنية غالبا وبعض المنتمين إلى الطائفة الشيعية إلا أن ما يجب ذكره هنا هو أن الكثير من الضباط السنة الذين أفلتوا من نوبة التصفية يؤكدون أن من أنقذهم زملاء لهم من الشيعة الطيبين وروى لى كثيرون منهم كيف كانت عمليات اغتيالهم تفشل بسبب زميل أو مرؤوس لهم يخبرهم فى الوقت المناسب

بالمؤامرة ويعمل على إنقاذهم وإبعادهم من مسرح العملية وهو ما حدا بهم إلى الهروب إلى خارج العراق أو الانكفاء على الذات ومزاولة أعمال لا علاقة لها بالعسكرية حتى يبتعدوا قليلا عن فرق الموت التى تستهدفهم .

٤٥ - السباك

عندما بدأت الأمور تتجه إلى الهدوء النسبى منتصف العام ٢٠٠٨ وزاد الطلب على إيجار المكاتب فى العمارة التى يقع بها مقر مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط فى بغداد « عمارة الكبيسى» بدأ ملاكها فى إصلاح ما أفسدته سنوات الوحشة عندما كانت البناية مهجورة تماما ليس بها سوى مكتب الوكالة وأحد المكاتب الأخرى ..طلب منى المشرف على إعادة إعمار البناية التعاون مع السباك المسئول عن إصلاح الأدوات الصحية للعمارة وكان رجلا عبوسا لا يبتسم أبداً رغم ملامح وجهه التى تنطق بالطيبة ووجهه الذى تبرز فيه سمة من يصلون النهار ويقومون الليل إلا أنه كان غاضبا بشكل دائم بلا سبب يبدو مقبولا لى .. ومع استمرار العمل داخل مكتبى جرت بيننا جوارات طويلة أظهرت مدى ثقافته وإطلاع ودقة تحليلاته للأمور وهو ما دفعنى إلى محاولة معرفة الكثير عنه رغم أنه شخص شديد الكتمان والحرص إلا أن المودة التى تولدت بفعل الوقت والظروف جعلته يفصح عما بداخله من قهر لأكتشف أنه كان طيارا حربيا برتبة عقيد وأحد الذين خاضوا معارك ضارية فى الحرب العراقية الإيرانية وأنه اضطر لممارسة مهنة السباكة حتى يتوارى عن الأنظار إلا أنه يعيش فى قلق دائم بسبب استهدافه كما أنه يعيش وضعا نفسيا قاسيا بسبب ما آلت إليه الأمور بالنسبة لضابط رفيع وطيار محترف مثله وهو ما يفسر غضبه وعصبيته الدائمة .

وتصديقا لهذا الأمر نشرت وكالة الأنباء الصينية تقريرا هاما حول تلك القضية وكيف تحول ملوك الجو إلى سائقى سيارات أجرة

بعقوبة ، العراق ٢٤ أبريل ٢٠١٠ (شينخوا) أرغمت الظروف المعيشية الصعبة الكثير من الطيارين العراقيين السابقين بعد الاحتلال الأمريكي للبلاد ، على العمل في مهن بسيطة لتوفير لقمة العيش لأسرهم ، فمنهم من عمل سائق باص أو بائعا في متجر صغير وسط سوق شعبي.

لكن هؤلاء الطيارين في حنين دائم للطيران كونهم يعشقون سماء بلاد الرافدين،ويأملون أن يعود الصقر العراقي، (الاسم الشعبي للطيار) إلى السماء قويا ليحمي أجواء البلاد من الأعداء .

وقال الدليمي ، وهو طيار سابق برتبة عقيد، طلب ذكر لقبه فقط لأسباب أمنية

لوكالة أنباء (شينخوا) « عندما يفقد الصقر لذة الطيران ويرغم على المكوث على الأرض فإنه يعيش ما تبقى من حياته عليلا .. تتطلع عيناه نحو السماء دوما لأنها عشقه الأبدي».

الدليمي ، الذي يسكن في أحد أحياء مدينة بعقوبة مركز محافظة ديالى شرقي البلاد،أشار بيده وهو يجلس في غرفة صغيرة متواضعة إلى الكثير من الصور المعلقة على الجدران، وجميعها تتحدث عن مسيرة حياته في مهنة الطيران الحربي منذ بداية عقد الثمانينات من القرن الماضي وحتى سقوط النظام السابق في عام ٢٠٠٣ ، وقال «إن الطيران مهنة رائعة لايمكن وصفها، أحببتها كثيراً واحترفت قيادة عدة أنواع من الطائرات الحربية وشاركت في الكثير من المعارك وحصدت الأوسمة والأنواط».

وكان سلاح الجو العراقي يضم مئات الطائرات ألحربية الحديثة ومن أنواع مختلفة خلال العقود الثلاثة الماضية، تعرضت أغلبها للتدمير في حربي الخليج الأولى والثانية حتى انتهى الأمر بالطائرات الحربية التي أنفقت ملايين الدولارات لشرائها إلى ركام وسط الأحراش والبساتين، فيما بدأت بوادر لبناء سلاح جو عراقي حديث بدعم أمريكي بداية عام ٢٠٠٤ لكنه لايزال في خطواته الأولى.

وسيطرت نبرة تحمل الألم والحسرة على الدليمي وهو يتحدث عما جرى للقوة الجوية العراقية وكيف دمرت بشكل كبير بعد احتلال العراق من قبل القوات الأمريكية ليرغم مئات الطيارين العراقيين على المكوث في منازلهم ليفقدوا متعة الطيران.

وقال الدليمي : إن «لعنة تاريخنا في عالم الطيران الحربي بدأت تطاردنا بعد سقوط النظام السابق وبدء مسلسل الاغتيالات المنظمة للعديد من الضباط المعروفين في مدينة بعقوبة بين عامي ٢٠٠٤-٢٠٠٥ لذا أرغمت وحفاظا على أرواح أسرتي على أن أهجر منطقتي وأرحل عنها للحفاظ على حياتي».

وتابع «اتخذت قرار الرحيل إلى منطقة أخرى حتى أكون بعيدا عن أعين المتربصين بي، وأفلت من مخططاتهم الإجرامية لكن الأمر ازداد سوءاً لأن الراتب كان ضئيلا جدا لا أستطيع معه توفير القدر الكافي من الحياة الكريمة لأسرتي، لذا أرغمت على اتخاذ قرار آخر وصعب جداً وهو أن أعمل سائق سيارة أجرة لكي أوفر القدر الكافي من المال حتى لا أدع أسرتي بحاجة لشيء».

وقال والألم يعصر قلبه « بالأمس كنت طياراً أجوب سماء البلاد شرقا وغربا، واليوم أقود سيارة أجرة قديمة وأتجول بها في مدينة بعقوبة .. إنها بحق سخرية القدر، لكننا نحمد الله على كل شي في نهاية المطاف».

ووصف الدليمي ما حدث من تدمير لسلاح الجو العراقي عام ٢٠٠٣بأنه مخطط متعمد يهدف لإبقاء العراق ضعيفا دوما، فبدون طيران قوي لا يمكنك أن تحمي البلاد، مبينا أن الخطوات التي تحاول الحكومة العراقية تنفيذها لإعادة بناء القوة الجوية بطيئة وضعيفة جدا.

بدوره قال صلاح الرفاعي، طيار عراقي سابق برتبة مقدم، عندما كان واقفا وسط محل تجاري في سوق بعقوبة، وهو ينظر إلى أطفال صغار يلعبون بطائرات ورقية ملونة ترتفع في السماء في متنزه قريب من متجره، «قضيت كثيرا من الوقت في السماء حتى تخيلت أنني لن أفارقها أبدا ، لكني أرغمت على فراق مهنتي التي أحببتها كثيراً لينقلب بي الحال من طيار محترف إلى بائع في متجر».

ووصف الرفاعي ما حدث للطيارين العراقيين بالأمر المجحف بكل معنى الكلمة بسبب وجود ما أسماها بأجندات خارجية أرادت أن تقضي على جيل كامل من الطيارين الموهوبين الذين كانوا الدرع الواقي لسماء البلاد وأنفقت الدولة العراقية ملايين الدولارات لتأهيلهم.

وتابع «لكن ما حدث بعد الاحتلال فاجعة بكل المقاييس، فقد قتل الطيارون وفق مخططات منظمة وأرغم الكثير منهم على الهرب خارج البلاد للخلاص من الموت المحقق، أما من تبقى فقد اختفى عن الأنظار وعمل في مهن مختلفة من سائق باص إلى صاحب متجر إلى أعمال ومهن أخرى لايمكن أن تقارن بأي حال من الأحوال بمهنة الطيران».

وأكد الرفاعي أن الطيارين العراقيين لم يكن ولاؤهم لنظام أو طائفة أو قومية، بل للعراق فقط، والساسة العراقيون يدركون الأمر جيدا لكنهم قبلوا أن يبعدوا أصحاب الخبرة والمهنية عن العمل لتبقى القوة الجوية العراقية ضعيفة لايمكنها مواجهة أية أخطار، وهذا ما يريده الاحتلال الأمريكي .

وأشار إلى أن هناك إهمالاً حكومياً لشريحة الطيارين السابقين، مبينا أن بعضهم تلقى عروضا للعمل خارج البلاد لكنهم رفضوا ذلك وفضلوا البقاء في بلادهم لأنهم فقدوا متعة الطيران في سماء العراق ولايرغبون أن يفقدوا لذة العيش على أرضه .

يذكر أن المئات من الطيارين وكبار ضباط وقادة الجيش العراقي السابق اغتيلوا على أيدي جماعات مسلحة مجهولة خلال السنوات السبع الماضية وخاصة في عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤ بعد الاحتلال الأمريكي للعراق.